BENGT OHLSSON

بينغت أولسون

كولكا

رواية

دار المنى

«من الآن فصاعداً ستصبح الإنجليزية هي لغتي. حياةٌ جديدة، بلدٌ جديدٌ، ولغةٌ جديدة.»

BENGT OHLSSON

کولکا

٢٠١٩ ١٢ ٢٢

مكتبة
t.me/t_pdf

Arabic edition © Bokförlaget Dar Al Muna AB, 2017
© Text: Bengt Ohlsson 2010
Originally published in Swedish by
Albert Bonnier förlag under the title: Kolka
Published in the Arabic language by arrangement with Bonnier Rights, Stockholm, Sweden
All rights for Arabic language are reserved

ISBN: 978 91 87333 74 3

www.daralmuna.com

T

بينغت أولسون

كولكا

رواية

ترجمة: مايا أبو الحيات

دار المنى

من الآن فصاعداً ستصبح الإنجليزية هي لغتي . حياةٌ جديدة ، بلدٌ جديدٌ ، ولغةٌ جديدة .

لطالما امتُدحت على لغتي الإنجليزية ، قراءةً وكتابة . لن أواجه أيّة مشكلة .

«لغتُك لا تشوبها شائبةٌ ، مذهلةٌ!» قال لي أحدهم خلال الدردشة على الإنترنت . وكذلك في المدرسة لطالما أسمعني المعلمون كلامًا رائعًا حول لغتي الإنجليزيّة .

لن أواجه أيّة مشكلة . صحيحٌ أنّني أحيانًا لا أجد الكلمة المناسبة ، لكنّني أستطيع استبدالها بكلمةٍ أخرى . أن تترك لغتك القديمة وراءك هو أشبه بالذهاب إلى مدينةٍ جديدةٍ من دون اصطحاب خريطتها . ستشعر في البداية أنّك ضائعٌ ، لكنّك ستجد نفسك في أماكن لن تأخذك إليها الخرائط ، ستصل إلى أماكن لا تبلغها إلّا حين تضيع قليلاً ، وعلى الأكثر حين تضيع كثيراً .

ستتمكن أيضاً من جمع أناس جددٍ حولك ، تلتفت إليهم وتسألهم عن الطريق ، طريقةٌ رائعةٌ للتحدث مع الغرباء!

إذاً ، هذا هو الزفاف ، الحديقة ، حيث المنزل أو القلعة . يبدو كلُّ شيءٍ كقصّة خرافيّة!

السماء زرقاءُ داكنةٌ ، مع بعض النجوم التي تتلألأ ، كدتُ أقول «النجوم التي ترمش» ، فقط لنغمتها التي ترنُّ في رأسي ، لكنَّ هذه النجوم لا ترمش ، إنّها تبدو ميّتةً وغير مهتمّةٍ ، مثل ضوءٍ يخرُجُ من نافذة متجرٍ طواه النسيان .

أكره الجلوس في الصفِّ الأمامي ، الكثير من الناس خلفي ، عيونٌ وأصواتٌ كثيرةٌ شديدة البرودة ، كأنّهم جيش . أكره الجلوس في منتصف الصفِّ الأمامي أيضاً ، على جانبي الأيسر صفٌّ لا نهاية له من عائلة كاترينا ، بدءاً من والديها وأشقائها الثلاثة - أو ربما شقيقين اثنين - وثلاثُ أخوات أو أربع ، كيف تمكّن والداها من إنجاب هذا العدد من الأبناء؟

أعني ، حين يولد الطفل الأول يبدأ بالصراخ ، ثمّ يبدأ تغيير الحفاضات ، ثم ينجبان مرة أخرى . الطفل الثاني ، صراخٌ ، تغيير حفاضات ، ثم جولةٌ أخرى من الإنجاب ، وأخرى ، وأخرى ، وأخرى ، كأنَّ التّكاثر هو الأمر الوحيد الذي يعنيهما في الحياة! أعلم أنّ لديهما جيشاً صغيراً من المربيات والخادمات ، يأتون مسرعين لخدمتهما ما أن تخرج الأمور عن السيطرة .

ها هما يتمتّعان بصحةٍ جيدةٍ ، وبإمكانهما أخذ فسحة من الراحة في أيِّ وقتٍ ، لقد اعتنيا برشاقتهما ومظهرِهما ، لأنَّهما يستطيعان تحمُّل التكاليف . لكنّ هذا الأمر هو بمتناول كثيرين غيرهم ، ومع ذلك فهم لا يهتمّون بالتكاثر ، ما أدراني؟

على جانبي الأيمن ، صفٌّ آخر من عائلتها ، أخوالها ، أبناء أعمامها وأعمامها ، وزوجاتهم . وفي بداية الصفِّ ، وبملاصقتي ، تجلس سارة ابنة كاترينا . من الواضح أنَّهم أرادوا أن نشعر أنَّنا محظوظتان ، وأنَّنا محطّ الأنظار ، وأنّنا الشخصيَّتان المحوريّتان في هذا العرس ، وإن كنّا بالطبع دون أبي وكاترينا أهميّةً .

أنا وسارة محشورتان في الوسط . وهذا الأمر أبقاني متيقّظةً طوال الوقت . يا للقرف! كلُّ خطوةٍ محسوبةٌ . منذ دقائق كنت شاردة الذهن وحَكَكتُ ظهري ، ثم بدأت بالتفكير كم مرَّةً فعلت ذلك من دون أن أنتبه ، هل لاحظ الآخرون ذلك يا تُرى؟ ربما هم الآن يُحصون عدد المرات التي حَكَكتُ بها ظهري ، ويتساءلون إن كنت قد اغتسلت مؤخّراً ، أم أنَّني أحمل معي مرضاً من بلدي القديم ، ماذا كان اسمه؟

لا تسألوني ، ليس بعد الآن ، من الآن فصاعداً أنا أتحدث الإنجليزيّة فقط ، لا تلوموني ، من الآن فصاعدًا هكذا ستكون الأمور .

من جهةٍ أخرى ، لو قلت إنَّني أريد الجلوس في الخلف ، لكانوا استجابوا لرغبتي بالتأكيد ، وبسعادة على الأرجح .

أستطيع سماع أصواتهم ، لا أستطيع أن أميِّز صوتًا عن غيره ، لكنَّني أستطيع سماعهم . صوت امرأة ، متقدّمة قليلاً في السن ، ليست مُسنّةً ، وليست كاترينا ، إنّما أكبر منها بقليل . لكنَّ الصوت يتكلّم : تستطيعين الجلوس أينما شئتِ ، في الخلف ، على الأرض ، لكن من الممكن أن تبردي ، نستطيع إحضار بطّانيَّة ، فالعرس قد يطول كما تعرفين . لكنَّني أريد أن أجلس على الأرض! طبعاً تستطيعين . أريد الجلوس فوق الشجرة! طبعاً تستطيعين ، يا لَلفكرة الرائعة! ستكون الرؤية أفضل من هناك ، وكذلك أكثر ظرفًا! أتمنى لو أنَّني أستطيع الجلوس معك على الشجرة .

أنا محشورةٌ في وسط صفَّين لا ينتهيان من عائلة كاترينا وأقربائها . لا أفهم ما هو معنى (نيفيو nephew) حتى في لغتي القديمة .

ثمَّ ، خلف هذين الصفّين كلُّ هؤلاء الناس . يبدو أنّ الجميع هنا مهتمٌّ بالتكاثر مثل والِدَي كاترينا ، لهذا يوجد الكثير من الناس هنا ، إخوةٌ وأخواتٌ ، أعمامٌ ، أبناءٌ ، تكاثر ، تكاثر ، تكاثر! الأرجح أنّ كاترينا هي الاستثناء في عائلتها ، بما أنّها لم تكن ترغب بهذا القدر من الأطفال . ابنةٌ واحدةٌ فقط ، وبعدها انفصلا ، ثمَّ كان عليها الذهاب إلى ما وراء البحار لتجد ربّما غيره لتنجب منه المزيد .

أتساءل إن كانوا يحسدونها أم يشفقون عليها!

أتساءل لماذا لم يدعُ أبي المزيد من الأصدقاء. لكنّني حين أتخيَّلهم هنا، أفهم السبب. أنا واثقةٌ من أنَّهم كانوا سيتصرفون بلباقةٍ، جان، ستيبا والآخرون. كانوا سيستمتعون بالتأكيد، لكنَّ الوضع سيتحوّل فجأةً إلى الجدّيّة. وطبعاً لو كان العمُّ رودي هنا، سيكون الوضع أشبه بالتسليم لدولةٍ أخرى، كما لو أنَّهم يقولون وداعاً. لكنَّني هنا وحدي، محشورةٌ في وسط عائلة كاترينا. وهذا يجعلني أفكر أنَّ أبي يخطِّط لشيءٍ ما، وأنَّه ليس جديًّاً، وأنّ ما يحدث ليس أكثر من قصّةٍ خياليّةٍ في النهاية.

لكن ها هو. أرى ضحكته حين يلتفت ليبتسم لها. خدّاهُ ينتفخان حين يتكلَّم الكاهن. قد لا يكون الرجل كاهناً. فهو يبدو رجلاً عادياً جداً، عادياً كالآخرين. هؤلاء القوم يملكون كلماتهم الخاصة، قوانينهم المُتَّفق عليها. يبدو مثل مُسنٍّ في قبيلةٍ، طبيب القرية. رجلٌ بأسنانٍ مكسّرةٍ وشعر رماديٍّ يخرج من أذنيه، يتلعثم بالكلمات والأوراق والخواتم. لَكن لا بأس، فهو الرجل الهامّ في هذه القبيلة، والجميع يعلم ذلك.

لكنَّني مع ذلك أريد أن أقنع نفسي بأنّه لا أحد، غير أنَّني لست متأكدةً من صحّة هذا الأمر. لو تحدثت معه في موقف حافلة مثلاً، لكنت قد شعرت تجاهه تلقائيًا ببعض الاحترام.

إنَّه يتكلم، وقد وضع ميكرفونًا متصلًا بأذنه، إلّا أنّه قد انزلق إلى أسفل ذقنه فلا يسمعه أحد، فيما يتصاعد صياح الجميع يطالبه بأن يرفع الميكرفون. ويبدو هو محتاراً ومذهولاً،

يقول شيئاً يجعل المدعوّين في الصفِّ الأول يضحكون بجنون . بعدها يهرع أحدهم نحوه ويعدِّل الميكرفون الذي يعود للانزلاق مرّةً أخرى ، ثم يقف أحدهم بجانبه ممسكاً الميكرفون أمام وجهه تماماً ، ويقول شيئاً يجعل الجميع يضحكون كالمجانين مرةً أخرى ، حتى سارة بقربي . أنا لم أسمع ما قاله ، ولا أريد أن أسأل سارة ، ولا يوجد أحدٌ آخر لأسأله لأنَّني لا أعرف أحدًا ، وحتى لو كنت أعرفهم ، فإنَّني على الأغلب لم أكن لأسأل . الجميع يعتقد أنَّني خجولة ، لهذا جاريتهم وضحكت مثلهم . تلفّتُّ قربي فوجدت أحدهم يحدِّق بي ، وسرعان ما انحنى مقترباً مني وقال شيئاً ، لهذا كان عليَّ أن أنحني أنا الأخرى وأتصرَّف كأنَّني فهمت ، لكنَّني لم أستطع أن أهزّ رأسي بالموافقة أو الرفض ، لأنَّ أيّ ردّ قد يكون خطأً ، لذا اكتفيت بالضحك وأدرت وجهي .

السماء سوداء تماماً الآن ، بينما تنعكس الإضاءة على الموجودين فيبدون كالمشاهير تحت الأضواء . مع أنفاسهم تستطيع تمييز سحابةٍ من الدخان تخرج في الضوء ، وتظهر فيها الغبار والحشرات . كنت اعتقد أنَّ الحشرات قد ماتت بعد قدوم فصل الخريف ، لكنَّ حرارة الكشّافات على ما يبدو أعادتها إلى الحياة . وللحظةٍ شعرت أنَّ العالم يزداد احترارًا ، وأنَّ هذا ما سيحدث : الكثير من الحشرات ستعود إلى الحياة ، حشراتٍ لم نرها من قبل ، لا بردٌ سيقتلها مرةً أُخرى ولا شتاء ، المزيد والمزيد

من الحشرات ، سيتشكّلون على هيئة غيمةٍ تحيط بكلِّ واحدٍ منّا . ربما نعتاد على تلك الغيمة ، وربما يخترعون شبكاتٍ وقبّعاتٍ خاصةً ، ثم حين نرى صورًا لأشخاصٍ يتجوّلون في المدن من دون قُبّعاتٍ أو شبكاتٍ ، ونفكر بغرابة هذا الأمر ، كأنّهم يتجولون عراةً ، ستُصيبنا القشعريرة بمجرد التفكير في المشي من دون شبكةٍ تُحيط برأسنا .

- لا يبدون قلقين على الإطلاق!

صوت سارة حادٌّ جداً ، كأنّه إبرةٌ رفيعةٌ اخترقت طبلة أذني بسرعة .

ابتسمتُ وهززت رأسي بالرفض ، ثم انتبهت إلى أنَّ هذا ردٌّ خطأ ، كان عليَّ أن أهُزَّ رأسي بالموافقة .

أعتقد أنَّ الرجل المسنَّ يسأل السؤال الآن ، أبي ينظر إليها بتمعنٍّ ، أنظر إلى خدوده المنتفخة وقصّة شعره السخيفة ، التي تُعطي انطباعاً أنّه استيقظ حالاً من الفراش . كم هي مُحرجةٌ ، لا بُدَّ أنَّ الجميع فكروا في ذلك . وتلك الابتسامة الواثقة! أودُّ لو أنهض من مكاني وأدفعه ، تماماً كما كنّا أطفالاً ، وأقول : حسناً ، توقف عن هذا الهراء ، توقف عن التمثيل ، ثم سنضحك ملء أفواهنا .

أخرج دخاناً من فمه حين أجاب : نعم . كذلك فعلت كاترينا . لا أصدّق أنّها لم تفعل شيئاً بشعرها ، يبدو أجعد وباهتاً ، كأنّها مريضةٌ نفسيةٌ ، أو صُعِقت بمسٍّ كهربائيٍّ ، كما

يحدث في أفلام الرسوم المتحركة . تبدو أكبر سناً مما هي عليه ، وهي بالفعل كبيرةٌ . أعرف ماذا تريد أن تقوله لنا بشعرها هذا ، أعرف جيداً ، تريد أن تقول إنَّها روحٌ حرةٌ! وأعتقد أنَّ أبي يريد أن يُظهِر الشيء ذاته . لم يكن الأمر واضحاً من قبل ، لكن ها هو الآن ، شعرُ هذين الشخصين يقولُ كلَّ شيءٍ : نحن ننتمي للأرواح الحرّة . وهذا هراء! فلا وجود بالطبع للأرواح الحرّة! على الأقل هذا ما أعتقده ، لكنَّ الجميع يحاولون الظهور على أنَّهم كذلك .

شخصياً عندي نظريّةٌ ، كلَّما ازداد استعبادك ازدادت أهمّيّة أن تُظهر روحك الحرّة . هذا عزاؤك الوحيد في الحياة .

تفكيرك بأنَّ الناس ينظرون نحوك فتبدو لهم كذلك : آه انظر ، روحٌ حرةٌ تتحرك! وإذا كان انطباعهم قوياً بما يكفي ، ستشعر فعلاً أنّك روحٌ حرّةٌ ، ربما هذا أمرٌ جيدٌ في النهاية .

لا أعرف ، لا أعتقد أنَّك تستطيع أن تكون روحاً حرّةً قبل أن تموت ، ولا حتى عند الموت . لربما البوذيون محقّين ، أو غير محقّين عندما رأوا أنّ الموت يعني أن تغُطَّ في النوم ، ثمّ أن تعود كفأرٍ أو شيءٍ آخر! كلّ ما عليك فعله هو أن تأمل بفرصة لأن تحيا بالشكل الذي عُدتَ به من جديد ، أعني وجودك الجديد ، أن لا يقنصك صقرٌ جائعٌ بعد أيام قليلةٍ على ولادتك . لكن طبعاً يمكنك البدء مرّةً أخرى ، أي أنَّ تولد كفأرٍ من جديد .

أتساءل إن كنَّا سنتذكّر ماذا كنَّا في السابق . أتمنّى لو أنَّني لا

أتذكّر . أنا متأكّدةٌ من أنّنا لا نتذكّر . لو أنّنا نتذكّر ، لصرنا مخادعين .

سأفكر : آه ، أتذكّر أنّني كنت فتاةً في الحديقة تنظر إلى والدها بقصّة شعره ذات الروح الحرّة ، وبالحلق في أذنه ، وهو يقول نعم للزواج بامرأةٍ غنيّةٍ بشعرها المنكوش ، والآن أصبحت فأراً ، ممم ، لا يبدو أنّ في عودتي إلى الحياة بهذا الشكل أيّ إنصاف . وعندها ستحاول أن تعيش حياتك في الحقل بأفضل ما تستطيع ، فلربما تمكّنت من أن تصير أرنباً أو حصاناً في المرّة المقبلة .

لكن هذا لا يبدو صوابًا . أبدو منافقةً تفعل الخير لترتفع درجةً في سلّم الحياة ، بينما الطريقة الأفضل لفعل الخير هو أن تفعله لأنّك تريده فعلاً . ربما البوذيّة ليست سيئةً جداً . ربما كلُّ شيءٍ معدٌّ مسبقاً ، أستيقظ كفأرٍ من دون ذاكرةً عن أيّ وجود لي سابق غير الفأر الذي أنا عليه .

من جهةٍ أخرى ، من قال إنّ الأرنب أفضل من الفأر ، والإنسان أعلى مرتبةً من الأرنب؟ ربما نتحوّل إلى شجرةٍ إذا كانت حياتنا جيدةً ، لن أمانع بذلك ، في حال لم يقطعني أحدهم ليبني بي شيئاً قبيحاً ، كتلك الألواح التي يضعونها حول مواقع البناء لمنع الناس من الاقتراب منه إلى أن ينتهي المبنى . لكن هذا يعني أن أتحوّل إلى شيءٍ آخر ، ماذا يمكن أن يكون أعلى مرتبةً من الشجرة؟ كيف يمكن لشجرةٍ أن تتصرف

بسوءٍ ثمّ أن تعاقب بتحوُّلها إلى ، لا أعرف ، ربما إلى تلك المرأة هناك ، بشعرها المنكوش؟

أعتقد أنَّ الأمر انتهى ، الجميع ينهضون ، يعانق بعضهم بعضًا . سارة تضُمُّني ، تصل حتى كتفيّ . أنا طويلةٌ بالنسبة لسنّي ، طويلةٌ ونحيلةٌ وباهتةٌ . ليس بقوةٍ على اليدين ، قال الرجل . من الصعب ترجمة ما قاله ، هذا ليس خطئي!

ها أنا إذًا ، سارة تقترب من خدّيّ وتريد أن تقبِّلني ، ربما تريدني أن أقبِّلها أيضًا ، كأنّنا سفراء ، ربما هي العادة هنا . الجميع يُخرج دخاناً من فمه ، الأنوف حمراء وتُصدِر أصواتاً ، وها هما أبي وكاترينا .

مرحباً أيتها الجميلة ، تقول .

أنظر بعيداً ، أقول إنَّ فستانها جميلٌ ، تخبرني بقصّة فستانها ، تتكلّم عن القماش وتريدني أن ألمسه ، أفعل ذلك ، أفرك القماش بين أصابعي وأفكر بالحلويات والغبار العالقة في يدي ، وهي تعلق الآن كعيون شيطانٍ على فستانها .

أبي ينظر نحوي ويقول شيئاً بلغةٍ لا أفهمها . أنظر نحوه كأنّه أبلهٌ ، قرويٌّ أبله من بلادٍ منسيّة . معتوهٌ بخدَّين بدينَين أحرز الميدالية الذهبية . سيكون «هامستر» في حياته القادمة ، ببنطاله المخطَّط بالأزرق البارد والأبيض ذي الأزرار السوداء . البنطال أيضاً يلبسه ليُظهِر انتماءه إلى الأرواح الحرّة .

الجميع يريد أن تُلتقط له الصور . أبي وكاترينا يطلبان أن نقف أمامهما ، أشعر بكفٍّ كاترينا وكفٍّ أبي على كتفي . امرأةٌ بفستانٍ أسود وشعرٍ أحمر تأخذ الصور ، تتحرك من اليمين إلى اليسار ، كمحترفةٍ في التقاط الزاوية الأفضل ، ثم ألمح شيئاً آخر فيما هي تنظر إلينا ، نظرة شَك . تبدو كمن اكتشف شيئاً أخافها عندما رأتنا معاً ، شيئاً ما بشأننا يبدو مريباً .

الجميع يشرب . سألوا والدي إن كنت أستطيع أن أشرب وقال لا بأس ، ثم سمعت صوتاً يقول : طبعاً لا بأس ، وضحك الجميع .

توقف الجميع حول طاولاتٍ وضِعَت عليها مقبِّلاتٌ داخل صوانٍ فضيةٍ كبيرة . لم أنتبه كيف جاءت الطاولة ، كأنَّ أحدهم كبس زراً في البيت لتخرج الطاولة من حفرةٍ سريّةٍ في الحديقة .

المقبِّلات خضراء وحمراء وتلمع . سارة تُمسك بيدي وتتكلّم عن أقاربها ، أحياناً تقترب مني وتهمس ، فيبدو لسانها أشبه بلسان خنزيرٍ طويل ، وعليَّ أن أقف هناك طوال الوقت وأبتسم وأنظر إلى المكان الذي تريدني أن أنظر إليه ، وبتمهّل ، ابن العم هذا وابن العم ذاك ، أحدهم أحضر بندقيّة صيدٍ إلى المدرسة ، وآخر ضُبط وهو يتعاطى الممنوعات ، لا تنظري!

أكلت بعض المقبِّلات ، أحياناً كُنتُ أدَّعي باضطراري إلى إحضار شيءٍ ما ، منديلٍ أو صودا مثلاً ، وفي كلِّ مرّةٍ كُنتُ آمل أن تتلهّى سارة مع أحدٍ آخر ، لأتصرَّف كأنّني لم ألمحها .

لكنَّها تملك عينَي بومةٍ ، ترقُبُني ثم تلوِّح . بعد فترةٍ شعرت أنَّ أحدهم أخبرها بأن تراقبني ، ولا تدعني أغيب عن ناظريها .

إذاً ها نحن ، أنا وسارة ، الجميع ينظر نحونا . بعد قليلٍ تدسُّ سارة يدها في ذراعي ، بالتأكيد ستطلب مني مراقصتها قريباً . هذه مسخرة! والجميع سينظر نحونا ويضحك ويصرخون بشيءٍ ما ، وسارة سترُدُّ وأنا سأضحك وأهزُّ رأسي بالموافقة أو الرفض ، وسيكون الجواب خطأ دائماً!

فجأةً ظهرت أمامي الكلمة السحرية «الحمّام» ، لا تستطيع مُرافقتي إلى هناك! يعلم الله أنَّها حاولت . لحقت بي إلى الممرِّ وأشارت إلى الباب . أطلقت دعابةً أخرى وأنا ضحكت وهززت رأسي ، وكان ذلك بإجابة خطأ مرّةً أُخرى . توقّفت هناك وتأكّدت من أنَّني دخلت من الباب الصحيح ، ثم نظرتُ إليها ولوّحت لي .

الحمام يشعُّ نظافةً ، مناشف حمراء جديدةٌ تزيِّن الرفوف . لا أعرف لماذا ، لكنَّني أردت أن أدفن وجهي فيها ، وهذا ما فعلته . لم يجفِّف أحدٌ يديه فيها بعد ، ساعاتٌ قليلةٌ وتصبحُ غارقةً بالبلل والرّطوبة . فركت وجهي بالمنشفة برفق ، شعرت أنَّني أفرك وجهي بغيمة! أودُّ لو أختفي في الغيمة ، أتغلغل عميقاً فيها ، أن أصبح غيمة .

بعدها نظرت حولي ، لكنَّني لا أستطيع التركيز . أسمع أصواتاً في الخارج ، أنا متأكدةٌ من أنَّهم يقتربون أكثر فأكثر .

فتحت النافذة قليلاً ونظرت . رأيتهم يدخلون إلى المنزل ، يحملون كؤوسهم وقمصانهم البيضاء وثيابهم البراقة ، يتدفّقون نحو المنزل كما تتدفّق الحمم من البركان .

جلسنا في المطبخ نتحدّث حول مدرستي . أرتني كاترينا بعض النشرات الإعلانية والأوراق التي طبعتها من الإنترنت . اعتذَرَت لأنَّ الحبر كان باهتاً ، قالت إنَّها دائماً ما تنسى شراء حبر للطابعة . تقف كالحمقاء في متجر الحواسيب وتنسى اسم الطابعة لتشتري الحبر الخاص بها .

لكنَّ شيئاً حصل تلك اللحظة بين كلمتي «حمقاء» و«إنترنت» ، كأنَّهما دميتان بدأ أحدهما بتحريكهما في خلفية رأسي .

أبي يقف قربها يحمل فنجان قهوة ، يمسك كأسه العزيز الذي طبع عليه شعار فريق كرة القدم المفضل لديه . عندما رفعه ليشرب انتبه إلى أنَّني أحدِّق فيه فابتسم ، وأشحت أنا برأسي . سأل كاترينا إن كانت تريد شُرب القهوة ، قالت سيكون هذا رائعاً ، وضعت خصلة شعرها خلف أذنها ، ومدّت المنشورات نحوي مرةً أخرى .

ركّبت وجهي المُستمع وهززت رأسي ، ربما كان هذا خطأً ، هذا يعني أنَّني أسمع ما تقوله . أحياناً أطرح سؤالاً ، سؤالاً سريعاً ، هذا يجعل وجهي المُستمع يبدو أكثر إقناعاً ، لكنَّني كنت أراقب أبي من زاوية عيني وهو يدور حول المطبخ ليُعدَّ

القهوة . رأيته يفتح الجوارير ويُغلِقها ، ثم يفتح خزانةً خلف خزانةٍ . كان حذراً في كلِّ خطوةٍ يخطوها حتى لا تنتبه كاترينا إلى طول الوقت الذي احتاجه لإعداد القهوة . طوال الوقت كنت أنظر إلى ما كان يبحث عنه ، علبة القهوة كانت على الرفِّ أسفل النافذة . بالتأكيد هو لم يتنبّه إلى أنَّ علبة القهوة لا بدَّ وأن تكون في مكان يسهل الوصول إليه . إلّا أنّ إدراك أمر كهذا كان يتجاوزه . بل كان يفتح الخزائن السفلية ، حيث يحتفظون بأغراض المطبخ التي لا يستخدمونها ، وأشياء لا أعرف أسماءها .

إنّه والدي بقميصه ذي الروح الحرّة ، يريد أن يصنع قهوةً لزوجته . يا له من رجلٍ! يا له من لُقية! أبي يفتّش عن القهوة ، ولا يريد أن يسأل زوجتَه ، لم تكن قد أصبحت زوجته حينها .

سألتني أيَّ مدرسة أريد الذهاب إليها ، قالت إنَّني لست مضطرةً للاستعجال ، أستطيع تجربة مدارس عديدة ، وأستطيع تغييرها إن لم تعجبني .

- تبدو غاليةً ، قلت .

عبست وهزَّت رأسها . بدأت بالشرح عن منح وأموالٍ حكومية ، جعلت الأمر يبدو وكأنَّ النقود تأتي من مكانٍ آخر . قالت إنَّ التعليم قد يكون مكلفًا جدًا ، لكن علينا أن نفكّر فيه على أنّه استثمار .

أبي يهزُّ رأسه موافقاً . كان يقف بجانب الحوض ، وجد

القهوة أخيراً ، ربما هو سعيدٌ لذلك ، كأنَّه حقَّق شيئاً .

كاترينا قالت إنَّني أستطيع البدأ بالمدرسة متى شئت ، وأستطيع أن أحظى بمدرّس خصوصيٍّ في البيت إن فضَّلتُ ذلك . وقالت إنَّها فكرة جيّدة لأنَّه سيتمكن من تحديد المستوى الذي عليَّ أن أبدأ منه .

لا بدَّ أنَّني بدأت بهزِّ رأسي بشكلٍ أكثر بطئًا لأنَّ كاترينا غرقت بالصمت فجأةً ، وأخذت القهوة التي أعدَّها والدي أخيراً بعد أن لمست كفَّه وقالت «شكراً حُبي» . رشفت من قهوتها ونظرت نحوي ، ثم قالت إنَّها آسفةٌ ، لأنَّها انجرفت قليلاً كما تفعل دائماً ، ولا بدَّ أنَّ هذا كلُّه جديدٌ عليّ ، وربما من الأفضل أن أتكلم بهذا مع جان وأتَّخذ قراري معه .

انكمشت حين سمعتها تقول جان ، كان فمها مفتوحاً على وسعِه ، كأنَّها تحاول أن تبلع خيارة . هززت رأسي .

من الطبيعيِّ أنَّهما توافقا . أعني أنَّك لو نظرت إلى أخواتها ، مثلاً ، لتيقّنت من أنّهنَّ ما كنَّ ليلحظن أبي . لكنَّ كاترينا كانت قصةً أخرى ، فهي كانت محطّمةً بما يكفي لتنظُر إليه . ولا أعني شعرها فقط . لكنَّ شعرها كان إشارةً واضحةً ، ضوء كشافٍ أحمر ، شعر الروح الحرّة .

في المرة الأولى التي رأيتها فيها ، كانت تجلس في المقهى ، تنحني على طاولة الخدمة وعيناها دائختان . الوقت متأخرٌ وأبي يغلق المقهى . تأخرتُ بالعودة إلى البيت . في العادة يرسل لي

رسالةً ، وفي حال لم أردّ يتصل بي . هذه الليلة لم يفعل . شعرها ككومة عشب على طاولة الخدمة ، عشبٍ أصفر قديمٍ يكاد يتحلل . رفعتُ رأسها قليلاً حين اقتربتُ .

عرّفنا والدي . سألني إن كنتُ أريد شيئاً ، تكلم بلغتنا ، هززتُ رأسي . يد كاترينا كانت ثخينةً وباردةً ، شعرت برغبةٍ للضغط عليها بأقصى ما أستطيع ، لكنَّ يدها كانت أثخن من أن تتكسَّر .

بضاعةٌ فاسدةٌ . معطفها الأسود القذر الثقيل بسبب الأمطار ، أغراضُها المبعثرة داخل الحقيبة حين عرضت عليَّ حبَّة علكة . خطر لي حينها كم هو غريبٌ أن تعرض العلكةَ على شخصٍ لا تعرفه ، علكةً بطعم النعناع . كأنَّها تعرف شيئاً عني ، تعرض عليَّ خدمةً لتحميني . هي تعرف أنَّ رائحتي تبدو كرائحة السجائر - أتمنّى لو لم تكن كذلك - ونصحتني بسرّيّة بأن أفعل شيئاً حيال رائحة أنفاسي .

بعدها بدأت تتكلم : لقد ذهبتْ إلى مؤتمرٍ مملٍّ ، ذهبتْ لتتمشى ، بدأت تمطر وتوقفتْ في محطةٍ للحافلات لتتجنّب المطر . كانت متعبةً وبدأت بقراءة ساعات العمل . تفاجأت بأنَّ بعض الحافلات تعمل طوال الليل ، ثم نظرت إلى أسماء المحطات ، وقرأت اسمًا أحبَّته فأعادت قراءته مراتٍ ومراتٍ . عندما أتت الحافلة قالت لمَ لا ، وقفزت بداخلها . لم يكن لديها تذكرة أو أيّ شيءٍ آخر .

- ها قد صار لديك واحدة الآن .

قال والدي هذا ولمس يدها . كانت لفتةً مضحكةً . لم أره يفعل شيئاً كهذا من قبل ، يمدُّ يده ليلمس يد شخص آخر . كأنّه ممثلٌ فاشلٌ يقلّد شخصاً غريباً . صحيح ، قالتْ ، لدي واحدة الآن . أمسكت تذكرة الحافلة من فوق طاولة الخدمة ورفعتها ، كانت تبدو محرجةً من هذه المقاطعة .

وجَدَت مقعداً في الباص ، كانت قلقةً من اكتشاف أمرها ، وقلقةً أيضاً لأنَّ المسافة بين محطات توقف الحافلة بعيدةٌ . لكنَّ قلبها كان ينبض طوال الوقت وتشعر بالسعادة لأنَّها أفلتت من المؤتمر .

قبل أن تصل إلى المحطة التي أحبّت اسمها ، رأت الشارع والإشارة والمقهى . وشعرت بتلك الحاجة الملحّة للذهاب إليه والجلوس فيه وشرب شيءٍ ما .

- وكأنَّ شيئاً هامًا سيحدث هناك!

«هامًا» ، حين نطقت الكلمة نطقتها بطريقةٍ تأكيديةٍ ، يا لَتلك الإيماءة الدرامية التي قامت بها!

نظر إليها أبي بابتسامةٍ خفيفةٍ ، ابتسامةٍ خجولةٍ ، من دون أن يعرف إن كان يُتوقّع منه أن يكون مباليًا أم غير مبالٍ ، ثم تاه في طريقه . أدار نظره في المقهى ، هزَّ رأسه لأحدٍ ما كان على وشك المغادرة .

أخواتها لم يكنَّ ليأخذن تلك الحافلة ، أو ليدلُقن أنفسهنَّ

على طاولة الخدمة كما فعلت . ولن يكنّ لينتهين في مقهًى ويفتحن قلوبهنَّ لشخص كوالدي ، بلحيته التي لم يحلقها منذ أربعة أيام وذلك الحلق في أذنه .

لم أتفوَّه بالكثير .

أخفضت كاترينا عينيها وبدت كمن يواجه حائطاً مسدودًا ، وقررت أنَّ عليها المحاولة بطريقةٍ أخرى . قالت إنَّها أحبَّت هذا المقهى ، ولو كان في برتين ، حيث تقيم ، مقهى مثله لكانت ستتردّد عليه طوال الوقت ، تنظر إلى الناس وتشرب الشاي . وقالت إنَّها أحبَّت الكتب على الرفوف فيما كانت تسحب كتاباً بعد الآخر ، وتحاول أن تفهم معاني العناوين من أغلفتها . قالت إنَّها أحبَّت الأغلفة ، وأنَّ إحدى أخواتها مصممة أغلفة ، وإنَّها تتمنَّى أخذ الكتب إلى البيت لتريها لشقيقتها ، وأضافت أنَّها تحبُّ لغتنا .

أطرقتُ برأسي وابتسمتُ ، وفكرتُ بالكتب التي يُحضرها أبي بعربةٍ من صديقٍ يبيع الكتب المستخدمة ، بينما يحتفظ في مخزنه بكتبٍ تافهةٍ لا يستطيع أن يهبها للآخرين حتى من دون مقابل . أخبرني مرّةً أنَّ الكتب أتتهُ من رجلٍ مسنّ مات في القرية ، وكان على أرملته أن تبيع كلَّ شيءٍ . بعض الكتب كانت قيّمة ، لكنَّ معظمها كان تافهاً ، ومن بينها كتبٌ لا قيمة لها على الإطلاق ، وتلك هي الكتب التي ملأ بها والدي رفوف

البار . الميكانيكا الكميَّة ، الإحصاء ، كتاب المدرسة السنوي ، وكتبٌ أخرى من ذلك النوع ، وتلك هي الكتب التي أعجبتها كثيراً .

أيُّ شخص كان بإمكانه أن يكشف على الفور رجلاً مثل أبي ، أخواتها بالتأكيد ، لكنَّ كاترينا لم تستطع ، دخلت في المصيدة ، بضاعةٌ فاسدةٌ بما يكفي .

أنا آسفةٌ جداً ، لكنَّ أشخاصاً مثلها لا يعيشون طويلاً .

فكّرت بالأمر ثم مددتُ لها واحدةً من النشرات . بعد ساعاتٍ قليلةٍ أصبحت على الإنترنت ، ولوقتٍ طويلٍ جداً . تساءلتُ إن كان عليَّ فتح أيٍّ من حساباتي الشخصيَّة القديمة ، لكنَّني لم أستطع . وفكرت بي وبالإنترنت ، وكيف وصفني والدي لكاترينا وسارة ، أو كيف فهمتُ أنَّه وصفني لهما ، كأنَّني شخصٌ لا يستطيع التنفُّس من دون الإنترنت ، بخاصّة في مواقف كهذه ، حين تترك وطنك ، وتنتقل لموطن آخر ، عندها ، من دون شكٍّ ، فإنَّ الإنترنت يصبح أكثر أهميَّةً من أيِّ شيءٍ آخر ، هو وحده ما يبقيك على اتصالٍ مع أصدقائك القدامى .

لكنَّني لم أستطع الدخول لحساباتي القديمة ، لا بُدَّ أنَّ للأمر علاقةً باللغة . لقد اتخذت قراراً ، والقرار أكبر مما تخيّلت . دخلتُ لمواقع جديدةٍ واستحدثتُ حساباتٍ جديدةٍ ، لكنَّني لم أعرف ماذا أفعل بها ، ثم نزلتُ إلى كاترينا وأعطيتها النشرة

وأخبرتها أنَّ هذه المدرسة تبدو جيدةً .

نظرتْ إليَّ ، ابتسمتْ وقالت هذا حسن . قالت إنَّ لأصدقائها أبناءً هناك ، وسألتني إن كنتُ تكلَّمتُ مع جان بالأمر . هززتُ كتفي ، قالت إنَّه في الحديقة يصلح شيئاً . قلت لا بأس ، فلا داعٍ لذلك .

أطرقتْ كاترينا وتكلمتْ باستفاضةٍ حول المدرسة والتقاليد المجنونة هناك . سألتني كيف اتخذتُ قراري ، هززتُ كتفي مرةً أخرى ، وتحوّل وجهي إلى الأحمر .

الحقيقة أنَّني تفحصت المدارس على الإنترنت فقط لأعرف كم يبلغ القسط . في البداية قررتُ أن أختار الأرخص . نظرتُ إلى النشرة ووجدتُها مألوفةً ، صورةُ شاب ببدلته الخضراء وهو يقرأ كتاباً ، والمدفأة في الخلفية . لكنَّ الحقيقة تكمن في قصَّة شعره ، قصَّةٍ قديمةٍ كما في مسلسل بوليسيّ في الثمانينات ، وهذا كان كافياً بالنسبة لي ، بدا مألوفاً وهذا ما أحتاجه .

بدافعٍ من الفضول نظرتُ إلى النشرة ، كانت واحدةً من أغلى المدارس . في النشرة أيضاً صورٌ لأحصنةٍ وقلعةٍ وزوارق .

في البداية ابتسمتُ وفكرتُ كم سأبدو غبيةً هناك ، لكنَّني انتبهتُ فجأةً إلى أنَّ ذلك ليس صحيحاً بالضرورة . ربما أردتُ أن تبدو كاترينا حمقاء ، البضاعة الفاسدة بما فيه الكفاية . وأبي ، كم سيصعب عليه أن يتحمَّل وهو يرتدي قميصه ذا الروح الحرّة ، وركبتاه تتراقصان مع موسيقى الأرواح الحرّة المغرِّدة ،

بينما ابنته المنبوذة ليست أكثر من تفاحةٍ فاسدة .

هكذا اخترت المدرسة الأغلى ، حين أدركتُ كم سيكون الوضع مخزياً لكليهما . طبعاً لا أستطيع إخبارها عن هذا ، لكن لسببٍ ما لم أستطع الكذب أيضاً ، لهذا اكتفيت بهزٍّ كتفيَّ ، وقالتْ هي لا بأس .

أضيع في البيت طوال الوقت . لا توجد أجهزة إنذارٍ على الأبواب ، كما أنَّها ليست مغلقة . سارة قالت إنَّ سياجاً يلفُّ العقار ، وظلّتْ عيناها تحدِّقان بي لبعض الوقت ، وهي تعتقد أنَّني لا ألاحظ . ربما فكرتْ بي وبالمكان الذي أتيتُ منه ، المكان حيث عقارٌ كهذا بحمايةٍ متواضعةٍ سيُنهب ويُحرق بلمح البصر ، فيما تؤكل فتاتان نحيلتان مثلنا أحياءً .

المكان دافئٌ دائماً ، حتى الأرضيّة . كاترينا تقول إنَّ المنزل يستهلك طاقةً قليلةً لأنَّ الحرارة تأتي من الأرض ، وأنَّهم حفروا حفرةً كبيرةً من أجل ذلك .

لا بدَّ أنَّ المكان دافئٌ جداً هناك ، وبما أنَّه دافئٌ لا بدَّ أن يكون لمّاعًا أيضاً ، ربما لامعٌ بما يكفي للرؤية . أودُّ لو أرى كيف يبدو المكان هناك يوماً ما .

اليوم الأحد ، سارة تنتظرني بعد الإفطار . في البداية أدخلت رأسها من زاوية الباب ثم حاولت أن تختبئ . عادت بعد مدّة وسألتني إن كنتُ أريد أن أتمشّى ، سألتها : أين؟ فأجابت أنَّه

يمكننا الذهاب إلى حيث أريد ، ربما حول العقار ، وربما إلى مكانٍ آخر في المدينة .

سمعتنا كاترينا ، فطلبت من سارة أن تتروّى ، أجبتُ أنّه ليس هناك مشكلة ، لكن عندما ذهبتُ إلى غرفتي دقّتْ كاترينا على الباب ودخلت ، جلست بقربي وقالت إنّ بإمكاني أن أطلبَ من سارة أن تتوقف عن إزعاجي إن أردتُ أن أبقى وحدي ، ثم أنزلتْ رأسها ونظرتْ إلى يديها وصمتتْ ، كانت ترى الحائط المسدود مرةً أخرى .

قالت إنّها أحياناً لا تحتمل رؤية أحد ، حتى سارة والكلب ، لا أذكر اسم الكلب ، وأكملتْ قائلة إنّها حين تشعر بذلك تذهب إلى التلّة قرب جدول الماء وتقطع الجدول من الجهة الأخرى ، حيث تتشابك الأغصان والأشجار . ربما يمكنك تجربة ذلك ، هذا يشبه حصة التمارين ، قالت . وقالت إنّ عليها محاربة الأشواك والأوراق والأشجار المحطمة في كلّ خطوةٍ ، تصبح دبقةً وتتقطّع ملابسُها وتجرح يديها ورجلَيها ، وعندما تعود إلى البيت تشعر بالامتنان لأنّها وصلت ، وبأنّ على الجميع أن يشعر بالامتنان لأنّها عادت سليمة .

حصل شيءٌ ما مرةً أخرى حين قالت «عدتُ سليمة» ، شيءٌ ما في مؤخرة رأسي ، صورةٌ مفاجئةٌ : لو أنّها عادت قطعتين ، أو ثلاثةً ، أو تسعةً وخمسين!

سمعتُ وأطرقتُ رأسي ، قلتُ لا مشكلة . قالت إنّ سارة

لحوحة جداً ، وبالنسبة لطفلةٍ في سنّها فإنّ الأمر يفوق الاحتمال أحياناً ، ولا تستطيع التحكم بنفسها . عليك أن تطلبي منها أن تتوقف عن إزعاجك أحياناً ، وإلا ستتحول إلى مخلوقةٍ لا تُحتمل ، وستكبر لتكون كذلك أيضًا .

- أراهن أنّك كنت مخلوقةً لا تُحتمل عندما كنت صغيرةً بدورك ، قالت .

عمَّ الصمت في الغرفة .

- أجمل مخلوقةٍ لا تُحتمل ، أضافت فوراً .

بدت خائفةً ، أخبرتُها أنّه لا مشكلة . لم أرد أن تعتقد أنّني شعرتُ بالإهانة ، كانت مزحةً غير مؤذيةٍ ، أستطيع التمييز أنّها لم تقصد الأذيّة . لا أعرف من أين جاء كلُّ هذا الصمت! لكنّني لم أكن مهيأةً لأن تتكلم عن طفولتي كما فعلت ، لأنَّ هذا ما فعلَته . نظرتْ حولها واستمعتْ إلى الصمت وتراجعتْ فوراً .

قلتُ إنَّ سارة لطيفةٌ وهي بمثابة صديقةٍ لي . حرّك ذلك مشاعرها بالتأكيد . اقتربتْ ووضعتْ يدها على يدي ، وغادرت الغرفة .

إنّه يومٌ مشمسٌ . صناديقي في الزاوية ، وأفكّر بأنّه ربما عليَّ أن أوضّبها . سألني والدي مئة مرّةٍ أين أريد أن أضع الرّفوف ، وإن كنت أريد تغيير ورق الجدران . أنظر إلى الصناديق ولا

أستطيع أن أتذكر غرضاً واحداً بداخلها .

جلستُ على السرير وحدَّقتُ بالصناديق ، ثم قررتُ أنَّني لن أنهض من السرير قبل أن أتذكر على الأقل غرضًا واحدًا . أصبح الأمر كالمسابقة ، هناك جانبٌ منّي لا يريد تذكُّر أيِّ شيءٍ ، وجانبٌ آخر يريد أن يتذكر . الصناديق محكمةٌ بحبلٍ من كلا الاتجاهين ، تساءلتُ أيِّ الأطراف عليَّ سحبه أولاً ، وعندها أدركتُ أنّه طالما أجهل أيَّ الأطراف عليَّ أن أسحب ، فإنَّني سأكون أنا الحبل الذي يتمُّ سحبه . لكنِّي لا أعتقد أنّني سأتكسَّر ، أنا صلبةٌ بعض الشيء . لا أتذكر ، بصدقٍ لا أفعل ، ربما أنا في حالة صدمةٍ ، لكنَّني لا أعرف من أين أتتْ ، ربما هي صدمةٌ من كلِّ شيءٍ جديد!

عندها فكرتُ : اسمعي يا فتاة ، توجد طريقةٌ جيدةٌ للتخلص من هذه الصدمة ، يمكنك ببساطةٍ فتح الصناديق وتفحُّصها ، عندها ستبدئين بالتذكُّر ، ستهجم عليكِ الذاكرة مرّةً أخرى . لكنَّني جلست بهدوءٍ على السرير ، ثم فكرت ، يا للهول! هذا هراءٌ! أنا أتذكَّر كلَّ شيءٍ : شقَّتنا والدرج ، والرائحة والجيران ، والمطبخ والراديو والأشجار في الحديقة ، وظلَّ طاولة المطبخ ، وقفص العصافير الفارغ على الشرفة . أتذكر كلَّ شيء!

طرقةٌ على البابِ ، سارة تتساءل إن كنتُ لا أزال أرغب في الخروج ، قلت طبعاً ، وذهبنا . أتى الكلب ، اسمه بلاتو . أعرف أنَّه اسمٌ لفيلسوف .

الهواء كان عبقاً حين خرجنا . لم نتكلّم لفترة . أحياناً تنادي سارة الكلب ، أحياناً تتكلّم معه ، كأنّها تحاول تهدئته ، وهو خائفٌ . نظرتُ إلى خصيَتَي الكلب وهي تهتزُّ ، ثم نظرتُ إلى سارة المحشورة في سروالها البنيِّ ، بدا كأنّهما يتكلمان معاً ، ويلوِّحان لبعضهما البعض .

سألتْ سارة متى ستبدأ مدرستي ، تبدو كقريبةٍ مسنَّةٍ أو مربّية لي .

قريباً قلتُ ، وكان جواباً غريباً . أعلم أنّها تبدأ يوم الإثنين ، لكنَّني أردتُ أن أبدو عميقةً بعض الشيء . أردتُها أن تشعر بالقلق وتهزَّ رأسها وتفكر بمواضيع أفضل للتحدث بها . الدبلوماسيّة الصغيرة ، بخدودها البيضاء وشفتيها الحمراوين .

مشينا أسفل التلّة ورأيتُ السياج من بعيدٍ ، سألتها أين ينتهي السياج ، أجابت أنّها ليست متأكدةً .

- هل جاء لصوصٌ إلى هنا من قبل؟ سألتُ .

أجابت بـ- «لا» ، ثم أضافت أنَّ المكان هنا صغيرٌ ، يعرف الجميع بعضهم البعض ، لن تحصل أيّة مشاكل مع اللصوص ، فهم يعرفون أنّه سيقبض عليهم فوراً إن حاولوا ، لذا لا فائدة من الأمر .

كنتُ أستمع لصوتها الناضج . سمعت صوت كاترينا تحاول أن تهدِّئ ابنتها حين لا تستطيع النوم في الليل . أعتقد أنَّني ابتسمتُ للمشهد اللطيف ، كأنّه في فيلم . ركضتْ سارة نحو

الغابة ونادتْ على الكلب ، صوتُها الصغير كان كنباح الكلاب بين الأشجار ، الكلب الصغير ينبح نحو الكلب الكبير!

مشيتُ مشيةً ثابتةً بينما يداي في جيبي ، كدتُ أقع أكثر من مرة . قلت لنفسي إنَّه من الغباء المشي ويداي في جيبي لأنَّني لن أكون مستعدةً إذا وقعت ، وستتحطّم أسناني ، لكنَّني رغم ذلك أبقيتُ يديّ في جيبي .

قلتُ لكاترينا إنَّ سارة هي بمثابة صديقةٍ لي ، وربما هذه حقيقة . أفكّر بالأصدقاء الذين تركتهم خلفي ، وأحاول أن أجلبهم إلى الغابة معي الآن لينادوا على الكلب ، لكنَّني لا أفتقدهم . لو كان أحدهم يتمشّى معي هنا ، لكنتُ شعرتُ تماماً بما أشعر الآن ، ازدراءً بسيط . يبدو الأمر وكأنَّني لا أُقدّرُ أصدقائي ، وربما أنا هكذا فعلاً ، لكن هناك أمرٌ حميمٌ في هذا ، أمرٌ لا أريد أن أُحرمَ منه .

- يمكن للحياة أن تكون موحشةً هنا ، قلتُ .

نظرت سارة بتمعُّنٍ وأجابت : نعم ، أحياناً . لكنَّها تدردش مع أصدقائها على الإنترنت وتعود من المدرسة في الساعة الخامسة ، ولديها واجبات مدرسيّة يوميةٌ ، وبعد كل هذا لا يتبقى لها الكثير من الوقت ، ترتدي شيئًا مريحًا ، وربما تأخذ بلاتو ليتمشّى ، وتشاهد التلفاز أحياناً .

تحدّثتْ عن برنامجها التلفزيوني المفضّل ، وشعرتُ أنّها

تتكلَّم عن أكثر البرامج شهرةً ، وأنّه يعرض حتى في إفريقيا والأمازون . بإمكاني أن أشعر أنَّ هناك برامج أخرى تحبُّها ، لكنَّها لم تذكرها لأنّها متقدمةٌ جداً عليَّ ، أو على البلد الذي أتيتُ منه .

نظرتْ إليَّ بتلهفٍ من الجانب ، وكنتُ واثقةً أنّها تنتظرُ أن أخبرها عن برنامجي المفضل . في النهاية ذكرتْ هي ثلاثة برامج ، أعتقد أنَّها متأكدةٌ من أنَّني أعرف واحداً منها على الأقل ، لكنَّني بقيت صامتةً ، ثم سألتُها أيَّ ثياب مريحة تفضل ، أصبحتْ باهتةً وقالت شيئاً عن «وقت الفراغ» ، قلتُ : بالتأكيد ، أفهم ، لكن هل من الممكن أن تعطيني مثالاً عمّا تعنينه بوقت الفراغ ومريح ، ما هو تعريفك لذلك؟

بدتْ مُحتارةً ، توقفتْ ، وكانت الريح تحوِّم حول الأشجار في الأعلى ، بينما جاء الكلب راكضاً من بعيدٍ وبدأ يدور في دائرةٍ حولها .

- سروال رياضة ، أجابتْ . تعرفين سروال الرياضة؟

أشارتْ إلى أردافها ، نظرتُ إلى أردافها كأنَّني أتوقع أن أرى سروالاً هناك ، ثم سحبت حزاماً مخفياً حول سروالها بإصبعها ثم تركته .

آه ، سروالٌ رياضيٌّ ، أجبتُ ، نايك ، أديداس .

- ريبكوك ، قالت .

- ريبوك؟

نظرتُ إليها ورددتُ الكلمة مراراً وتكراراً وكنت أخطئ في تهجئتها ، كريببووك .

- نعم ، نعم ، كانت تقول .

- نعم .

تعبتُ فجأةً ، تناولتُ غصناً عن الأرض ورميته لبلاتو ليلتقطه ، لكنَّه توقف ساكناً وحدَّق بي .

أمشي في الغابة ، سارة خلفي وتقول إنّها تلعب كرة الطائرة مرتين في الأسبوع لأنَّ أمها تريدها أن تفعل شيئاً خارج المدرسة . السنة الماضية انضمَّتْ إلى مجموعة مسرحيّة ، مثلوا مسرحية «ماكبيث» ، ثم حوَّلوها إلى قصةٍ مثيرةٍ ، حتى أنّهم استخدموا المناشير .

أرادت أن أقول شيئاً ، أن أضحك قليلاً على الأقل ، لكنَّني لم أستطع . الغابة مظلمةٌ كأنَّنا في كهفٍ ، وكنتُ أسمع الكلب يلهث في كلِّ مكانٍ ، كأنَّ الغابة مُلئت بلهاث الكلاب ، كلابٍ بيضاء وكلابٍ سوداء ، كبيرةٍ وصغيرةٍ ، كلابٍ عمياء وغاضبةٍ يركض بعضها حول البعض .

شعرتُ بالسخافة من سروالي ومعطفي وشعري . سخيفةٌ بيديَّ اللّتين في جيبي ، وبتظاهري بأنَّني لا أهتمُّ بتدارك نفسي إن وقعتُ وحطمتُ أسناني وتفجّرت الدماء من أنفي . سخيفة بدفع هذه الطفلة لتتجوّل معي في كلِّ مكانٍ ، كم سنّها؟ عشر

سنوات ، أو ربما إحدى عشرة سنةً ، نحيلةٌ جداً ، لكنَّ أمها تنتبهُ لما تأكله ، وتدفعُها للعب كرة الطائرة مرتين في الأسبوع . كرة الطائرة مفيدةٌ جداً ، قرأتُ ذلك في مجلة ما ، ضمن قائمة بالرياضات المفيدة لشكل الجسد ، وأخرى ليست بذات الفائدة ، قرأتُ المجلة في مطبخ نينا ، كنتُ أنتظرها لتخرج من الحمام ، تأخّرنا ، وأنا أحاولُ أن أصنع بالوناً من العلكة التي في فمي ، لكنَّها صغيرةٌ جداً .

سخيفةٌ بلكنتي أيضاً ، لكنتي المضحكة . لا توجد لكنةٌ في رأسي ولا حتى حين أكتب . على الأقل ليست لكنةً ثقيلةً . لكنَّني حين أتكلم أبدو كأنَّ أحدهم وضع زينةً على وجهي لأبدو كالمجنونة ، أحمر الشفاه في كلِّ مكانٍ ، خطوطٌ متقاطعةٌ . هذه هي لكنتي وأنا أسمعها .

بدأتُ بالركض ، صفّقتُ بيديَّ للكلب ليتبعني ، لكنَّني لا أظنه يفعل . أريد أن أشعر كطفلةٍ صغيرةٍ ، كسارة مثلاً ، أعتقد أنَّني أركضُ في الغابة لأرى إن كنت أستطيع أن أجد تلك الفتاة الصغيرة ، إن كانت تختبئ خلف شجرةٍ أو صخرةٍ . لكن لا فتاة صغيرةٌ ، ولا كلبٌ يلحق بي . وفجأةً ، كأنَّ هناك ثقبٌ في السقف ، يدخل منه الضوء والسماء الرمادية ، وسمعتُ صوت حركةٍ مروريةٍ قويةٍ قادمةٍ من الأسفل .

انتهت الغابة فجأةً ، وأنا أنظر إلى الطريق السريع في

الأسفل ، ويبدو أنّنا نقف أعلى جبلٍ ولم أعُد أرى السياج . الأفق يمتدُّ ويمتدُّ ، كلُّ شيءٍ أخضرُ وبرّاقٌ ، وشاحناتٌ كبيرةٌ على الطريق السريع .

سارة أصبحت خلفي ، أخبرتُها أنَّ المنظر رائعٌ من هنا .

- نعم ، أليس كذلك؟ ردَّت الدبلوماسية الصغيرة .

أطلَّت الشمس بعدها وجلسنا لنرتاح مع الكلب ، تهمس له سارة بشيءٍ ما أحياناً .

- أين أمك؟ سألتني سارة بعد مدّة .

هي فضوليةٌ ، هذه حقيقةٌ .

- ألم يخبروكِ؟

- لا ، لم يفعلوا .

نظرتُ إليها .

- على الأقل ، على الأقل لا أعتقد ذلك ، قالت .

كانت تكذب ، طبعاً أخبروها . تريدُ فقط أن تسمع ذلك مني ، تريدُ أن تعرف كيف سيبدو شكلي حين أخبرها .

- حسناً ، أعتقد أنَّها في مصحَّة .

- هل هي مريضةٌ؟

- أعتقد ذلك .

بدوتُ فرحةً ، وكنتُ كذلك فعلاً .

- آمل ألّا يكون الأمر معدياً .

ابتسمتْ سارة بتلقائيّة . كانت تبدو باهتةً في الشمس .

شعرتُ بالذنب قليلاً ، وبالحزن أيضاً ، كأنّني كذبتُ على سارة ، لكنّني لستُ متاكدةً من أنّني فعلت . أخبرتني فتاةٌ في المدرسة بذلك ، وانضمتْ إليها فتاةٌ أخرى . واحدةٌ سمعت الأمر من والدها ، والأخرى من عمّتِها ، وهذا أنهى الأمر ، كأنّنا في محكمةٍ ، شاهدٌ واحدٌ لا يكفي ، لكنَّ شاهدَين يقولان الأشياء ذاتها ، يصبح الأمر نهائياً ، انتهت القضية .

عندما سألتُ أبي ، ابتسم وهزَّ رأسه . قال إنّه لا توجد قضيةٌ منتهيةٌ ، من الممكن أن تجد مئة شاهدٍ يقولون الأشياء ذاتها ، لكنَّ هذا لا يهم ، من الممكن أن يكونوا جميعاً مُخطئين . عندما سألته كيف ، قال إنَّ الكذبة تنمو بسرعةٍ ، ونموُّها يعتمد على عدد الناس القادرين على حمايتها . لهذا فإنَّ من الهام إيقاف الكذبة قبل أن تبدأ بالنمو . عليها أن تموت وهي كذبةٌ صغيرةٌ ، وإلا أصبحت كبيرةً لدرجة أنَّها ستأخذ كلَّ شيءٍ معها ، تستطيع القضاء على أمّةٍ بأكملها ، وملايين البشر .

استمعتُ جيداً ، أردتُ أنْ أتذكر كلَّ ما قاله والدي ، ألّا أغفل عن أيّة تفصيل ، بخاصّة أنّنا اثنتان ضدَّ واحدٍ . نعم تذكرتُ ، وفي اليوم التالي أخبرتُهُما بكلِّ شيءٍ . نظرتا إليَّ فقط ، وحين انتهيتُ ، نظرتا بعضهما لبعض .

- هل فهمتِ كلمةً واحدةً مما قالته؟ قالت إحداهما .

- لا ، أجابت الثانية ، أنت أيضاً؟

وضحكتا .

- ربما عليها أن تدخل المصحّة هي الأخرى ، قالت الأولى .
- نعم ، هذه فكرةٌ جيدةٌ ، فهي تحمل جينات أمها .

نظرتا إليَّ ، أرادتا أن أفعل شيئاً ، أرادتا أن أتحطَّم وأبكي ، لكنَّني متأكدةٌ من أنَّهما أرادتا أيضاً أن أبدأ بالصراخ والعراك ، في النهاية هما اثنتان ضدَّ واحد ، وستربحان بكل تأكيد ، وعندها ستقولان للمعلمة إنَّني أنا من بدأتُ العراك ، والمعلمة ستصدِّقهما بعد أن تؤكد كلُّ واحدةٍ على قصة الأخرى .

لكنَّني لم أفعل شيئاً ، أخبرني أبي أن لا أُظهِر شيئاً لهما ، إن أظهرتُ لهما جرحي لن تدعاه يشفى أبداً ، ستمزّقانه طوال اليوم ، لذا نظرتُ إليهما فقط .

بعد عدة أيامٍ انتبهتُ إلى أنَّني لم أسأل عن المصحّة ، لذا سألتُ أبي .

ردَّد ما يردِّده دائماً ، أنّه لا يعرف ، ليست لديه أدنى فكرة . قال إنَّ أمي لم تكن مستعدةً لأمومتها ، لم تكن مستعدَّةً لذلك ببساطة ، كانت كذلك لبعض الوقت طبعاً ، لكنَّها لم تكن قادرةً على الاستقرار ، تشعرُ بحاجةٍ دائمة للنضال ، تريدُ أن تفعل أشياء كثيرة ، أن تسافر إلى دولٍ أخرى ، تفتح مقهى ومطعماً ، لكنَّها لم تستطع الالتزام بشيء .

لكن الأمومة ، قال والدي ، هو التزامٌ على مدار 24 ساعة في اليوم ، سبعة أيام في الأسبوع . لم تستطع تحمل ذلك ، ظلَّتْ تقاوم ، وفي النهايةً طلب منها أن تذهب ، وهي لم تتردَّد .

قال إنَّها كانت مُمتنَّةً .

أضاف أنَّ ذلك لم يكن بسببي ، ليس خطئي ، قال إنَّها أحبَّتني أكثر من أيِّ شيءٍ آخر ، ولم يسمع منها منذ ذلك الوقت ، ولا كلمةً ، ولم يستلمْ منها بطاقة معايدةٍ ولا حتى مكالمةً هاتفية .

- كان ذلك صعباً حين كنت صغيرةً ، لكنه أسهل الآن .

أعتقد أنَّني أستطيع تفهمها ، من الممكن للأشياء أن تكون رائعةً ، والأشخاص رائعين ، لكنك لا تستطيع أن تكون معهم رغم ذلك ، ولا بدَّ لك من أن تغادر .

لا أعلم . من الجيد أن تحبَّ شخصًا آخر . إلّا أنّه لا يحدث بسهولة, إذ أنّ شيئاً ما بداخلك عليه أن يكون مستعداً لوجوده ، أن يفتح له بابًا في الداخل . وهذا نادر .

ربما هذا ما حصل معها ، أحبَّتْ أن تكون بيننا ، لكنَّ الباب لم يفتح بداخلها . ربما هي مثلي في هذا الجانب ، أو أنَّني أنا مثلُها ، لذا يمكن القول إنَّ الأمر مُعدٍ فعلاً .

العشاء . الشموع في كلِّ مكان . وعاء سلطةٍ كبيرٌ على الطاولة ، فيه حبّات جمبري ، وأنا وسارة حول الطاولة . سارة تغني ، تنظر إليَّ وأنا أبتسم ، ربما تتوقع منّي أن أبتسم للأغنية لكنَّني لا أميِّزُها .

أبي وكاترينا في المطبخ يتكلّمان بصوت منخفض ، تقلِّد أحداً ما ، تسألها سارة عمّا يتكلمان ، وتردُّ كاترينا أنّه ليس

حديثاً مناسباً للأطفال ، وعندها تبدأ سارة باللعب وتسأل ماذا؟ ماذا؟ مراراً وتكراراً ، وهذه المرة تتصرف ككلب وتركض حول كاترينا وأبي ، تلهث وتسأل ماذا؟ يضحكُ الجميع ، لكنَّ ضحكتهم كانت ستكون أوسع وأعلى صوتاً لو أنَّني لم أكن موجودة ، وأقف هناك مع مجموعة الصحون والملاعق بين يدي ، وأنا أشعر أنَّني من يُفسد الفرح وبراكين الضحك . خياراتٌ سيئة ، أعتقد أنَّ عليَّ ابتكار المزيد من الخيارات .

عندما بدأنا بالأكل نظرت كاترينا إليَّ وبدأت بالتحدث بلغة أجنبية . قالت بعض الجمل ونظرت إلى أبي فصفَّق لها ، صفَّقتُ أنا أيضاً معه . كان أبي وكاترينا يشربان في كأسين كبيرين ، كفقاعتَين زجاجيتَين كبيرتَين بحيث يبدو السائل داخلهما قليل . طلبت كاترينا من أبي أن يقرأ قصيدة . سارة سألت : أيَّ نوعٍ من القصائد؟ فأجابت كاترينا أنّه كتبها بنفسه . قرأ أبيٌ القصيدة . فيها أصواتٌ من عقارب الساعة ومصعدٌ يصعد ويهبط في بيتٍ قديم ، عندما أصدر أبي تلك الأصوات نظرت سارة وكاترينا بعضهما لبعض وابتسمتا . بعد القصيدة صفّق الجميع ، وسألتْ سارة إن كان بإمكانه أن يكتبها لأنَّها تريد أن تقرأها ، فأجاب والدي أن بإمكانه أن يطبعها من الحاسوب ، لكن هذا يعتمد على قدرته على فتح الملفات في حاسوبه القديم . تكلّم عن ذلك لبعض الوقت ، ثم لاحظ أنَّ انتباه سارة بدأ يتشتَّتُ ، وأنَّ كاترينا بدأت تأكل السلطة

بتحفّظ ، فتغيّر صوته إلى دراميٍّ وقال بعض المصطلحات التكنولوجية ، وأطلق نكتةً عن بلادته ، فانفجرت سارة وكاترينا بالضحك .

بدأتُ أقول شيئاً عن أنّنا نبدو كدعايةٍ لبرنامج تلفزيونيٍّ اسمه «العائلة الحديثة» ، أبناءٌ من عائلاتٍ مختلّفة وبلدانٍ متعددة . في بداية كلامي بدا كلُّ شيءٍ مُفرحًا ، وكانت تتقاطع أصوات تقطيع ومضغ وشُوَكٍ وسكاكين . ولم أكن قلقةً من الكلام لأنَّ أصواتاً كثيرةً كانت تطغى على صوتي ، لكنَّ ذلك كان خدعة . بعد وقتٍ قصيرٍ عمَّ الصمت ، ذهبت الثقة وشعرت كالحمقاء ، لكنّ ، بما أنّني بدأت الجملة كان عليَّ أن أنهيها ، وقلت ذلك الشيء الغبيَّ عن الدعاية التلفزيونية . أخفضت كاترينا رأسها وابتسمت ، ثم قالت شيئاً بأدب ، وأخذت سارة بالهمهمة بنوعٍ من الأناشيد فطلبت منها كاترينا أن تصمت ، لكنهم جميعاً اعتقدوا أنّني غبية .

جلستُ بصمتٍ بعد ذلك ، تناولت السلطة وشربت الماء ، عندها بدأت كاترينا وأبي يتحدثان عن الشعر . أبي يخبرها عن شخصٍ في بلادنا القديمة ، اسمه على طرف لسانه لكنَّه لا يتذكره ، فيما تتناثر قطراتٌ من البصاق الأبيض المقرف على ذقنه يراها الجميع . مدّت كاترينا منديلًا ومسحتها بابتسامة صغيرة . دبلوماسيّةٌ أخرى! عندها استدارت وقرأت شعراً

بالإنجليزية بنظراتٍ ساهمةٍ ، وكنت أفكر هل هذه نظرةٌ حقيقيةٌ أم أنَّ هذا شيئاً تتعلَّمه حين تقرأ الشعر . عينا أبي لم تكونا ساهمتين ، بل كانتا يائستين ، كما لو أنّه كان ينزف بسبب شيءٍ ما .

جلست سارة واضعةً رأسها بين يديها وهي تشعر بالملل . كانت سعيدةً بأنّها التقطت نظرتي ، كنت أحدِّق في لوحةٍ أعلى كتفي كاترينا في الرواق ، لوحةٍ لرجلٍ عجوزٍ ببذلةٍ وربطة عنق ، أصلع ويضع نظاراتٍ صغيرةٍ ويبدو مملاً جداً . سألتُ كاترينا من يكونُ؟ ابتسمت وقالت إنّه الجد ويليام . قالت إنّها أحبَّته كثيراً ، وأنّه عاش لأكثر من مئة عام . سألتها كم سنة ، فقالت مئة وثمانية أعوام . بدأت بالحديث عنه وعن لياقته ، وأنّه ظلّ يلعب التنس حتى قبيل مماته . أخفضتُ رأسي وابتسمتُ وخطرت ببالي ذكرى غريبةٌ لي وأنا صغيرةً أمشي في مقبرة . نظرتُ إلى رخامةٍ على قبرٍ وإلى السنة التي ماتت فيها صاحبته . طرحت العام التي ولدت فيها وعرفت أنَّها ماتت في عمر الثمانين ، عندها اكتشفت أنَّ والدي كان يكذب عليَّ ، كلَّما سألته عن الموت ، وأنا خائفةٌ من أن أموت أنا أو هو . كان يخبرني أنَّ هذا أمرٌ مقدَّرٌ وأنَّنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً حياله ، وأنّه حتى الطيور في السماء والسمك في البحر ستموت . لكنه كان يهدّئ من روعي ويقول إن أحداً منا لن يموت قبل وقتٍ طويل . متى؟ أسأل ، ليس قبل المئة ، يجيب . ربما قال ذلك لأنّه يعتقد أنَّني

لا أعرف ما هي المئة ، أعرف فقط أنّها بعيدةٌ جداً ، وهذا يحوّلها إلى الأبدية . كأنّه يقول إنّنا سنموت لكنّنا مُخلّدون في ذات الوقت . لكن حين وقفت في المقبرة وأمسكت بيده كنت أعرف أنّه يكذب ، عندها فقدت إحساسي بالأبدية وأصبحت واحدةً من الفانين ، لكنّني لم أتفوّه بكلمة . فلا فائدة من ذلك ، فهو والدي ، وكان يخبرني بأمورٍ كثيرة حين أكون خائفةً ليهدّئ من روعي . لكن فجأةً تكشّف لي شيءٌ آخر ، ولم يكن هناك من داعٍ للصراخ . الحقيقة كانت هناك ، محفورةً على الرخام . كاترينا لا تزال تتكلم عن جدّها ، كان برلمانياً وعمل مع شامبرلين ، أصبحتُ مهتمّةً فجأةً ، فأنا أعرف هذا الاسم ، شاهدتُ فيلمًا وثائقيًا عن الحرب العالمية الثانية على التلفاز ، كان وثائقيًا متقنًا . والدي قال إنّه جيدٌ بسبب صوت الممثل ، ممثل كبير في السن يعتقد والدي أنّه يفكر بالكلمة قبل أن ينطقها ، أعترف أنّ صوته كان عظيماً فعلاً .

شاهدت أنا ووالدي العديد من البرامج الوثائقية وسألت أبي عن الحرب . ما أذكره عن شامبرلين أنّه كان رجلاً وسيماً جاء قبل تشرتشل . وكان أحمق وغبيًا يصدّق كلّ ما يقوله له هتلر ، وعاد إلى البلاد بوثائق موقعة من النازيين مُعتقدًا أنّه يجلب السلام لأوروبا . ولكنّه تبيّن لاحقًا أنّه فعل العكس . سمح لهتلر بالتمدُّد بسرعةٍ وفتح شهيته أكثر . خدعه النازيون ولم يهتموا بأمر الوثائق .

سألت كاترينا عن رأي جدّها بشامبرلين ، حاولت ألّا أبدي احتقاري . شعرتُ بالسعادة فجأة ، ربما لأنّهم بدأوا أخيراً بالحديث عن أشياء تهمُّني ووجدتُ الفرصة سانحةً للحديث بما لا يظهرني غبيةً تتفوَّه بنكاتٍ لا معنى لها كالتي قلتُها سابقاً .

قالت كاترينا إنَّ والدها كان مولعاً بشامبرلين ، ويعتقد أنّه فُهم خطأ ، وأضافت أنَّ خرافاتٍ وكليشيهاتٍ تتحكم بنا ، تجعلنا أحياناً نطلق أحكامًا سريعةً ، وهذا مخيفٌ . قالت إنَّنا نشبه الذين يمشون في نومهم أحياناً . شامبرلين حاول أن يحلَّ الأزمة في أوروبا دون شلال دم ، ولو أنّه نجح ، لصار بطلاً ، وأنّ التاريخ تُعادُ كتابته باستمرار ، والعديد ممن كانوا أبطالاً في الماضي تحولوا إلى أشرارٍ ، والعكس صحيح .

هذا مثيرٌ! بعد قليلٍ بدأ أبي بالحديث عن شيءٍ عن بلادنا القديمة وروسيا وأشياءٍ حدثت في الستينات والسبعينات . تكلّم لفترةٍ ، وكانت هناك أسماءٌ لم يرغب أن يذكرها ، وبقعٌ جديدةٌ من البصاق وقعت على ذقنه ، لكن كاترينا هذه المرة كانت ساهمة العينين ، وظلَّت البقع هناك . تخيّلت نفسي أمسك قوساً وأرمي سهماً على كلِّ بقعة ، سيتفاجأ جداً بالأمر . فيما كان أبي يتكلم كنت ألعب بحبة فطرٍ في صحن السلطة أمامي ، وعندما نظرت إلى الأعلى كانت كاترينا تنظر باتجاهي بينما ينخفض صوت أبي . أنا متأكدةٌ من أنّها كانت تنظر نحوي طوال الوقت . عندما سكت أبي أخيراً نظرت إليَّ وقالت إنّه من

الخطأ التفكير بالماضي كما لو أنَّ الأشياء كانت ستتغير لو أنَّ أحدًا ما تصرّف بطريقةٍ مختلفة . هذا ليس صحيحاً ، لو أنَّ شامبرلين رفض التفاوض مع هتلر ، فإنّنا نظنُّ أنّنا نعرف ماذا كان سيحدث . لكنَّنا لا نعرف . العالم غير مُتوقَّع . لقد عرف شامبرلين أكثر عن خطط هتلر ، وعلينا أن نمنحه الفضل في ذلك . لم يكن غبياً ، كانت لديه خطةٌ . لكنَّها لم تنجح . لا يهمّ كم كُتب عن الأمر ، فالجمهور لم يستوعبه . رسم له الناس صورة الغبي بمظلّته تلك ، ويبدو أنَّ تلك الصورة لم تُمحَ من أذهانهم . لو أنَّهم أزاحوا تلك الصورة لوقعوا في عالمٍ من الفوضى . كانوا سيضطرون إلى رؤية العالم على حقيقته .

مثيرًا! ثم تكلّمت أكثر عن جدّها وجدَّتها وقالت إنَّهما كانا يعيشان في البيت هناك ، وأشارت إلى الموقع . تكلمت عن المزيد من أفراد العائلة ، شعرت بالراحة وابتسمت ، كانت تعلم أنَّها مُملَّةٌ لكنَّها أكملت حديثها بكلِّ الأحوال . قالت إنَّ عائلتها امتلكت دائماً أحلاماً غير قابلةٍ للتحقُّق ، وهذا يعود إلى الماضي السحيق . ذكرت الملك والملكة ، ريتشارد هذا وذاك ، إدوارد هذا وذاك ، إليزابيث هذه وتلك ، وبدا أنَّها تعرفهم كُلَّهم ، لا أصدق هذا الهوس بالعمّات والخالات وأبناء الأزواج!

- أيتها المسكينة ، هذه عائلتك .

ضحكتُ ونظرتُ أسفل الطاولة ، ثم عبَستُ وسألتُها ماذا تعنين «مسكينة» ، إن كانت تعني أنَّني فقيرة ، فسأقول إنَّني

أملك بعض النقود في حسابي . كأنَّني أريد أن أقنعها بأنّني لست فقيرة ، لكن عندها عليَّ التوقف والتفكير ، فأنا لا أعرف كم يساوي المال الذي في حسابي بالباوند البريطاني .

توتر الجميع فجأةً ، حدثت قرقعةٌ حول الطاولة ، صوت سارة هو الصوت الذي أسمعه بوضوح ، قالت : ماما لم تقصد ذلك ، لم تقصد ذلك ، ثم حاولت كَاترينا أن يكون صوتها واضحاً ومسموعاً وحاولت تفسير ما قصدته . وفوق ذلك كله كان هناك صوت أبي الذي يقول لا تستمعوا إليها إنَّها تمزح .

بعدها فردت كاترينا يديها كطائر وأشارت للجميع بالصمت «هشش» ، وبعدها حلَّ الصمت . ثم نظرت إليَّ وقالت إنَّها لا تعرف إن كنت أمزح أم لا ، لكنَّني لست فتاةً فقيرةً ، بل على العكس أنا غنيّة .

- نحن جميعاً أغنياء ، قالت سارة .

- هذا جميلٌ ، قلت ، أليس كذلك؟

- نعم ، قالت كاترينا ، أعتقد ذلك .

بدت متفاجئةً . نظرنا جميعاً إلى بعضنا البعض وضحكنا .

عندما انتهت الضحكة نظرت كاترينا إليَّ وقالت : هذه هي عائلتي ، كلُّ هؤلاء المجانين الذين تحدثت عنهم . العائلة شيءٌ غريبٌ ، فمن جهةٍ هم كشجرةٍ كبيرةٍ ذات جذورٍ عميقةٍ ، موجودون دائماً . تستطيعين دائماً أن تميلي نحوهم ، هم لا يتغيَّرون ، وهذا أمرٌ جيدٌ ، لا تريدينه أن يتغير . لكن من جهةٍ

أخرى ، أنتِ وجان جزءٌ من هذه العائلة . ومن الآن فصاعداً لن تعود الأشياء كالسابق أبداً . أنتِ ستُغيّرين عائلتنا ، سواءٌ أردتِ أم لا ، بمجرّد وجودك هنا . وستحمين عائلتنا لأنَّ العائلة التي لا تتغير ، ولا تسمح لأحدٍ بالدخول إليها هي عائلةٌ ميتةٌ . وأمسكت أيدينا لتؤكد على الأمر ، كأنّها تُمسك حبَّتَي فاكهةٍ برّاقةٍ . ثم أضافت العائلة كالعالم ، من السّهل أن تشعر بصغره عندما تنظر إلى الشجرة الكبيرة وتفكر كم من الزمن مضى عليها وهي واقفةٌ هنا ، لكنَّ شخصاً واحداً بإمكانه أن يغير هذا للأبد ، في العائلة وفي العالم . العالم والعائلة مُتوقَّعين وغير مُتوقَّعين في الوقت نفسه ، هذا ما يجعل الأمر مثيراً جداً .

أخفضت رأسي واستمعت . عينا أبي كانتا مُصوَّبتَين باتجاهي فيما يمدُّ يده لتصل إلى كاترينا ، يداهما بدتا كجراد البحر . فكرت بعائلتنا في بلادنا القديمة ، وما نملكه هناك ، جدٌّ وعمّان ، ماذا لو أفعلُ مثلها؟ لو أنّني أتكلّم عنهما لساعاتٍ ثم أمدُّ يديَّ لتحتضنا يدَيّ كاترينا وسارة كحبَّتَي فاكهةٍ وأقول هذه عائلتكما .

المشكلة أنَّني لا أستطيع الكلام عن عائلتي لأكثر من دقيقتين ، وأتمنّى لو أنّ الأمر يدفعني إلى الإشفاق على نفسي ، أو حتى إلى الرغبة في الجلوس مع أبي وسؤاله عن أشقائه ، لكنَّني غير مهتمةٍ على الإطلاق . سأنسى كلَّ شيءٍ ما أن أنهض عن الكنبة أو ما أجلسُ عليه .

تأخّر الوقت . غداً يومي الأول في المدرسة . يداي تفوحان برائحة الشموع والبرد المسائي . أستطيع رؤية نجومٍ أكثر في السماء وسماع صوت جدول الماء للمرة الأولى .

فتحت الحاسوب وتردَّدت أصابعي فوق لوحة المفاتيح ، كأنَّني عازفة بيانو كانت بعيدةً عن آلتها المفضلة لفترة ، ولا تعرف أيّة مقطوعةٍ تعزف ، خجلةً أمام الأحرف المحفورة على الأزرار .

ذهبت إلى موقع إلكتروني أعرفه جيداً ، أذهب هناك لأتسلى . يرسل الناس صوراً لأنفسهم ، معظمهم يبدو مريعاً . يصورون أجسادهم التي تبدو باهتةً وبدينةً ومغطاةً بالبثور . بعضهم عليه أوشامٌ أو بلحىً طويلةً ، وآخرون حليقو الرؤوسٍ ويلبسون بذلاتٍ جلدية . بعضهم يُظهِر وجهه ، لكن مع خطٍ أسود فوق العينين . الضوء حادٌّ وأجسادهم تبدو مثل سطح البحر . في الخلفية يمكنك رؤية كؤوسٍ فارغةٍ ومرايا وحواسيب وخزائن . أناسٌ يبحثون عن أصدقاءٍ وصديقات . توجد زاويةٌ كتب عليها «طلباتٌ غريبة» ، وهناك يمكنك إيجاد أشخاصٍ يبحثون عن أصدقاء بمواصفات لا يمكن تخيلها .

أبقى هناك لفترة ، أفتح صفحة دردشةٍ وأكتب أنَّني بحاجةٍ لعقاب .

في البداية أتلقى إجابات غير متّزنة ، ثم يكتب شخص يسمي نفسه الذئب المستوحد : جميل . أنتظر أن يكتب المزيد

فلدي شعور بأنه لا يزال موجوداً ، فيما يتحرك الجميع هنا وهناك ، بإمكاني تمييزهم وهم يرحلون وحين يصرخون ويضحكون . لكنَّ عينيّ الذئب المستوحد تحدِّقان بي ، وبعد عشر دقائق تقريباً يكتب : لماذا؟

جلست وفكرت لبرهةٍ ، ثم كتبت أنَّني فعلت شيئاً لا يمكن غفرانه . قال إنَّه يتفهم ذلك ، وأنَّه فعل أشياء مشابهةٍ ، ثم سألني ماذا فعلت .

جلست وفكرت مرةً أخرى ، هذا أمرٌ جديدٌ عليّ ، في العادة أكتب بسرعةٍ شديدةٍ ، أبي يقول إنه يشعر أنَّ لوحة المفاتيح ستنفجر من سرعتي ، لكن هذا يحدث حين أتكلم مع أناسٍ أعرفهم . لا أستطيع أن أتذكر آخر مرةٍ تكلّمت فيها مع غريبٍ تمامًا .

فكرت ، أنّه ربما من الأفضل أن أنتظر ، أنا الآن أملك الذئب المستوحد ، وكلما أبطأت في الرد زادت رغبته بالكلام ، وزاد إلحاحه ، وصدَّق ما أقول .

لكنَّ الأمر غريبٌ ، أتى من مكانٍ ما ثم اختفى . قلت للذئب المستوحد إنّها حكايةٌ قديمةٌ وكئيبةٌ ، وأنَّ الوقت متأخرٌ للخوض فيها ، فإذا بدأت الآن لن أستطيع أن أتوقف قبل أن أنهيها ، وهذا سيمنعني من النوم طوال الليل ، وأنا مضطرةٌ للاستيقاظ باكراً .

تسألني لماذا عليَّ الاستيقاظ باكراً .

قلت إنَّني أعيش في بيتٍ كبير أقرب لقلعةٍ ، وأقوم بالكثير من الأعمال الخيرية ، ولديَّ ثلاثة اجتماعات في الغد ، وأكملت بأنَّني متوترةٌ لحدوث هذا الشيء ، بخاصّة أنَّني تحت تأثير الدواء . سألني أيَّ دواء أتناول . انتظرت فترةً ثم بحثت عن اسم مضادٍّ للاكتئاب على جوجل ، ثم اخترت اسم الدواء الأكثر شيوعاً ، لأنَّني لا أعتقد أنَّني ذلك النوع من النساء التي ستخاطر بتناول دواءٍ له أعراضٌ جانبية .

من الجيد أنَّني عودته على الانتظار ، هكذا كان لدي وقتٌ كافٍ لأجد الدواء المناسب . سألت الذئب المستوحد عمّا فعله ، أجابَ بعد فترةٍ أنَّه لا يعرف . قال إنَّه كان يبحث عن إجابة طوال حياته ، وأحيانًا يصاب بالإحباط والغضب لأنَّ أحداً لا يستطيع مساعدته .

أحياناً يرغب بتفجير العالم ، حاول الانتحار مرتين ، في المرة الثانية احتجزوه ، عائلته فعلت ذلك ، والأطباء . كان ولدًا طيبًا لعدّة سنوات في المستشفى . فعل كلَّ ما طُلب منه . تناول دواءه في مواعيده . كان يقلب نفسه رأساً على عقبٍ أمام كلِّ طبيبٍ نفسيٍّ يُعرض عليه . بعد ذلك قالوا إنَّه يستطيع الخروج من المستشفى ، ولم يحدث شيء . لا يزال غير قادرٍ على النوم ليلاً . وإن نام يكون ذلك بعد أن يتناول الكثير من الحبوب المنومة ، ويستيقظ بعد عدّة ساعاتٍ وتتسارع نبضات قلبه ويغطيه

العرق ، وهو يشعُر بأنّه فعل شيئاً سيئاً ، وأنَّ الآخرين سيقعون في ورطةٍ بسببه .

كان الذئب المستوحد يتكلم ويملأ الصفحة أمامي . تملّكني شعورٌ غريبٌ وكانت الخطة تُعدُّ في رأسي . على الرغم من أنّني لا أستطيع تسميتها بالخطة ، لأنّ ذلك يبدو وكأنّني أكتب على لوحٍ أبيض مسطّرٍ وأضع خطوطاً حمراء تحت الكلمات ، وأكتب كلماتٍ أخرى بخطٍّ كبير . لكنَّ التخطيط لم يكن يوماً لعبتي . في العادة تتملّكني فكرةٌ مبهمةٌ ثم أشعر بالطريقة التي ستتطور إليها الأمور .

الذئب المستوحد غاضبٌ لأنّه حاول وحاول ، ولم يساعده أحد . لا يريد الذهاب إلى المستشفى ، لقد جرّبها مسبقاً ولم تنفعه . تلك الفترة سبّبتْ فراغاً كبيراً في حياته ، وهو خائفٌ من التفكير في الأمر لأنَّ الحياة قصيرةٌ ، أخذوا كلَّ تلك السنوات من حياته ، وصلوا إلى عقله ، قضموا جزءاً منه ورموه في القمامة .

صمتت الشاشة فجأة ، بدا وميضٌ فقط . كأنّه المحيط بعد عاصفةٍ عنيفةٍ ، وفي خضمّه قاربٌ أبيض يومض وسط المحيط الأبيض الواسع .

انتظرت قليلاً ، ثم قرأت ما أرسله الذئب المستوحد مرّةً أخرى . وانتظرت لفترةٍ أطول ، وكان ذلك مضحكاً . كأنّنا نعرف بعضنا ، فكلما انتظرت أكثر أحسست أنَّ غضبه قد زال ، كأنّه

وريدٌ أحمر أمامي ، يضخ الدم داخله أكثر فأكثر ، وأنا أفكر بالانفجار الأحمر الكبير ، وكيف سيبدو المشهد جميلاً عند انفجاره .

كتبت أنّنا مثاليان لبعضنا ، لأنّني أحتاج أحداً يريد فعلاً أن أملكه . لم أكن أريد الخوض بالأمر . لماذا؟ ليس الآن ، لكنّني فعلت أمراً بعيداً عن البراءة ، ليس له عذرٌ ، أمراً أستحقّ من أجله أن أحرق في جهنّم ، لعشر مراتٍ متوالية . ربما أخبره حين أعرفه بشكلٍ أفضل . لكنني ما أستطيع أن أطلب منه الآن هو أن يأخذ كلمتي ضمانةً : أنا لا أستحق الحياة ، وأعرف ذلك ، وبهذه المعرفة ، الحياة ليست أكثر من ألمٍ لا نهائيٍّ ، وأريد من ينشلَني من عذابي .

كان جوابه قصيراً نوعاً ما ، قال ربما نحن فعلاً زوجاً مثالياً ، هو البريء المهووس بالذنب الذي يريد ارتكاب جريمةٍ تجعل شعوره بالذنب أقل ، وأنا المذنبة التي تنتظر عقاباً . بعدها قال إنّه يسامحني ، أرادني أن أعرف ذلك ، مهما فعلت ، لكنّه قال إنّ هذا ليس هامًا طالما أنّني لم أسامح نفسي بعد .

سألته أين يسكن ، وأجاب في مكان ما في بريطانيا ، قلت وأنا أيضاً . بعدها قلت تصبح على خير .

بعد الإفطار ، دارت كاترينا في المطبخ ممسكةً مجموعةً من المفاتيح . أبي لمس كتفي وقال شيئاً بلغة أجنبية ، ثم فقد

صبره ، وتوقف عن لمسي ، بعدها ندم لأنّه فقد أعصابه وعاد صوته أكثر نعومة مرةً أخرى ، وعاد للمسي من كتفي .

استمعت إلى صوته كما أستمع للراديو ، صوته بالنسبة لي كالموسيقى ، أستطيع تمييز أغنياتٍ مختلفةٍ تخرج من فمه ، أها ، نغمٌ متراخٍ ، أها ، أغنيةٌ سلطويةٌ ، هذا كلٌّ شيء .

أخبرتهُ بالإنجليزية أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام . وشعرت أنَّها نكتةٌ قديمةٌ بيننا حين كنّا نشاهد أفلام الأكشن على التلفاز ، حين يؤكد الممثلون لبعضهم حين تسوء الأمور أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام . أحدهم ملقىً على الأرض يمسك بأحشائه ، بينما يقول الآخر كلُّ شيءٍ سيكون على ما يرام ، كنّا نقول ذلك لبعضنا كمزحة ، والآن أنا من يحمل أحشاءه . خرجنا ، انتظرت أنا وأبي حتى فُتح المرأب وخرجت كاترينا بسيارةٍ كبيرةٍ خضراء . جلست في المقعد الخلفيِّ وبدأت تمطر . قالت كاترينا إنَّ رائحتي جميلة ، وسألتني عن اسم العطر ، وأجبت أنَّني لا أذكره ، ثم ذكر أبي اسم العطر وشعرت بالعار .

بعد عشر دقائق دخلنا في مجمّع للسيارات . المدرسة كأنَّها من القرون الوسطى . رجلان يقفان خارج البوابة يرتديان بذلتان زرقاوان متطابقتان . الشعار ذاته على جيب المعطف ، أحدهما كان يأكل من خبزةٍ صغيرةٍ والآخر يدخن سيجارة . رتَّبا نفسيهما ولوَّحا لكاترينا ، وعندما اقتربنا عرَّفا عن نفسيهما

وتبادلا الضحكات والنكات ، وضحك أبي كالقرد .

تبعنا الرجلان إلى الداخل . العشب والأعمدة في كلِّ مكان ، في أعلى المبنى رأيت الطلاب ينظرون نحونا . بإمكانهم أن يبصقوا ويرموا الأشياء من هناك ، لكنَّني متأكدةٌ من أنَّهم لا يفعلون ذلك .

دخلنا عبر ممرٍّ ، وتلفَّت الرجل الذي كان في المدخل وألقى نكتةً وراء الأخرى ، وضحك أبي كالقرد .

عبرنا نحو غرفةٍ وتكلَّمنا مع امرأةٍ ، هي المديرة على ما يبدو أو شيءٌ من هذا القبيل . كانت باهتةً بعينَين ذكيّتَين وشعرٍ كستنائي . عندها حدث شيءٌ ما . بعد عدة نكاتٍ من الرجل المدخّن قالت المديرة إنّها تريد التكلم معي على انفراد . غادر الجميع ، جلسنا وانتبهت إلى خريطةٍ كبيرةٍ على الحائط . نظرت إليَّ وقالت إنَّ هذه المدرسة لا تضع الكثير من القوانين لأنَّهم يثقون بنا . قالت إنَّها شكّت في نجاعة الأمر في البداية ، لكنَّها عرفت لاحقاً أنَّ الطلاب يعرفون ما هو المتوقع منهم ، وإن لم يعرفوا فإنَّ هناك دائماً من يخبرهم . ولا توجد جاذبيةٌ في صفة «الطالب السيء» هنا ، فهو عادةً ما يشعر بأنَّه وحيدٌ وسخيف .

هذا ليس مكاناً للطلاب السيئين ببساطة ، لذا فكلُّ من يرغب في افتعال المشاكل يرحل طوعًا ، ليس لديهم ما يكسبونه في هذه المدرسة ، الجميع يتجاهلهم .

- يبدو أنَّه تم غسل أدمغة الجميع ، أليس كذلك؟ قالت .

- نعم ، أجبت . لكنّني أحتاج لغسل دماغي ، لذا .
- أنا أيضاً ، ردّت .

ضحكنا ، أحببت المكان هنا ، أحسست أنّني كسبت صديقةً تملك نفوذاً . بعدها أخذتني إلى الخارج ورافقنا أبي وكاترينا إلى الصف . الرجلان الآخران اختفيا . عندما توقفنا خارج عتبة الصف قال أبي وكاترينا إلى اللقاء ، ثم أضاف والدي أنّه سيقلّني من موقف السيارات في الساعة 1:45 . حضنتني كاترينا وأبي أيضاً ، واختفيا .

المديرة التي نسيت اسمها قرعت على الباب ، ففتحه أحدهم على الفور . امرأة ابتسمت لنا خلف الباب ، ثم أشارت بأن نلتزم الصمت .

تسللنا إلى الداخل . كانت فتاة تقف بمواجهة الصف ، وتبدو محرجة . أشارت لها المرأة بأن تكمل . أخذت الفتاة تقرأ قصيدة بدت حديثةً وخالية من القافية ، لكنّها جيدةٌ جدًا ، ولا يمكن أن تكون الفتاة قد كتبتها بنفسها .

استمعت إلى القصيدة ونظرت إلى الطلاب الذين كانوا ينظرون نحو الفتاة التي تقرأ . الانطباع الأول الذي أخذته أنّني لن أثير اهتمامهم على الإطلاق . أنهت الفتاة القصيدة ، وكانت هي من كتبها .

صفّق الجميع ، وقالت المعلمة بعض الكلمات اللّطيفة عن القصيدة . وكانت قد دوّنت بعض الملاحظات لأنّها كانت تنظر

إلى دفترها وتسأل بماذا كانت تفكر عندما كتبت هذه الجملة أو تلك ، والفتاة تجيب عن استفساراتها .

لم أفهم نصف ما قالته ، لكن من الواضح أنّها فعلت هذا من قبل ، وأنَّ الطلاب يعرفونها ويحبونها عندها عرفتني المديرة إلى الصف . منحوني مقعداً ، وقالت المعلمة إنَّهم أعدوا لي شيئاً خاصاً . لتعريفي بالصف . كلُّ طالبٍ عرّف عن الطالب الآخر . يقف الواحد منهم بينما يقول الآخر بعض الكلمات عنه ، وهكذا . كان الأمر طريفاً ، وضحك الجميع . من الصعب على الطالب الواقف المحافظة على وجهه ثابتاً ، تلك هي النقطة المضحكة على ما أعتقد . بعد قليل بدأت وجنتاي تؤلماني . وتنبّهت إلى أنَّني غير مضطرةٍ للضحك بقوةٍ ، فلا أحد ينتبه لي بكلِّ الأحوال .

بدأت أفكر بأشياء غريبة . في البداية فكرت إن كان الطلاب أغنى مني ، ثم رأيت نفسي أجلس إلى طاولة الغداء أسأل الطلاب عن ثروتهم . وإن كانوا لا يعرفون ، فعليهم ربما أن يسألوا أهلهم وتدوين الرقم على ورقة ليخبروني به في الغد .

إن سألوني لماذا أنا فضوليةٌ سأتظاهر بأنَّني بريئةٌ ، وأسألهم إن لم يكن لديهم فضولٌ ولو ضئيل هم أيضاً ، وإن أجابوا بلا ، فسأسألهم لماذا؟ هل تقولون إنَّ المال ليس هامًا؟ لو كان كذلك ، لماذا لا تعطونني كلَّ نقودكم؟ من فضلكم ، أعرف الكثير من

البشر الذين يعتقدون أنَّ المال هو في غاية الأهمّيّة جداً ، بل هو كلُّ شيء .

ربما نستطيع أن نهبهم أموالكم التي تعتقدون أنّها ليست هامّة ، لترتاح عقولهم ، عندها بإمكانهم التفكير بأمورٍ هامّة ، ربما ينضمون إلينا هنا ويكتبون قصائد يقرأونها أمامكم .

فقدت أفكاري نكهتها وبدأت بتصوُّر نفسي في هذه المدرسة بعد سنتين ، ربما أحرز تقدماً كبيراً في اللغة والمواضيع الأخرى ، لكنّ الطلاب الآخرين سيحرزون تقدماً هم أيضاً . إذاً ، لا يهم كم حاولت ، سأكون دائماً متأخرةً عنهم ، بل متأخرةً جداً .

ثم بدأت بالتفكير بذلك الطفل الذي رأيته على التلفاز ، في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره ، مصاباً بمتلازمة داون ولديه توحّد . جلس إلى الطاولة وضرب رأسه بها ، وهو يضع خوذةً كأنّه في مسابقة للدراجات . شاهدنا أمه وهي تحاول أن تضع له حفاضة ، قالت إنَّه يحتاج إلى حفاضة مزدوجة ، وأحياناً يلطّخ نفسه ببرازه ، وعليها أن تحمله إلى الأعلى في الليل لأنَّه يتصرف بفظاظة .

شعرت بالحزن على الولد ، لكنَّني شعرت بالغثيان لرؤيته أيضاً . حجمه كبير ، ويتصرف كطفلٍ بسنّ السنتين . هناك شيءٌ غير عاديٍّ بشأنه . من أكثر المشاهد المخيفة التي رأيتها في حياتي .

ربما أصبح مثله ، أحرز تقدماً ، خطوةً كلَّ مرة ، ويشعر

الآخرون بالغثيان لأنّني سأكون فتاةً ناضجةً وعاجزةً ومقرفةً في الوقت نفسه .

خرجنا للإستراحة لمدة نصف ساعة . عرضت إحدى الفتيات أن تريني المكان . فتاةٌ وفتىً سألا إن كانا يستطيعان الانضمام إلينا ، أجبت بالتأكيد . عرّف الجميع عن أنفسهم ، لم أستطع تذكُّر اسم أحدٍ منهم . الفتاة التي عرضت أن تريني المكان يبدو أنّ والديها قادمان من الهند . الأخرى بدينةٌ قليلاً بوجهٍ منمشٍ وثديَين ضخمين . الفتى محنيٌّ وطويلٌ وفمه يشبه فم الضفدع . الهندية مليئةٌ بالطاقة وتتكلم كثيراً ، وضعت يدها أسفل ذراعي كأنّنا أصدقاءٌ قدامى . الفتاة الضخمة أكثر هدوءاً وتنظر إليَّ طوال الوقت . وصاحب الفم الضفدع يمشي بخطواتٍ واسعةٍ كنعامةٍ ويطلق ملاحظاتٍ طريفة .

يوقفنا الطلاب طوال الوقت ويعرّفون عن أنفسهم . في لحظةٍ معينةٍ يقول الأولاد شيئاً ، بينما تقف الفتيات قربهم وينغزنَهم في صدورهم ويُدِرنَ عيونهنّ ويبدون محرجات . شعرت أنّ الأولاد يقولون شيئاً جريئًا أو مسيئًا لي ، وأنّ الفتيات يُردنَ أن يُظهِرنَ لي أنّهنَّ لا يوافقن على ذلك ، وأنّه أمرٌ مبتذلٌ لا يُحتمل .

أصيب رأسي بالدوار بعد فترة ، شعرت بوجود سوء فهم لأنّني لا أفهم ما يقوله أيٌّ منهم . وتساءلت إن كان ذلك بسببِ الورقة التي أعطتني إيّاها كاترينا في ذلك اليوم ، وقالت إنّها من

مُدرّستي الجديدة ، تريد مني كتابة شيءٍ عن نفسي . ذهبت إلى غرفتي وكتبت شيئاً ساخراً كما أذكر ، لأنّني لم أرغب أن أخبرهم بشيءٍ حقيقيٍّ عني .

لكنّني في الوقت نفسه أردت أن أوضّح لكاترينا كمية المفردات التي أعرفها ، فملت إلى الاستعراضيّة قليلاً .

بعدها أعطيتها الورقة وسألتني إن كانت تستطيع قراءتها ، فهززت كتفيّ . لاحقاً دقّت باب غرفتي وقالت إنّها مبهورةٌ ، وأنّها ورقةٌ مذهلةٌ ، وأمور كهذه .

ربما كان لهذا الاستعراض نتائج عكسيّة ، فلربما قرأ هؤلاء الورقة وأخذوا انطباعاً خطأ وظنّوا أنّني أفضل مما أنا عليه في الحقيقة . أقابل كلّ هؤلاء الأشخاص وأحدّثُهم وأنظر إليهم وأبتسم وأعرّف عن نفسي ولا أفهم ما يقوله أيٌّ منهم . يتكلمون بسرعة ، ولا أريد أن أطلب منهم أن يتكلموا ببطء ، أفضّل الموت على ذلك . لكن من المتعب التظاهر بأنّك تفهم كلّ شيءٍ طوال الوقت . أتمنى لو كنّا أصغر نستطيع أن نلعب معاً ونتعارف فيما نلعب لعبة شدّ الحبل أو غيرها ، لكنّ وقت اللعب مضى . البدينة تسجّل ملاحظاتها عن شيءٍ ، بينما يتبع الفتى الضفدع الفتاة الهنديّة في كلّ ما تقوله ويزيّن أقوالها بنكاته . لاحظت أنّه لا ينظر لأحدٍ أثناء إلقائه للنكات ، لذا حزرت أنّه تألّم من ردود أفعال الجمهور على نكاته ، لذا قرر منذ عدة سنواتٍ ألّا ينظر إليهم .

فهمت أنَّ الفتاة الهنديّة عُيِّنت لتريني المدرسة . من المؤكّد أنَّهم اختاروها لأنَّها تبدو غريبةً مثلي ، فمن الطبيعي أن أشعر بالألفة معها . وجهها رقيقٌ ، وتبدو مصطنعة . مشينا عبر المقصف حيث الكثير من الطلاب . بدا حميمًا ، المقاعد بجلدٍ أحمر وكتبت الأسعار على ألواحٍ سوداء صغيرةٍ بطباشير حمراء وزرقاء .

عدنا ، وكان عليَّ أن أسأل الفتاة الهندية عن مكان الحمام ، فأرتني إيّاه . لوّحت لهم وأخبرتهم أنَّ بإمكاني تدبُّر أمري ، فضحكوا قليلاً .

دخلت وأقفلت الباب ، جلست على مقعد الحمام وتأكّدت أنَّني أحمل كلَّ الزينة معي . كان عليَّ البحث عنه في الحقيبة وترتيبه على الحوض . حقيبتي فوضى كبيرة ، كالعادة . لا فائدة مني .

عندما تأكدت أنَّ لديَّ كلَّ شيءٍ انحنيت للخلف ، نظرت إلى السقف وانتظرت الدموع . لكن ، طبعاً ، في البداية لم يأت شيءٌ . الدموع كانت تتجمّع داخلي طوال اليوم ، وفي اللحظة التي أستطيع أن أدعها تنهمر فيها ترفض الدعوة ، كأنّها جفّت ، وعليّ افتعال التفكير بشيءٍ محزن لأجبرها على الإنهمار ، كأنّني أدفعها للنزول ، أنا الفتاة الصغيرة في يومها الأول في المدرسة ذات الجدران العالية الباردة ، وحقيبتي الكبيرة على كتفيّ ، أبدو تماماً كالفتيات المنتحبات قرب اللوحات المبتذلة .

أبالغ في كلِّ شيءٍ وأرسمه بألوان النيون الرخيصة .

بعدها بكيت قليلاً ، نظرت إلى الأعلى فوصلت الدموع حتى عنقي ودغدغتني ، أتساءل إن كان هناك جداول من الدموع السوداء حول عنقي ، سأعرف قريباً عندما أنهض وأنظر إلى نفسي في المرآة ، سأبتسم لنفسي كأنّني أقول لها لا تهتمي أيّتها الصغيرة الحزينة ، ثم أمسك بمكياجي السحري وأوضِّب نفسي . خمس دقائق فقط ، لأمسح كلَّ هذا الحزن كأنّه لم يحدث . سينظر إليَّ هؤلاء الأطفال بعيونهم الحادّة ويبحثون في خدّيّ وشفتيَّ وعنقي عن الدموع ، عندها سأبتسم لهم كأبي الهول .

قريباً سيسألون عن أمي ، إنه أمرٌ لا مفرَّ منه . التعرُّف على الآخرين يشبه العيش في بيت مليءٍ بالجرذان . عاجلاً أم آجلاً سيعتقدون أنّهم يعرفونك أكثر مما تعرف نفسك ، ثم يأتونك في الظلام من الزوايا ومن القبو ومن بين الشقوق الصغيرة في الجدران والخزائن ، يحدِّقون فيك بعيونهم الحمراء ، ولن تستطيع أن تفعل شيئاً ، لأنَّك حين تعيش مع أحدٍ ما سيعرفك جيداً ، وسيظهر السؤال دون شك . أحياناً أخبرهم الحقيقة ، أنّني لا أذكرها ، فينظرون إليَّ بشفقةٍ غير مصدِّقين ، كأنّه موضوعٌ حساسٌ ولا أستطيع استعادة ذكرياتي من فرط حساسيته . لكن هذه هي الحقيقة ، أنا فعلاً لا أتذكّر ، ما الغريب في هذا؟ كنت

في سنّ السنة والنصف حين غادرت . لو سألت الناس ما هي لعبتكم المفضلة حين كنتم في سنّ السنة والنصف ، وما كان لون جدران غرف نومكم ، هل سيذكرون؟ طبعاً لا ، لكنّهم يتوقّعون مني أن أتذكر كلَّ شيء .

أحياناً أكذب ، أخبرهم أنّني أتذكر رائحتها وضحكتها ، لكنّ هذا مُقزّز .

الأمر السيء بشأن الكذب أنَّ عليك تذكّره ، وإلا ستناقض نفسك ، وتبدو أحمق ، وأنت كذلك على الأغلب ، لكن لم العجلة في تأكيد حُمقك؟

ينظرون إليَّ بشفقةٍ غير مُصدِّقين . وعندما أتكلم عن أمي يبدو واضحًا أنّهم يعتبرونها المخلوقة الأسوأ على الإطلاق . كأنّها ليست امرأة ، فهي خرقت أوّل قاعدةٍ نسائية . هي شيءٌ آخر ، حيوان ربما ، كلبةٌ مريضةٌ تنبح خلف الأعشاب ، وأنا أحوم حولها . كلبةٌ تلعق الدماء واللعاب عن جسدي . والأمر الأسوأ ، هو حين أرى الشفقة وعدم التصديق في عيونهم ولا أملك خياراً سوى الدفاع عنها . وأنا أكره هذا لأنّه ينتهي برغبتي في الصعود إلى أعلى بنايةٍ وقنص الجميع .

أسمع «التِك تَك» من الرشاش وأراهم يسقطون ولا ينهضون مرةً أخرى . أكرههم لأنّهم يحتقرونها ، ولا يهمُّ أنّني أحتقرها أنا أيضاً عندما أفكر فيها وبما فعلته بي وبما تفعله الآن . عندما يحتقرونها سأضطرُّ للدفاع عنها ، وسيبدو الأمر كأنّني مولعةٌ

بها ، وكأنّني أحبُّها ، لكنّني لا أصل إلى هذه النتيجة بنفسي . إنه القرف في صوتهم هو الذي يدفعني للشعور بذلك ، وهو أسوأ ما يمكن تخيُّله ، يشبه دفعك لشيءٍ لذيذٍ حلو المذاق يدخل في حلقك عنوةً لتختنق به .

بعد الاستراحة دخل إلى الصف رجلٌ صغير الحجم ذو لحيةٍ تبدو مليئةً بالقشرة ، نشيط ويقفز قليلاً حين يتكلم . إنه معلم التاريخ ، وهو محبوبٌ جداً بين الطلاب . سأل إن قرأ أحدهم شيئاً هامًا في الجريدة . ينفعل جداً فجأة لدرجة أنّه يركض نحو السبورة ويدوِّن ملاحظة . ولكن من المستحيل فك طلاسم خطوطه . جميع الطلاب يضحكون ، لذا يبدو أنَّ هذه هي علامته المميزة . اقترب نحوي في لحظةٍ معينةٍ ووضع يديه على خاصرته وبدأ بذكر أسماء مدنٍ في بلادي القديمة ، كنت متأكدةً أنّه يريد منّي أن أردّ . أخفضتُ رأسي بخجلٍ مع كلِّ اسم . قال إنه زار كلَّ هذه المدن ، وتحدّث عن بلادي وعن تاريخها كلّما توقف أمام مقعدي . كان هذا محرجاً لأنه يحدثني كما لو أنّنا وحدنا ، فيما نحن محاطون بأكثر من ثلاثين طالباً لديهم آذان كبيرة . تحدث عن أحداثٍ تاريخيةٍ من الواضح أنّه يتوقع منّي أن أعرفها . لكنّني بلا فائدةٍ أمام تاريخ بلادي القديمة . وهذا طريفٌ لأنّني مهتمةٌ بالتاريخ بشكل عام . لكن كلّما اقتربت من تاريخ بلادي فقدت اهتمامي . لو أردتني أن أغرق في النوم فعلاً ،

يكفي أن تتكلّم عن ذلك التاريخ .

أخفضت رأسي كالحمقاء . حاولت أن أنتبه لأبتسم حين يبدو أنّه يقول طرفةً . لكنّني متأكدةٌ أنّني فوّتُ الكثير وأنّني أخطأت أحيانًا .

وتخيلت اجتماعًا يعقدونه مع الأستاذ حول طاولةٍ بعد الأسبوع الأول ربما ، سيجمعون المعلمين والمعلمات . وستسألهم المديرة التي أحببتها عن رأيهم بي . عندها سيحاولون تفادي نظراتها وسيبدو عليهم الحرج . سيغمزون لبعضهم البعض ويتمنّون لو أنَّ أحداً آخر يبدأ بالحديث ، بعدها سيقول أحدهم إنّه متفاجئٌ ، وأنّهم توقعوا أنَّ لغتي الإنجليزية أفضل بكثير ، وأنهم يشكون بأنَّ هذه المدرسة مناسبةٌ لي . ربما عليّ أن أدرس في صفٍّ أدنى . وسآتي إلى المدرسة وأنا أضع تلك الخوذة . وسأخرج من الحمام وأمرّغ نفسي ببرازي وأجلس في المقصف وأضرب رأسي بالطاولة . وسيصدر صوت ضربات قوية ، وتتحطّم جميع الصحون والكؤوس .

لا أفهم كيف فكرت بأنّني حين أجعل من نفسي حمقاء أمام الجميع ، فإنّ هذا سيجعل من كاترينا وعائلتها وأبي حمقى أيضاً . من السهل التفكير بذلك حين تكون بأمانٍ داخل غرفتك وفي منزلك . لكنّ الأمر لا يبدو سهلاً الآن وأنا أجلس أمام الأستاذ بلحيته المليئة بالقشرة ، وهو ينحني نحوي وأنا أرى اللمعان الذهبيَّ للسنّ التي في فمه .

إنه قرارٌ طفوليٌّ ، كالقفز أمام القطار وأنت تفكّر بالانتصار الذي ستحرزه أمام من سيجمعون القطع الصغيرة التي ستتفتّت إليها ، وبالأوقات الصعبة التي ستواجههم .

والدي هو من سيقلُّني . كان يقرأ شيئاً ، وحين فتحت الباب اكتشفت أنَّه يقرأ كتيِّب السيارة . شعره رطبٌ لكنَّه لم يحلق ذقنه . أعتقد أنهما حظيا بوقت حميم بينما نحن الأطفال في الخارج . أتساءل إن كانا يصدران أصواتا ، وإن كانا يفكران في الخدم .

أتذكّر ضحكة كاترينا حين قُلت كلمة «خدم» ، وأتذكر نظرة سارة الغاضبة ، لكن حين فَهِمت أنّه لا بأس من الضحك ضحكت هي أيضاً .

قالت كاترينا إنَّها كلمةٌ لا يستخدمونها أبداً ، تظاهرت بالبراءة وسألت لماذا؟ أصبحتُ تلك الفتاة الفقيرة من أوجا - بونجا بمؤخرة حمار . تلك الفتاة ذات الشفاه الغليظة المليئة بالغراء ، ضحية التجارة بالأعضاء من الشرق المتجمّد ، أمي عُنّفت فيما فوهات الرشاشات تصوّب على رأسها ، وأبي يشرب ويضرب إخوتي وأخواتي .

غرقت كاترينا بالصمت لوهلة ، ثم قالت إنَّ هذا مثيرٌ . والتفتت إلى سارة وسألتها لماذا لم يستخدموا تلك الكلمة يوماً . سارة استهجنت سؤالها ، ثم سكتت كاترينا لفترةٍ أطول ورفعت

إصبعها في الهواء وفتحت عينيها على وسعيهما وقالت أنا أعرف : لأنَّ الخادم هو شخصٌ وظيفته إرضاء رغبات سيّده بالمطلق ، وتنفيذ كلّ ما يطلب منه . طبعاً لدينا من يعمل في البيت ، لكن لديهم واجباتٌ محّددة ، هناك الجنائنيُّ الذي يعمل في الحديقة ، وهناك من ينظف البيت ، وآخر يصلح ما يتكسّر في المنزل ، لكن تخيّلي ، قالت كاترينا والتفتت إلى سارة ، ما قد يحدث لو أنّنا طلبنا من ألِن أن يُعدَّ لنا بعض الشاي . ألِن هو الجنائنيّ قالت لي . وضحكت سارة . ربما نصبح عائلةً كبيرةً مع كلّ الخدم ، وربما هم يعرفون ذلك ، قالت كاترينا بصوتٍ يبدو وكأنّها في السرير . ربما هذا هو الصوت الذي كانوا يسمعونه لسنوات ، وهم يستطيعون التمييز بين الأصوات . وألِن يتوقف عن الحفر كلّما وصل إليه الصوت عبر نافذة الطابق الثاني ، يتوقف ويرفع رأسه ويفكر .

يقول أبي إنّ عليه الذهاب إلى البلدة ، ونستطيع التوقف في مكانٍ ما لشُرب القهوة . سألته لماذا؟ كنت سعيدةً لأنّه يتكلم بالإنجليزيّة ، نظرت إلى النافذة وكنّا نتخطّى مزارع وصوامع وأغنامًا وبقرًا .

زوجان شابّان يقفان قرب السياج على جانب الطريق ، قريبان لدرجة أنّني أستطيع أن ألمسهما لو أنّ يدي خارج النافذة . يضحكان ، كلاهما جميلٌ ، كأنّهما عارضا أزياءٍ في مجلة . عندما تخطّينا المرأة ، نظرت إليّ مباشرةً بوجهها الضاحك .

بشرتها تبدو طريةً ونظيفةً ومصقولةً كتفاحةٍ حمراء كبيرة .

قدنا السيارة عبر نفقٍ طويلٍ ، ولاحظتُ أنَّ أبي لم يبدأ بطرح الأسئلة ، في العادة يغرقني بها ، لكنَّني أعتقد أنَّه يريدني أن أفهم شيئاً ما ، لا أعرف ما هو ولا أهتم . بدأت أنا بطرح الأسئلة ، أسئلةٍ عامةٍ عن البلدة التي سنذهب إليها ، وكم هي مساحتها ، وهل أستطيع الذهاب إلى هناك وحدي يوماً ما .

لا يهمُّ عما نتكلم ، ولا أستطيع القول أنَّني أهتمُّ لما يقوله . وهذا لا يعني أنَّني غير مهتمةٍ بإجاباته ، لأنَّني مهتمة . لكنَّ ما يهمّ الآن هو أن نتكلم بالإنجليزية . ومع كلِّ جملةٍ تقلُّ الطرافة في صوته ، كأنّه يدرك شيئًا ما أو استقرَّ على شيءٍ ما . هذا هو الأمر وهكذا سيكون ، وهذه ليست مزحة .

قدنا السيارة لأكثر من نصف ساعة ، تخطّينا مستودعاتٍ ومصانع ، ثم رأيت مداخن رماديةً طويلةً بدت كمحطةٍ نووية . عبرنا نفقًا آخر ، وعندما تخطّيناه رأيت مصارف وإعلاناتٍ ضخمةً وحافلات ومطاعم وجباتٍ سريعةٍ ، وأعتقد أنَّني رأيت ملعباً لكرة القدم أيضًا .

قال والدي إنَّه تكلم مع سيجي على الهاتف ، وأنَّه أرسل لي تحيّة وسأل عني كثيراً . قلت لوالدي أن يرسل له تحيّة نيابةً عني . كان هناك شيءٌ في صوتي كأنَّني آلة ردٍّ إلكترونيةٍ وأبي ضغط الرقم اثنان : إذا أردت ملاحظةً مهذبةً الرجاء الضغط على الزر الرقم اثنين ، وأنا فعلت ما طلبه أبي حين ضغط على

الزر ، ولديَّ شيءٌ أودُّ أن أضيفه هنا : «لمزيدٍ من المعلومات الرجاء زيارة موقعنا الإلكتروني www.oldcountry.com .

بعد ذلك تخيلت وجه سيجي ، ولم يعد الأمر طريفًا . وجهه فارغٌ وعيناه واسعتان ، ولا يدرك الطرافة في الموضوع على الإطلاق .

أفكر في سيجي وماذا سيفعل في هذا المكان وهو يخطو بخطواتٍ صغيرةٍ ، كسيّدةٍ مسنّةٍ أو طفلٍ تعلّم المشي للتوّ .

- كيف حاله؟ أقول .

حرّك أبي يده في الهواء .

- المالك الجديد حوّل المكان إلى مقصف للسلطات . دهنوا المكان بالأخضر الفاتح ، ووضعوا أثاثاً جديداً . إنهم يافعون جداً . ليسوا سيّئين . لكنّني أعتقد أنّهم يهزؤون به ، كأنّه قرويٌّ أحمق .

- إنّه كذلك قليلاً ، قرويٌّ أحمق ، قلت .

- لا يمكن أن تصفيه بذلك على الإطلاق!

- نعم ، أعلم . أنا أتكلّم فقط . إنّه ليس هنا ، أليس كذلك؟

شعرت بالسعادة لقول ذلك ، شعرت بأنّني إنجليزيةٌ جدًا ، وأستطيع القول إنَّ والدي هو من لا يجد الكلمات المناسبة الآن .

وصلنا البلدة . علقنا في أزمةٍ خانقةٍ ورأيت أطفالاً بزيٍّ مدرسيٍّ ، وعمال بناءٍ يقفون قربَ حفرةٍ في الأرض ويبدو أنّهم يحلّون معضلة ما . لكنّني لا أستطيع أن أحرِّر نفسي من سيجي ، وكيف كان يبدو في بلادنا القديمة ، مسترخياً وينظر حوله بعينيه الكبيرتين . بعدها اقتربت فتاةٌ صغيرةٌ بزينة ثقيلة وزيٍّ مدرسيٍّ جعلاني أفكر بماكدونالدز .

سيجي كان دائماً موجوداً ، لكنّه يعود إلى بيته حين تصبح الأمور صاخبةً في المقهى . يجلس دائماً إلى طاولته ويقرأ الجريدة ويشرب ويعود إلى بيته لتناول العشاء ، بعدها يعود لشرب القهوة وبعض الشراب . وها هو ، عالِق في روتينه ، وكلّما حدث أمرٌ يكسر هذا الروتين يشعر بسوءٍ شديد .

كان يقدّم لنا الكثير من الخدمات ، يراقب المقهى ويعلم أبي بأن يغادره إن لم تكن هناك حاجةٌ لوجوده . قال والدي مرّةً إنّ سيجي من النوع الذي يمكن أن تأتمنه على أسرارٍ تحمي الدولة في أوقات الحرب ، وأنّه مسؤولٌ ٪112 ، وأنّه لن يستسلم أبداً ، ولا يمكن رشوته حتى لو عذّبوه وهدّدوه .

أبي يبدو مغتاظاً بعض الشيء ، وأعتقد أنّ هناك نيّةً مبيّتةً خلف هذا الحديث . أنا متأكّدةٌ من أنّه كان بمزاجٍ رائع حين جاء إلى المدرسة ليقلّني . وكان كذلك حين أخبر كاترينا أنّه سيأخذني إلى المدينة لشرب القهوة . لا شك في أنّها نظرت إليه

بإعجاب ، وشعر بأنّه السوبر بابا في البلاد الجديد مع زوجةٍ غنيةٍ تسكن قلعةً كبيرة . لكنّه يجلس الآن في هذه المركبة الكبيرة التي لا يعرف كيف تعمل ولا كيف أعمل أنا أيضًا ، وليس لديه كتيِّبٌ يعلمه كيف يتصرف في هذه الأزمة الخانقة ، ويتمنى أن يذهب كلُّ شيءٍ إلى الجحيم . سألته ماذا سنفعل ، وأجاب أنّ عليه إيجاد محلٍّ لأجهزة الحاسوب . سألته لماذا ، وأجاب بأنّ عليه شراء بعض الأدوات . سألته لماذا لم يطلب من الخدم فعل ذلك ، فابتسم من دون قصدٍ لكنّ وجهه كان يخلو من علامات الفرح . لكنّني لم أهتم .

توقف مقابل محلٍّ وخرج . ورأيته يقف على الرصيف يبحث عن شيءٍ ما ، ربما يريد شراء تذكرة موقف . بدا غبياً بشكلٍ لا يصدق ، حتى أنّني أشفقت عليه . يبدو أنّه قرر أنّه لن يشتري واحدةً . فتح الباب وسألني إن كنت أريد الانتظار في السيارة ، لكنّني خرجت وقلت إنّني سأتمشى . وقال لا بأس ، قابليني هنا خلال ربع ساعة .

دخل إلى متجر الحواسيب ومشيت على طول الشارع وحاولت أن أشعر ببعض الحماسة ، هذه هي بلدتي الجديدة ، وكلُّ من في بلدي القديم يحسدونني . فكرت بجوليا وبابو عندما أخبرتهما بما يحدث ، كانا يضحكان ويدخّنان ويسعلان إلى أن تحوّل وجهاهما إلى اللون الأحمر . قلت إنّهما يبدوان مقرفين فقط ليعودا إلى طبيعتهما . وظلّا يردِّدان أنّها قصةٌ خيالية ، وأنّ

فيها شيئ غريب . قال بابو إنّها تشبه فيلم «Notting Hill» .

لكن لا يوجد ما هو غريبٌ هنا . ها هي البلدة وقد تحوّل لون سمائها إلى الرمادي . يوجد محلاتٌ وموقفٌ للسيارات ومطعم سمكٍ ، ثم شارعٌ طويلٌ بثمانية خطوط تقطعه لتصل إلى الجانب الآخر . بعيداً توجد حديقةٌ كبيرةٌ ، أمامها رجلٌ يحاول شواء النقانق ، وبنايةٌ من الممكن أن تكون متحفاً أو جامعة . وأنا في منتهى الصغر ، في منتهى الوضاعة .

مشيت بسرعةٍ لأصل إلى الطرف الآخر وأنا أراقب الرجل الأخضر الذي يمشي بجانبي . بعد أن قطعت نصف الطريق فكّرت بأبي والسيارة ومحل الحاسوب ، ثم تخيلت نفسي أركض في هذا الشارع الكبير لكن من الجهة الأخرى . وتلقائيًا حاولت تهدئة نفسي والتأكيد لها أنّني أستطيع أن أقطع الشارع من الجهة الثانية فقط من أجل التغيير ، بعدها أصابني شعورٌ هائلٌ بالعجز ، لدرجة أنّني تعثّرت قليلاً وأنا أحاول أن أوازن نفسي ، وبدا كلُّ شيءٍ غارقاً في ضبابٍ كثيف .

أصبحت خائفةً جدًا ، وقفت على الجهة الأخرى من الطريق لبرهةٍ ونظر بعض الناس إليّ من زوايا عيونهم ، لكنّ معظمهم لم ينظروا على الإطلاق . كانوا يتكلمون بعضهم مع بعض فيما يحمل معظمهم هواتف نقالةً ويضعونها على آذانهم ووجوههم تشعُّ بالترقّب .

وقفت هناك على طرف الشارع الكبير ألتقط أنفاسي ، ثم

تشجّعت وقرّرت العودة إلى السيارة . لن أفكر بأيِّ شيءٍ ، لا بالمدرسة ولا القلعة التي هي بيتي ، ولا ببلادي القديمة أو الجديدة .

إنّه مجرد مكان في هذا العالم الواسع ، وأنا أستطيع أن أكون في أيِّ مكان ، وأن أكون أيَّ أحدٍ . ولا يهُم أبداً من أكون . وضعت هدفاً وهو العودة إلى السيارة حيث أبي بانتظاري .

هذا كلُّ ما عليَّ تحقيقه .

إذا حققت هدفي عندها سأكون فتاةً جيدة . عليَّ فقط أن أتفادى السيارات والحافلات والدراجات . هذا كلُّ ما عليَّ أن أفكّر فيه ، خطوةٌ واحدةٌ كلَّ مرة ، من دون أن أصطدم بالمارّة وأزعجهم لأنّني لا أعرف من هم في الحقيقة .

أبي ليس في السيارة . ذهبت إلى متجر الحاسوب ، أبي يقف عند مكتب المساعدة يتكلم مع رجلٍ أصلع ، يبدو أنَّ شيئًا ما ينخزه في نهاية كلِّ جملة . الرجل الأصلع يفسّر شيئاً ويُري والدي كيف يستخدم الآلة . شعرت بالسعادة لرؤية والدي هناك وسماع الرجل الأصلع . تجوّلت في المتجر ، وجدت رأساً إلكترونياً جديداً لفرشاة أسناني ، أعطيتها لوالدي الذي أخذها وأكمل استماعه للرجل الأصلع .

كنت سعيدةً مرةً أخرى ، لن أتفاجأ إن كانت تأتي مع رأسٍ جديد . سأفكر بالفرشاة القديمة في بيتنا القديم ، وكم كانت

رماديةً وقذرة ، وكم ستكون سعيدةً برأسها الجديد وكيف سترفع الفرشاة رأسها الآن في الحمام الجديد وتفكر في أنّها تحبُّ المكان ، وأنّه فعلاً تسكن في قلعة .

ذهبنا لشرب القهوة قبل العودة . وجدنا مكاناً مريحاً يرتاده اليافعون ، يقدم شطائر رائعة . تناولت شطيرة دجاج مع بندورةٍ مجففةٍ وصلصة بستو وكابُتشينو ، بعدها طلبت مشروباً لا أعرف ما هو ، لكنَّ زجاجته ذات شكلٍ طريفٍ ، كأنَّها طوربيدو ، مذاقها منعشٌ بطعم الدراق والكيوي . بعدها طلبت كعكةً صغيرةً أكلتُ نصفها . مع كلِّ طلبٍ كنت أطلبه كنت أسأل والدي السؤال ذاته ضمنياً ، هل نحن أغنياء حقاً؟ وكأنّه يهزُّ رأسه بصبرٍ دون أثرٍ للابتسامة على وجهه ويقول نعم ، نحن حقّاً أغنياء .

في طريق العودة سألته ماذا سيحدث إن ماتت كاترينا ، هل سيرث مالها؟ حاول أن يُخفي الغضب في صوته وأجاب أنّه لا يعلم ، لكنّه يظنّ ذلك .

سألته ماذا سيحدث إن تطلّقا ، قال إنّه لا يريد الحديث عن هذا ، سألته لم لا ، أجاب : تعرفينني ، أنا أؤمن بالخرافات ، ولا أريد حتى الحديث عن أمورٍ مخيفةٍ خوفاً من أن تحدث في الحقيقة ، مثل صاعقة البرق التي أيقظت الوحش .

أتساءل إن كان عليّ أن أذكر أنّه لم يكن لديه مشكلةٌ في الحديث عن موت كاترينا ، إنّما كان لديه مشكلة فقط في

الحديث عن طلاقها ، لكنّني متأكدةٌ من أنّه لاحظ الأمر .

في المطبخ بعض الناس . قلت مرحباً بسرعة . رأيت سارة وكاترينا وفتاةً أخرى . ربما هي صديقة سارة . ركضت إلى غرفتي في الأعلى وأنا متأكدةٌ من أنّني شاهدت لمعةً في عينَي كاترينا ، ولمحة ابتسامةٍ حين ركضت مسرعةً وكأنّها تعرفني . كأنّها لاحظت شيئاً ما ، عادة أفعلها ، فنظرت إليّ كما تفعل الأمهات . شعرت بضيقٍ داخلي وفكرت في أن كلّ شيءٍ يحدث بسرعةٍ كأنّنا في سباق .

وجدت رسالتين من الذئب المستوحد . حملت حاسوبي وتمدّدت على السرير حتى أراقب الباب وأبدّل الصفحة في اللحظة المناسبة . الرسالة الأولى قصيرةٌ نوعاً ما ، يقول إنّه يعيش في الجنوب الغربي ، وتخميني أنّه يعيش في ضواحي لندن ، لكنّه يريد أن يحيط الأمر بالسرية .

أنا متأكّدةٌ من أنّه يعيش في بيتٍ صغيرٍ بائس ، بستائر مغلقةٍ على الدوام . الجيران يلقون عليه التحية وعندما يبتعدون يبتسمون قليلاً . الرسالة الثانية طويلةٌ ، مرسلةٌ في الساعة الخامسة صباحاً ، يقول فيها إنّه لا يستطيع النوم وإنّه يريد أن يكشف نفسه . لا يريد أن يتلاعب بي أو أن يختفي خلف الأقنعة أو خفّة الدم . يريدني أن أعرف أنّ رسالتي جعلته متحمّسًا وسعيداً ، وقال إنّ بها نبرة ، وأنّه يشعر كأنّه كلب سمع نبرةً خفيّةً لا يستطيع البشر سماعها .

دردش مع المئات قبلي ، لكنَّه لم يختبر شيئاً كهذا من قبل . كأنَّه كان يعيش خلف أربعة جدران رمادية أصبحت عالمه كلَّه ، لكنَّ رسالتي أحدثت صدعاً في أحد الجدران وهو تمكن من وضع وجهه فوق الصدع . وعندها صار قادراً على الإحساس بالريح في الخارج ، وقادراً على شمّ الرائحة وسَماع الأصوات أيضاً .

كأنني منحته لمحةً عمّا هو شكل العالم في الخارج . لا عجب أنني متحمّس ، قال .

نظرت بعيداً وفكرت بالصدع وبما عناه . أتساءل إن كان يخدعني للتسلية . إنَّها الخامسة صباحاً ، وقد تناولت ضعف الأقراص التي عليَّ أن أتناولها ، لكنّني لا أستطيع النوم . ربما يمكن أن نمنح بعضنا ما رفض الجميع أن يمنحنا إياه .

لقد تبادلنا الاعتراف بذنوبنا . الجميع يقولون إنّنا لم نفعل شيئاً ، وأنّنا لا نستحق أن نُعاقب ، لكن كلّ منّا أنا وأنتِ سيمنح ذلك للآخر . ثم كتب عن المرّة الأخيرة التي شاهد فيها أختَيه . كان ذلك يوم ذكرى ميلاده قبل أربع سنوات . حضرت الشقيقتان ومعهما هدية . لم يكونا قد دخلتا بيته من قبل ، وقالتا إنَّه يبدو عدائياً . نظرتا إليه بصعوبة عندما توقفتا في الممر . خلعتا معطفَيهما وتكلّمتا قليلاً ، كأنّه بيتهما ، شعر فجأة أنَّه ضيفٌ في بيته ، أو طفلٌ صغير .

دخلتا إلى المطبخ وكانتا تحملان طرداً كبيراً مغلّفاً بورقٍ بنيّ ،

يبدو رسمياً . طلبتا منه أن يفتحه . ابتسمتا لكنّ صوتيهما كان قاسياً . فتح العلبة وكانت تحتوي على مجموعةٍ من الألوان الزيتية وقماش الرسم وفَراش . قالتا إنّهما كانتا في بيت العائلة لمساعدة أمهم وأبيهم في نقل بعض الأشياء ، وأنّهما وجدتا اللوحات التي رسمها حين كان مراهقاً .

نظر إليها ولم يكن لديه أيّة ذكرى حول اللوحات . حاول أن يفتح فمه ليسألهما ، لكن حين لمح العدائية في وجوهيهما عدل عن ذلك ، وعرف أنّهما تملكان خطةً جاهزةً لكنّه لم يعرف ما هي . لم يتجرّأ على فتح فمه لأنّه يعلم أنّهما ستستخدمان كلَّ شيءٍ ضده .

تناولوا بعض الشاي والكعك ولم يتكلّم أحدٌ . ولا بدَّ أنّ الخوف وعدم الإرتياح كانا باديين على الجميع ، لكنّهما تصرّفتا كأنَّ كلَّ شيءٍ طبيعيٌّ ، وهذا جعلهما تُظهِران عدائيةً أكبر .

في نهاية الرسالة بدأ ينسى الحروف ، وظّلت بعض الجمل معلقةً في الهواء من دون نقطةٍ أو فاصلة . فجأةً قال إنّه آسفٌ ، لكنّه عالقٌ في هذه الذكرى ، وربما عليه محو كلِّ ما كتبه لكنّه خائفٌ من أن يبدو مجنونًا تمامًا وإرتيابيّ ، لهذا قرّر ألّا يمحي شيئاً لأنّه يثق بي ويريد أن أعرفه على حقيقته ، حتى وهو في هذه الحالة العقلية المشوشة .

قرأت الرسالة مرةً ثانيةً وبدأت أحبها . أستطيع أن أشعر بالتعاطف مع هذا النوع من التشوّش . إنّه شيءٌ أعرفه . أعني

أنّني لا أذكر عدد المرات التي تهت فيها بذكرياتي . في البداية كنت أعتقد أنّها ستؤدي بي إلى منطقةٍ ما ، ربما أستنتج شيئاً جديداً أو ضوءاً في آخر النفق ، لكن فجأةً بدا وكأنّ الذكرى تعبت في منتصف الطريق ، لأجد نفسي بذكرى جديدة وأفكر بشيءٍ تافه تماماً ، كمشهدٍ في مسلسلٍ تلفزيونيٍّ هزليّ أو جوقة مردّدين في أغنية .

أشعر بالجوع فجأةً ، ولا أشعر بأيِّ حرجٍ من النزول إلى الأسفل حتى وأنا أسمع أصواتاً في المطبخ .

متأكّدةٌ أنّهم جميعاً موجودون في المطبخ ، وأبي أيضاً ، يقف على النافذة منصتاً لسارة ويشرب كأس برتقالٍ طبيعي ، يهزُّ رأسه ويبتسم وينظر إلى الكأس ويرتشف رشفةً جديدة .

سارة تستضيف صديقتها . يبدو أنّها أكبر منها ، وعلى الأغلب هي مصرية . اسمها غريبٌ ، وتبدو خجولة لأنّها همست باسمها همساً بطريقةٍ غير مفهومة . نظرتُ داخل الثلاجة وشعرتُ بالإحباط لقلة الأشياء التي من الممكن أكلها . أفكّر بكلِّ أموال كاترينا أو أموالنا ، وبكلِّ المتاجر الكبيرة وكلِّ الرفوف وكلِّ المخابز الصغيرة ومتاجر بيع اللحم ، وأنا وأبي في المدينة قبل ساعةٍ فقط . كان بإمكاننا أن نملأ عربة التسوق بالكعك والمثلّجات والفواكه والخضراوات ، والخبزِ و«الكرواسُن» والخبز الأسود مع المكسرات والفواكه المجفّفة ، وكلِّ تلك النقانق والجبنة .

الثلاجة تحتوي فقط على علبَتَي حليبٍ وبعض الزبدة والبيض ، وعلى رفوف باب الثلاجة بعض علب الكاتشاب والصويا ، وعلبٌ أخرى من هذا القبيل .

- ماذا تحبّين أن تأكلي؟ سألت كاترينا .

نظرت إلى الثلاجة من دون أن أعرف بماذا أجيبها ، ثم قلت إنّني لست جائعةً كثيراً بصوتٍ ميّت ، كأنّني سأموت حالاً ، ولا بدَّ أنّها انتبهت لذلك ، في الحقيقة كنت أرجو أن تنتبه .

- إذاً كيف كانت؟

- المدرسة تعنين؟

- نعم .

- كلُّ شيءٍ كان جيداً ، أجبت ، المعلمون والطعام والصفوف .

كنت أستمع لأصواتنا لكنّني كنت جائعةً جداً . رأيت بعض البسكويت على الرفّ وفكرت ربما آكل بسكويتاً مع بعض الزبدة . لكنّني لا أجد زبدةً حقيقيةً هناك ، فقط مرجرين . وأنا خجلةٌ من أخذ البسكويت ، لكن عليَّ أن أفعل . أنا فعلاً أتضوّر جوعاً وسأقع خلال دقائق . سحبت علبة البسكويت التي كانت محكمة التغليف ، وتمكّنت من سحب قطعتين وأكلتهما على الفور . شاهدت بعض الفتافيت التي سقطت من فمي على الأرضيّة ، لكنَّ الأرض كانت قذرةً من قبل . فكرت بمسح الفتات بيدي ، لكنّني فكرت في أنّني سأمسح قاذورات الأيام

الفائتة ، فعدلت عن رأيي .

أخبرت كاترينا صديقة سارة باسم مدرستي ، ثم عمَّ السكون في المطبخ . نظرت إلى كاترينا وأنا أمضغ وهي نظرت باتجاهي . فكّرت بكلِّ النقود التي تملكها ، وبالسبب الذي يمنعها من شراء طعام يمكن أن يؤكل . نظرت إلى عنقها ورأيت عليه وحمة ، ثم فكّرت بالأصوات الخارجة من النافذة ، والجنائني في الأسفل ورأسه اليانع والعرق على جبهته .

أخذت أربع قطع من البسكويتِ أو ست إلى غرفتي . لا أعرف عمّا يتحدثون ، ولا أعرف ما الذي يخطّطون لفعله . استلقيت على سريري ولم أضع السمّاعات على أذنيّ ، كما أفعل عادةً ، هكذا أكون مستعدةً في حال دقَّ أحدهم باب الغرفة .

استلقيت بهدوءٍ وأنا آكل البسكويت ، بعد فترةٍ بدا فمي كساحة حرب بعد صمت المدافع . كلُّ شيءٍ في حالة فوضى ، الكعك واللعاب وبعض البقع على الأسنان هنا وهناك . شعرت بالتقزز من التفكير بذلك .

ذهبت إلى الحمام وبحثت عن خيط أسنانٍ لكنَّني لم أجد واحدًا ، وهذا زاد الأمور عن حدِّها . عقلي توقف تماماً ، شربت بعض الماء من الحنفية . سحبت خيطاً من غطاء السرير ونظّفت به أسناني ، شعرت أنَّني أفضل حالاً لأنَّني اعتبرت نفسي مبدعة .

ثم فكرت بالذئب المستوحد ، لقد أصبح شيئاً آخر الآن ، لا يزال كما هو بمخالب وأنياب وعيون صفراء وفرو رمادي ، لكنّه أصبح ذئبي أنا ، يتمدّد قربي على السرير وأربّت على ظهره وأخدشه من خلف أذنيه ، بينما يُغمض عينيه مستمتعاً بلمساتي . لكن في اللحظة التي يظهَر فيها أحدٌ ما في غرفتي ، يرفع رأسه وينظر إليه وهو في حالة تأهُّبٍ ، وعلى أتمّ الاستعداد لإظهار أنيابه إذا لزم الأمر .

كتبت له ، قلت إنّني سعدت برسالته ، وأنّني أشعر أيضاً أنّ صلةً خاصةً جمعتنا ، وتفاهمًا غريبًا يحدث بيننا . للحظة تردَّدت أصابعي فوق لوحة المفاتيح ، وتساءلت إن كنت أعني فعلاً ما كتبته أو أنّني فقط أتلاعب بالرجل . لكنّني لا أعرف ، كأنّني وصلت النقطة حيث تقع نصف الحقيقة ونصف الكذب ، بين الخيانة واللاخيانة .

بدأت بكتابة شيءٍ عن أختَيه والهدية التي أحضرتاها ، لكنّ قلبي لم يكن يريد الكلام عن ذلك . كنت أتكلم بأدبٍ وأنا متأكّدةٌ من أنه سيشعر بذلك وينقلب ضدي ، وأنّ عينيه الصفراوين ستنظران نحوي بطريقةٍ جديدة .

لذا محوت ما كتبته وكتبت شيئاً آخر . قلت إنّني عدت إلى البيت من اجتماع مع أعضاء مجلس الإدارة . كان الاجتماع مُتعِباً ، بخاصّة أنّنيَ لم أنم جيداً بالأمس . قلت إنّني لا أحظى

بنوم جيدٍ في العادة ، لكنَّ ليلة الأمس كانت الأسوأ ، ثم أضفت أنَّ حياته تذكرني بحياتي في بعض الجوانب ، لأنَّني فعلت شيئاً لا يُغتفر بينما بعض من حولي يبرّرون ما فعلته ، وبعضهم الآخر يعرضون عليَّ العلاج والدواء ليختفي شعوري بالذنب ، لكن لا شيء يساعد . وأنّني في هذه الفترة بدأت أدّعي أنَّني شخصٌ سعيدٌ ، وأنَّ الذنب قد اختفى ، حتى لا أشعر بالذنب لخذلان من هم حولي ، والاعتراف بأنّ جهودهم ذهبت مع الريح ، لذا أضع قناعاً برّاقاً على وجهي ، طبعاً أنا بذلك أخذل نفسي ، مثل أيِّ مدمنٍ على التسوق أو المقامرة ، أقول إنَّ ديوني ستنقضي قريباً ، ولكنّ الدين يكبر ويتمدّد فقط .

ربما لهذا أصبح طلب العطف من الآخرين أصعب ، أفكر في أنَّني لو طلبت من زوجي السابق أن يضربني أو يذلني ، فإنّ الأمر كان لربما سيساعدني . كان سيريحني ويوازن من شعوري بالذنب ، لكنّني لم أطلب منه ذلك . ومرَّت الأعوام وفات الأوان ، وأصبح لدينا مخرجٌ واحدٌ فقط .

تركني زوجي من سنتين ، وتزوجت رجلاً من دول البلطيق ، فِعلةً غبيةً أخرى . كنت في مؤتمر ، وذهبت إلى مقهىً وكان هناك ، خلف طاولة الخدمة . وجدته جذّاباً وعلقنا في الحديث . حين عدت إلى بريطانيا بقينا على اتصال ، ووجدت نفسي أدعو هذا الرجل وابنته إلى بيتي ، ووجدتني أطلب منه أن يتزوجني . كلُّ شيءٍ حدث مثل كابوس . أكتب إليك وأشعر أنَّني

أستيقظ الآن وأنظر إلى حياتي على حقيقتها .

حياتي هي ذلك الشيء الذي لا يُغتفر ، وعندما أفكر بذلك الشيء لا أستطيع التحرّك أو الكلام أو التفكير ، وكي أتعامل مع الآخرين كإنسانة طبيعية فإنّ عليَّ الادّعاء أنّني شخصٌ آخر ، شخصٌ لم يفعل ذلك الشيء ولا يستطيع التفكير حتى بفعل شيءٍ مماثل ، وأنا ماهرةٌ في التظاهر . عبر الأعوام تعلمت أن أخدع كلَّ من هم حولي ، لكنّني لم أستطع يوماً أن أخدع نفسي . والجائزة التي أربحها من الادّعاء هي أنّني نسيت من أنا فعلاً ، كما لو كنت تملك شيئاً مخجلاً وأنت معتادٌ على إخفائه ما أن يطرق أحدهم باب غرفتك ، وتصبح بارعاً في إيجاد مخابئ له . لا شك في أنّك في يومٍ ما ستتوقف وتسأل نفسك : في أي خزانةٍ وضعته؟

أتجول مثل زومبي معظم الأيام ، لكنّ أحداً لا يلحظ ذلك ، حتى أنا لا ألحظه . أقدِّم حصَّتي من الأعمال الخيرية ، وأقابل أناساً يخبرونني عن الفائدة التي ستعود عليَّ في مصرف آخر ، ويؤكّدون لي أنّهم سيعتنون بأموالي . أجلس في اجتماعاتٍ معهم وأدقّق في أرقامهم وأهزُّ رأسي وأتظاهر بأنّني مهتمّة . وهذا يجعلني أكثر حزناً وأكثر وحدة ، فهم يجلسون ويرونني أرقامهم ويعتقدون أنّني أريد أن أصبح أغنى ، وأنا لا أريد ذلك . يعتقدون أنّني أريد أن أفعل أشياءً بأموالي . من المؤكد أنّهم

يفكّرون أنّني سأترك لهم مالي حين أموت ، هم الأشخاص الذين أريدهم حولي حين أموت وأريدهم أن يأخذوا مالي ، لكنّ هذا كلّه خطأ .

هم يفترضون ذلك لأنّه أمرٌ شائع ، هكذا تحدث الأمور في العادة ، لكنَّ هذا لا ينطبق عليّ وعلى الطريقة التي آلت إليها حياتي ، ولا يقاربها . وهذا يجعلني أشعر بالوحدة وبأنّني شخصٌ غريبٌ وشاذٌ ، مثل الورم الذي يجب إزالته والتخلص منه في أقرب حاوية .

وبما أنّنا نتكلّم عن المال ، أؤكد لك أنّك لن تحصل على أيّة فائدة ماليةٍ من هذا الأمر الذي أريدك أن تفعله . أنا لا أبحث عن شخصٍ لتوظيفه ، هذا شيءٌ تعلمته من الحياة ، يوجد فارقٌ واضحٌ بين الأشخاص الذين ألتقيهم من أجل العمل ، والآخرين . ولدي حدسٌ كبيرٌ تجاه هؤلاء الذين أحتاجهم للعمل ، والآخرين الذين أعرف أنّهم لا يصلحون لذلك .

أريد شخصاً يخلّصني من مأساتي . كلُّ نفسٍ أتنفسه يعذبني ، كلُّ خطوةٍ ، كلُّ فكرةٍ ، كلُّ كلمة . لقد فعلت ذلك الشيء منذ ستة عشر عامًا ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أجري . لقد تمرّغت بالوحل ، جرّبت الشرب والمخدرات . لماذا كنت أفعل كلَّ هذا؟ كنت أعرف أنّني وصلت إلى الحضيض ، لكنّني كنت أؤمن بكلِّ مقولات كعكات الحظ التي تدور في رأسي . أشياء

سمعتها من أصدقاء كانوا يجلسون على إلى الطاولات يحملون المجلات والولاعات والمنافض وأغلفة الأقراص المدمجة ، يأخذون أنفاساً عميقةً ويردّدون أنّ على الأمور أن تسوء قبل أن تتحسن ، وأنَّ علينا أن نشعر بالسوء الشديد بأقصى مشاعر التعاسة من أجل الشعور بالتحسن . لذا ، كُلّما شعرتُ بالسوء بالشقاء وتدحرجت حياتي نحو الحضيض ، فهي بالتأكيد ستصبح أفضل ، وكلّما بدَّدت أموالاً أكثر ، وخذلتُ أشخاصاً وتركتهم خلفي في الطريق ، فإنَّ الأمور ستصبح أفضل . طبعا هذا لم يحدث . جلست في حيرةٍ وفكّرت أنَّ عليَّ خذلان المزيد من الناس من أجل أن تسوء أموري أكثر ، ربما يوجد شخصٌ لم أخذله بعد ، وهناك درجةٌ من القاع لم أصلها . نعم أيُّها الذئب المستوحد ، هكذا كانت أيامي .

هذا ما يعنيه أن تكون يافعاً : أن لا تفكر بالفاتورة التي عليك أن تدفعها يوماً ما ، أن تشعر في داخلك أنّك ما زلت طفلاً ، وتعتقد أنّ الجميع يظنّون أنّك هكذا ، لأجل ذلك يعاملونك كطفل .

لكن تخيّلي ، لم أصل يوماً إلى الإدراك ، لم أصل أبداً إلى النقاء رغم كلّ الكذب والغشّ والمرمغة في الوحل . كان لديّ عائلتي الغنية بالطبع ، الذين دفعوا الفواتير وتركوني مع شعوري بالذنب ، تأكدوا أن أذهب إلى أفضل العيادات النفسية ودفعوا

أجور كشفيات أغلى الأطباء .

أنجبت طفلةً منذ زمنٍ طويلٍ ، كانت صغيرةً جداً ولم أرغب بتسميتها ، والدها كان موسيقياً ، التقيته حين عملت في محطةٍ تلفزيونية . لم يكن عملاً حتى ، كنت أقرب لمتدربة ، لكنَّه كانَ موجودًا هناك وله لحية .

يعمل مع فرقةٍ موسيقيةٍ لبرنامج حواريّ . يجلس في الطابق العلويّ . هو عازف الغيتار الذي يمكّن رؤيته حين يكون الطابق العلوي في إطار الصورة .

أحياناً ترى رجليه فقط ، وغيتاره وأصابعه البيضاء تعزف بصمتٍ على الأوتار . وقعنا في الحب . يملك بيتاً خارج المدينة حيث قضينا معظم أوقاتنا ، وهناك حملتُ . أصبحت لدينا طفلةٌ وأطلقنا عليها اسماً . كلُّ شيءٍ كان جميلاً وطبيعياً ، كانت بصحةٍ جيدةٍ ولا ترى في عينيها سوى الفضول والثقة . زارنا الناس يحملون الهدايا ، ودعمتني عائلتي جدًا .

بعدها حصل شيءٌ ما .

- نعم ، ماذا؟

حدّقت بالأزرار . أشعر بالملل والتّعب والجوع ، لقد فرغت مني الأفكار . أرسلت ما كتبته ، يستطيع الذئب المستوحد فعل ما يريده به . لا بأس بكوني فظّةً قليلاً وغير متوقّعة وصادمة . في النهاية أنا شخصٌ وصل إلى مرحلة لا يريد فيها الحياة ويريد من يُعاقبه .

فجأة خطرت في بالي فكرة . فكّرت في أن أخبر الذئب المستوحد أنّني اخترت مكاناً لأفعل ما قرّرته ، لكنّني سأوفر هذا لوقتٍ آخر .

توقّفت سيارةٌ أمام القلعة ، كانت سيارة أهل سارة ، المصريين ، جاؤوا لأخذِها إلى البيت ، لكن يبدو أنَّ هناك سوء فهم لأنّهم جاؤوا أبكرَ بساعة . أصرّت كاترينا عليهم بالبقاء للعشاء . يافعان ولطيفان ، الأب يضع نظاراتٍ والأم لديها ابتسامةٌ قلقة . يلبسان ملابس عادية . أمضيا وقتاً طويلاً بالكلام . كنت أعتقد أنَّ الفتاتين ستملّان من حديث الكبار ، ستأكلان بسرعةٍ وتطلبان مغادرة الطاولة والعودة إلى ما كانتا تفعلانه ، لكن ليس هاتين الفتاتين . جلستا على إلى الطاولة ، وحين تحدّث الأهل بأمورٍ لا تفهمان فيها ، أشياء كالسياسة والاقتصاد ، كانتا تستمعانِ بصمتٍ بينما تأكلان شرحة بندورةٍ أو شيئاً ما . وعندما تكلّم الأهل بأشياء تعرفانها كالمدرسة أو العطل أو الرحلات التي ذهبوا إليها ، انخرطتا في الحديث كأنّهما شابّتان ، تُقدّمان الملاحظات والإجابات -لا هذا كان في الصيف قبل الماضي- فيصمت الكبار ويفكّرون ثم يطرحون السؤال مرةً أخرى ، ممم ، هل كان في هذا الصيف أم الصيف الذي قبله؟ متى حدث هذا؟ آه انتظر لحظة ، ألم يكن طوني ووائدا معنا؟ في الصيف الذي كانت حاملاً فيه؟

لدى الفتاتين الحياة بأكملها . لقد عرفتا أنّهما ستجلسان يوماً

ما في مطبخ مع أشخاص آخرين يتكلمون عن الصيف الماضي ، وكما هو واضحٌ فإنَّ الحاضر والماضي بالنسبة لهما واضحٍ تماماً ، كأنَّه بيت اللعبة وهما تعرفان مكان كلِّ شيءٍ فيه ، كلِّ سريرٍ وخزانةٍ ثابتةٌ في المكان الذي وُضعت فيه ، ولا شيء يمكن أنْ يتزحزح . لكن طبعاً الأمور ستتغير ، الناس سيموتون ، الأطفال سيولدون ، سيتزوج البعض وينفصل البعض الآخر .

لكنّ شيئًا ما في الأساسات سيبقيها دائماً كما هي .

أبي جلس هناك أيضاً . هؤلاء هم أصدقاؤه الجدد . ذكرياتهم ستصبح ذكرياته أيضاً . يضحك ويحاول الثرثرة معهم بين حينٍ وآخر بقول شيءٍ ساخر . عندما كانوا يحاولون تذكُّر اسم ما ، كان يبدأ بذكر أسماء عشوائية : ربما ميشيل؟ أو كيثٌ؟ أو رينجور؟ بعد عدة ثوانٍ معدودة يفهمون المزحة .

حين غادرت صديقة سارة التفتت كاترينا إليها ، قالت إنَّ الوقت تأخّر وأنَّ عليها الذهاب مباشرةً إلى النوم . مشت سارة كالنعجة . وانتبهت إلى أنّني لم أشاهد كاترينا تفقد أعصابها بعد . كلُّ شيءٍ مزحةٌ بالنسبة لها . تستطيع أن تخبر سارة أن تذهب إلى سريرها مباشرةً بوجهٍ صارم ، ثم في أقلَّ من ثانيةٍ تعود لإكمال ما كانت تقوله بنبرةٍ لطيفة ، كأنّها تسخر من جدّيّتها .

أصبحنا أنا وأبي وحدنا على إلى الطاولة ، نظرت إليه لفترة ، فشعر بعدم الراحة . نهض وبدأ يرفع الصحون والكؤوس عن

الطاولة ويضعها في آلة غسل الصحون وهو يدندن بأغنيةٍ ما ، أعتقد أنَّها أغنيةٌ صاخبة ، كأنّه واحدٌ من العمال الذين لا تتجاوز أعمارهم السّتة عشر عاماً ، يعملون في مطعم على الساحل حيث يعزفون أغاني مختلفةً كلَّ يوم جمعةً ، وهو يعرف كلَّ الأغاني حتى القديمة منها .

نظرت إليه وتساءلت أين سيكون هذا الرجل بعد عشرة أعوام ، وتساءلت إن كان قد فكّر بذلك هو أيضاً ، هل سيبقى هذا الرجل المطيع بروحه الحرّة الذي يحافظ على نظافة المطبخ ، ويذهب إلى المدينة ليشتري بعض الأدوات كلَّ فترة . وفكرت بجوليا وبابو اللذين قالا إنّ سفري إلى إدنبرا هو أمر يتجاوز الخيال ، وأنَّني أكثر الفتيات التي عرفاها حظاً . فكرت بوجهيهما الأحمرين والبصاق حول شفتيهما الذي كان يتجاوز الخيال أيضاً . وفكرت بذلك الغبي على التلفاز الذي قال إنَّه يريد أن يطلق على هذا العام اسم عام «التفكير السليم» ، بمعنى أنَّه إذا شعرنا أنَّ ما يحدث يتجاوز الخيال فهو ليس حقيقياً في الواقع ، وأنَّ علينا الإنصات إلى غرائزنا جيداً .

ذلك الصوت الذي يرفض أن يخرس داخلنا .

حسناً أيُّها الغبي ، كلُّ هذا يبدو أنّه يتجاوز التصديق ، لذا فهو على الأغلب ليس حقيقيًا . لكن ماذا؟ انتقالي إلى إدنبرا؟ إلى هذا القصر؟ حسناً ، ها أنا ذا ، وها هو أبي ، إنَّنا حقيقيّان .

حدث شيءٌ ما في المطبخ تلك الليلة ، في اللحظة التي نهض فيها أبي وبدأ بوضع الصحون في الآلة . شيءٌ ما في طريقته بالتحرك جعلتني أشعر أنّ هذا وقتيّ ، وأنّ هذا مجرد وجهٍ يرتديه ، وأنّ لديه خطة . لا ، ليس خطة ، على الأقل ليس على المستوى الواعي ، لكنَّ شيئاً ما يحدث في القاع .

أنا متعبةٌ وأفكر بالذهاب إلى السرير . سألني أبي إن كنت قد أكثرت من «الجلوس على الإنترنت» . ابتسمت لأنَّ ترجمته لما كان يقوله لي في لغتنا القديمة بدا في الإنجليزية كنكتة . فتحت فمي لأترجم إجابتي المعتادة في لغتنا القديمة للإنجليزية ، لكنّ الإجابة لن تكون متطابقة ، ستبدو عامّةً جداً .

سألني أبي في أي ساعة عليه أن يقلّني إلى المدرسة ، وأجبت بأنّني لا أعرف . قال إنّه سيسأل كاترينا لأنّها تملك لديها كلّ الأوراق . فكرت بالسنوات التي كنت فيها صغيرةً في سنوات طفولتي ، ربما في سنتي السادسة أو ربما السابعة ، سنواتي الأولى في المدرسة حين كان أبي المسؤول عن كلِّ أوراقي المدرسية . لا بدّ وأنّه كان هو المسؤول ، فلا يوجد أحدٌ سواه . تعرّف إلى صديقات بين الحين والآخر . تناولن الإفطار معنا أحياناً ، فاحت العطور من أجسادهنَّ فيما أحاطت الظلال السوداء بعيونهنّ ، دخلنَ إلى الحمام وعدّلن زينتهنّ وخرجنَ . بالملابس التي ارتدينها في اليوم السابق ، بلوزة سوداء وحذاء بكعبٍ عالٍ .

لا أستطيع أن أتذكر إن كان قد اعتنى بأوراقي ، أو إن كان كسولاً ومهملاً حين كنت صغيرة ، وهذا يزعجني .

ربما أنا من اعتنيت بالأوراق ، ربما لم تهتم المعلمات بأمر أوراقي ، ربما نظرن إليَّ كطفلة مثيرة تستدعي الشفقة من دون أمٍّ ، ولم يتوقّعنَ شيئًا مني كما الأخريات . يؤلمني أنَّني لا أتذكر الحقيقة .

ذهبت إلى غرفتي ولم أجد شيئاً من الذئب المستوحد . خلعت ملابسي وارتديت ملابس النوم . في الطريق إلى الحمام سمعت صوت خطواتٍ على الدرج ، أعتقد أنَّها كاترينا تنزل إلى الأسفل . باب غرفة سارة مفتوح ، سارة في السرير تعدِّل المنبه ، المنبه قديمٌ ووسخٌ ، حتى الأرقام قديمةٌ كأنَّها لقطارٍ قديم .

- مرحباً ، قالت ، هل تذهبين للنوم؟

- نعم ، أجبتها .

توقّفت هناك أسفل الضوء ، شعرت بالدفء كأنَّ الشمس تصبُّ دفئها في شعري . نظرت إلى الصور فوق سريرها ، صور لممثّلين ومغنّين والكثير من الصور لجورج مايكل .

في معظم الصور يرتدي معطفاً جلدياً وبنطالاً من الجينز ممزقٌ في كلِّ الصور . يوجد شعرٌ على صدره وحلقٌ ذهبيٌّ في أذنيه كأنَّه قرصان . من الغريب أن تعلّق صوراً لجورج مايكل نظراً لعمرهافي سنّها!

عصره الذهبيُّ كان في الثمانينيات ، وهي لم تكن حتى قد ولدت . لا بدَّ أنّ كاترينا كانت تستمع إليه ولم يكن لسارة خيارٌ في الأمر . تخيَّلت صورة سارة في بطن كاترينا تستمع لأغنيات جورج مايكل ، وربما ترقص في حفلاته الخارجية في الصيف . وسارة تعلَّمت أن تميِّز صوته وألحانه حتى قبل أن تولد .

في البداية كانت الرؤيا بسيطةً ، ثم بدأت تكبر وتصبح أسرع ، وكان عليَّ أن أنتظر حتى تعبر رأسي . بعدها جلست قرب قدمي سارة على السرير .

- ليس لديَّ أحدٌ ، قلت ، ليس لديَّ من أتكلم معه .

- هل تشتاقين لبلادك؟

- نعم ، أعتقد ذلك .

- تستطيعين الكلام معي دائماً .

مكتبة
t.me/t_pdf

أخفضت رأسي .

- شكراً ، قلت ، لكن هل تحتفظين بسر؟

- نعم ، أعدك ، لن أخبر مخلوقاً .

عدّلت جلستها وشبكت يديها . ابتسمت قليلاً ، من الواضح أنّها تنتظر أن أخبرها بالسر على الفور .

ليس لدي سرٌّ حالياً ، لكن من الجيد أن أعرف ، هذا يجعلني أقلَّ وحدة . طبعاً لدي أبي ، لكن تعرفين أنَّه في النهاية أبي .

أفهم تماماً ، ليس نفس الشيءالاثنين معًا .

تكلمت عن صديقتها المصرية . ذكرت اسمها الذي نسيته في نفس اللحظة ، بدا كأنّه اسم دلع تطلقه على رضيع . تكلّمت سارة عن أسرارهما ، وأنّهما لا تكتبان أسرارهما على الإيميل أو ترسلانه في رسالة على الهاتف ، بل تكتبان رسائل طويلةً على الورق . تكلّمت بصخب وصوتٍ عالٍ لفترةٍ طويلة ، وكانت عيني مصوّبة نحو الباب المفتوح . تكلّمت كثيراً حتى أصابني الصداع .

- أنت حقاً تحبين جورج مايكل ، قلت فجأة .

- نعم .

نظرت إلى الصور وابتسمت . كانت فخورةً بمجموعتها .

- هل تحلمين به .

- أوه ، أوه!

أدارت عينيها وكانت هناك نبرةٌ في صوتها ، كأنّها فهمت شيئاً كبيراً ، وأنّني لا يمكن أن أتخيل كم تحلم به .

- وهل تلمسين نفسك؟

نظرت إليها ورفعت حاجبي . أصبح لونها أحمر وملأت خدّيها بالهواء مستغربة .

- أنت تفهمين ما أعنيه؟ قلت .

- نعم ، قالت أفهم .

- أعني تلمسين نفسك .

- نعم ، حسناً ، لا أعرف .

نظّفت حلقها ، هززت رأسي ونظرت إلى الصور .

- هل تعرفين كيف تفعلين ذلك؟ قلت .

- نعم .

لا أستطيع أن أتذكر متى فعلت ذلك ، ربما كنت في سنّك .

نظرت إليها بوجه فارغ . أعتقد أنّ عليها أن تثق بي . لا أفهم لماذا يستغرق الأمر كلَّ هذا الوقت ، لا شيء يوحي بأنَّ سرّها لن يكون بأمان معي . كنت أنوي أن أقول «ربما كنت أكبر منك قليلاً ، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة» ، لكنّني فجأةً لم أعد أذكر كم تبلغ من العمر .

- لكنّني أذكر شيئاً واحداً ، قلت ، عندما فعلت ذلك للمرة الأولى كان الإحساس غامراً . أتذكّر أنّني فكرت أنَّ هذا شيءٌ يفعله كلُّ الناس ، وأنّني لست الوحيدة التي تقوم بذلك . وهو ليس سرّي أنا وحدي .

ضحكتُ . ابتسمت سارة ، وكان هناك حبات لؤلؤ من العرق تزيّن جبهتها .

- أول مرة عرفت كلَّ هذا لم أفهم لماذا يفعل البشر شيئاً آخر في حياتهم ، لماذا يذهبون إلى العمل أو المدرسة ، تعلمين؟

- لم أفهم لماذا لا يجلس الناس في بيوتهم طوال اليوم في السرير ويفعلون ذلك .

هززت رأسي غير مصدِّقة .

صمت سارة بدأ يزعجني ، أنا أفتح لها قلبي وهي تصمت

فقط ، لذا حدَّقت بها . في النهاية عليها أن تقول شيئاً .

- أنا لست مرتاحةً في الحديث عن هذا ، أعتذر .

- لماذا؟ ظننتُ أنّنا صديقتان ، وأنّ بإمكاننا أن تثق واحدتنا بالأخرى .

- أعلم ، ليس أنَّني لا أثق بك ، صدقيني ، لكنّ هذا خاصٌّ جداً .

- هذا؟

نظرت إليها كأنَّها قالت شيئاً غير عاديّ ، فأخفضت رأسها .

- شخصيٌّ جداً ، قالت .

- أعتذر ، قلت .

- لا ، لا تعتذري .

- لا ، لكن فعلاً ، في بلادي القديمة ليست لدينا أيَّة مشكلة في هذا النوع من الحديث ، الحديث عن الجنس . الجميع يفعل ذلك ، نتكلم عن ذلك طوال الوقت ، إنه حديثٌ طبيعي .

- نعم ، أعرف .

- أعتذر ، أنا أثرثر بالأمر كأنّني في بلادي مع أصدقائي هناك .

- أعتقد أنّك محقّة ، الأمر ليس هكذا ، إنه فقط ، لا أعرف كيف . . .

- إنه أمرٌ طبيعي ، لا شيء يستدعي الخجل . الجميع

يفعلونه ، حتى من يتصرفون كأنَّ الأمر لا يعنيهم ، هم أيضاً يتمدَّدون في أسرَّتهم .

ضحكتُ وأخفَضتْ هي رأسها .

- حسناً ، قلت ، تصبحين على خير .

- تصبحين على خير ، أراك غداً .

ذهبت إلى الحمام ونظفت أسناني بفرشاتي الكهربائية الجديدة ، وشعرت بالغثيان حين فكرت بتلك الفرشاة القديمة ورأسها الرماديّ المتعفّن . ثم جلست على كرسيّ الحمام وفكرت بما قلته لسارة ، وإن كنت جديَّةً في كلِّ ما قلته ، أو أنَّني كنت أمازحها مزحةً سخيفة . في الحقيقة لم أكن متأكدةً مما كنت أفعله .

لا أصدق أنَّ الأمر يبدو كأنَّه حدث منذ وقتٍ طويل . عليَّ أن أعدَّ على أصابعي كطفلة ، اليوم هو الثاني والعشرين من أيلول . آب ، وتموز ، وحزيران ، وأيار ، ونيسان ، مضت أربعة أشهرٍ وبضعة أسابيع .

أذكر رائحة الطين الحار عندما أعود إلى البيت من المدرسة ، والنرجس في الحديقة ، الأزهار الصفراء الصغيرة ، كأنَّها حياةٌ أخرى .

مَكثت هناك لفترةٍ طويلةٍ بعض الشيء ، تعوَّدتُ على وجودها . كلَّ بضعة أسابيع ، يوم الجمعة مساءً ، تأتي ومعها

بعض الهدايا ، معظمها من السوق الحرة ، عطوراً ، حلويات ، زينة ، أحياناً كتباً وأقراصاً مدمجة من بيتها ، أشياء تبتاعها من المتاجر خصيصاً . كانت تتكلم عما أحضرته كأنّها في محاضرة . أتذكر القرص الكوميدي عن مالك الفندق ، لديه شاربان ويبالغ في كلِّ شيء . جلست كاترينا على ذراع الكنبة وأعطتني القرص المدمج . نظرت إليه وشكرتها بأدبٍ وقلت إنّني سأشاهده في أقرب فرصة ، ثم وضعته أمامي على الطاولة . عندها سحبت القرص ونظرت إليه عن قربٍ من الخلف والأمام كأنّها لم تر قرصاً مدمجاً من قبل ، كأنّه شيءٌ مثيرٌ للفضول كان في قاع البحر .

ثم أخبرتني عن نفسها عندما كانت صغيرة ، وكيف كان هذا ما شاهدته إضحاكًا في حياتها .

استخدمت كلمةً لم أفهمها لوصف الكوميديا ، ولم أرغب بسؤالها عمّا تعنيه ، ففي كلِّ مرةٍ كنت أسألها فيها عن شيءٍ أشعر بإذلال كأنها تملؤني من الأعلى للأسفل ببصاقها . الشعور بالإذلال كان مذلاً بحدّ ذاته ، أعني ، لماذا لم أشعر أفكّر بأنه أمرٌ عاديٌّ وأشعر بالراحة إزاءه؟ أن أسأل امرأةً إنجليزيةً عمّا تعنيه الكلمة ، كان هذا أمراً عادياً جداً ، ولكن لماذا كان مهمًا جدًا بالنسبة لي؟ هذا جعلني أشعر أنّني شخصٌ غريب .

فهمت من نبرة صوتها أنه نوعٌ رخيصٌ من الكوميديا ، قالت إنّها كانت مجنونةً به ، وأنَّ والديها أهدياها شريط الفيديو إيّاه

بمناسبة عيد ميلادها ، وأنّها شاهدته مرةً تلو المرة ، وأنَّ الكوميديا فيه كانت بريطانيةً جدًا .

عندما عادت إلى قصرها حضرته مع والدي عدّة مراتٍ عديدة . ولا أذكر أنّنا ضحكنا كثيراً ، لكنّ الضحك المبطن المرافق داخلنا كان عالياً جداً بحيث أنّه لم يكن مهماً إن ضحكنا أم لا .

أحضرت موسيقى وأفلاماً لم يتسنّ لي أن أحضرها كلَّها . أحببت بعض الزينة والعطور ، وأخذت بعضاً منها إلى المدرسة وأريتها لأصدقائي . أحياناً كانوا يحبونها ، وأحياناً يفكرون معي في الشخص الذي سيحبُّ هذا العطر . وإن كان شخصاً أحبّه كنت أعطيه إياها ، أما إن لم أكن أحبّه فكنّا نبيعها بسعرٍ جيدٍ ونذهب لشرب القهوة في مكانٍ ما .

مرّةً حدث شيءٌ محرجٌ جداً ، كاترينا في الغرفة مع أبي ، وجوليا وبوبا معي ، نتأنّق للذهاب إلى حفلة . كنا في المطبخ نشرب الماء حين دخلت كاترينا بسروال رياضةٍ أزرق وبلوزةٍ بيضاء شفافةٍ . كانت المرة الأولى التي تقابل فيها صديقايَّ اللذين عرّفا عن نفسيهما . عندما توقفت أمام جوليا استطاعت تمييز الرائحة وذكرت اسم العطر . نظرت جوليا إليَّ فقلت إنّ جوليا استعارت العطر مني لأنّها أحبته كثيراً .

شعرنا أنا وجوليا بالخجل ، لكن عندها نظرت إليَّ كاترينا باستغرابٍ لأنَّني فسّرت الأمر ، فشعرت بخجلٍ أكبر ، كان هذا

الخجل أسوأ من الشعور الذي شعرته من قبل .

عندما خرجنا قالا إنّها تبدو لطيفةً وجميلة ، لكن كلُّ ما كنت أفكر فيه كان أنَّها أحضرت سروال الرياضة خاصّتها ، وأنها ستنتقل لتعيش معنا وليس بيدي حيلةٌ تجاه ذلك .

ثم تخيّلت جوليا وبوبا في بيتنا يتحدّثان مع كاترينا ويصبحان أصدقاء معها ثمّ يصادقانها ، بينما أجلس أنا وأشعر بالرعب ولا أستطيع تفسير لماذا لستُ مولعةً بكاترينا مثلهما .

كأنَّه حلمٌ ، كأنّهما كانا يمثّلان في غرفة نومه . الجو ربيعيٌ ، ونحن في السنة قبل الأخيرة من المرحلة الابتدائية ، لكنّنا قضينا وقتاً طويلاً مع طلاب السنة الأخيرة ، لدرجة شعرنا فيها أنّنا في السنة الأخيرة أيضاً . الكثير من الأحداث ، والكثير من الحفلات ، وأصدقائي يحسدونني لأنّ دماغ والدي في مكانٍ آخر وأستطيع الخروج والدخول في الوقت الذي أريده ، الأمر الذي جعلني أشعر أنَّني كبرت .

في ذلك الوقت وقعت مشكلةٌ بين الأولاد في مدرستنا والأولاد في المدرسة الأخرى . أحد الأولاد فقد عينه ، وجاءت الشرطة وبدأت بطرح الأسئلة . سرت شائعاتٌ عن مشكلة في الغابة ، والجميع متورط فيها . الهواتف تُصدر أصواتاً معلنةً عن وصول رسائل نصيَّةٍ طوال الوقت . الفتيات بدأنَ بالبكاء فجأةً ، وخرجنَ من الصف ، استطعنا رؤيتهنّ من النافذة . يوجد دائماً

من تهمس بأنّهم هدّدوا صديقها ، وربما يُقتل في أيّ وقت . في أحد الأيام سمعنا أولاداً يصرخون ويهلّلون في ساحة المدرسة ، يركضون كالمجانين ويخلعون قمصانهم ويركضون ذهاباً وإياباً .

قال أحدهم إنّ العصابة وصلت لاتفاقية وأنّ السلام قد حلّ ، حتى المعلمون بدا عليهم الفرح ووقفوا يشاهدون الأولاد يصرخون بجنون . رأيت فتاةً تقبِّل أحدهم ، وبعدها بقليل قبَّلت شخصاً آخر ، ثم مرَّ الأول بجانب الثاني ونظراً لبعضهما وضربا كفَّيهما من دون أن ترى الفتاة شيئاً .

سمعت المعلمة تقول إنّ لكلٍّ هذا عبرة يمكن تعلُّمها ، فالأطفال عقدوا اتفاقية سلام من دون تدخّل من الكبار ، وهذا يعني أنّه سيدوم لمدة أطول .

ثم جاءت ليلةٌ كانت كاترينا فيها تتناول العشاء معنا ، كنّا نجلس على إلى طاولةٍ في الخارج بينما يخدم الزبائن أنفسهم على طاولة الخدمة ويضعون المال في صندوق المحاسبة ويأخذون الباقي . سيجي يجلس قرب طاولة الخدمة ويراقب الأمر . كانت فكرته في الأصل أن يفعل ذلك ، لبضعة ساعات فقط .

جلست معهما ، قالت كاترينا إنّها لن ترانا لبضعة أسابيع لأنَّ الصّيف سيأتي ، وفي الصيف تُقيم ابنتها أسبوعين متواصلين عند كلٍّ من أبيها وأمها بدلاً من أسبوع واحد . قالت كاترينا إنّها ستفتقدنا كثيراً ، وقلت شكراً . بعد ذلك حلَّ صمتٌ مزعجٌ على الطاولة ، لذا سألت كاترينا إن كانت سارة

تحب البقاء أسبوعين كاملين بدلاً من أسبوع واحد ، وأضفت أنَّني كنت سأجنُّ لو أنَّني أذهب إلى بيت ثمّ أعود إليه كلَّ أسبوع . ثم حلَّ الصمت ثانية . في ابتسامة كاترينا أمرٌ غريبٌ . عندماً نظرت عن قربٍ لم تكن ابتسامة . قلت إنَّه من الجيد أنَّ سارة قادرةٌ على المحافظة على علاقةٍ جيدة مع كِلا والديها حتى بعد طلاقهما ، وأضفتُ :

- ليس مثلي أنا .

ضحكت قليلاً ونظرت إلى أبي ، لكنَّه نظر بعيداً ، بدا كأنَّه يحاول سماع شيءٍ من بعيد ، وأنّه يريدنا أن نصمت . أبي وكاترينا يمسكان يدي بعضهما البعض ، يداهما المتشابكتان تبدوان ككتلةٍ من اللحم والعظام والأوردة والمفاصل المسالمة .

- أنتِ محقّة ، قالت كاترينا .

صوتها بدا ضعيفاً ومظلماً . ثم تكلمت طويلاً عن الطلاق وكم هو مؤلم ، وأنّها حاولت أن تبقى على صداقةٍ مع والد سارة ، وأنَّ سارة تتقبّل الأمر . كانت صغيرة جداً حين تطلقا لدرجة أنّها لم تدرك ما حدث .

هززت رأسي وتركتها تتكلم ، ثم اعتذرتُ ونهضت .

عندما وقفتُ نظرت إليَّ كاترينا بعينين دامعتين وسألت إن كان بإمكاني أن أضمَّها . ضممنا بعضنا البعض واستطعت أن أشمَّ رائحة عطرها ، ولم أستطع تمييز الرائحة ، فهو ليس كأيِّ عطرٍ أهدتني إياه ، شعرت بالإهانة لأنَّها لم تهدني ذلك العطر

الثمين الذي تضعه ، من الواضح أنّه لم يكن يليق بي .

ثم قالتُ شيئاً لا أستطيع تذكّره ، وركضتُ إلى الداخل كأنّني تأخّرت على شيءٍ ما .

مضت ساعاتٍ معدودة ، واستحممت ، فيما أبي وكاترينا لا يزالان جالسين في الظلام على ضوء شمعةٍ يتحادثان .

خرجت بعد ذلك بوقتٍ قصير ، استخدمت الباب الخلفيّ حتى لا أضطرَّ لإلقاء التحيةَ مرةً أخرى . لا أذكر ما فعلته تلك الليلة أو بمن التقيت ، لكن حين عدت كان البيت معتماً ، وباب وغرفة أبي بابها مفتوحاً . ذهبت إلى المطبخ وشربت كأساً من الماء . عندما أغلقت الصنبور ووضعتُ الكأس سمعت صوتاً غريباً . في البداية اعتقدت أنها قطةٌ ، لكنّني عرفت لاحقاً أنّه أبي وأنّه يبكي . لم يكن بكاءً عادياً ، يبكي بقوةٍ وينوح . من المؤكّد أنَّه تنبّه إلى أنَّ باب غرفته مفتوحٌ وأنَّني عدت وأستطيع سماعه ، لكنّه لم يكترث .

تسمّرت في مكاني ، لم أعرف إن كان عليَّ فعل شيءٍ ما . هل يتوقّع مني أن أذهب إلى هناك وأواسيه وأسأله عمّا حدث . شعرت أنَّني لا أستطيع فعل ذلك ، ولا حتى بعد مليون سنةٍ ، وأنَّ هذا سيكون خطأ .

لكنّه ترك الباب مفتوحاً ، وهذا يعني شيئاً . تساءلت عمّا يحاول أن يخبرني به ، لكنّني حين جلست في سريري في الظلام تنفّست بشكلٍ طبيعيٍّ وأقنعت نفسي أنه على الأغلب

T

لم يحاول أن يقول شيئاً ، وأنّه لم يتوقع أن أقف هناك وأشمَّ رائحة الدخان وأسمعه يبكي ، ربما مُحيت من تفكيره تلك اللحظة تماماً .

لا أعتقد أنَّني رأيته يبكي من قبل ، هناك بعض اللحظات حين كنَّا نشاهد فيلماً حزيناً رأيت فيها عينيه تدمعان ، أو انهمرت بعض الدموع على خدِّه ، عندها كان يبتسم بغرابة ويمسحها فوراً ، لا شيء أكثر . لكنَّ هذا مختلفٌ ، لا أصدق أنَّ هذا حصل منذ أربعة أشهر فقط .

هناك طرقاتٌ على الباب . أبي يقف بملابس النوم ، قال إنّ علينا الانطلاق في التاسعة والنصف غداً ، يتكلم بلغتنا القديمة . نظرت إلى ركبتيَّ أسفل شرشفي الأزرق ولم أرد ، قال تصبحين على خير بالإنجليزية . رفعت رأسي ورددت عليه بصوتٍ عالٍ ومبتهج . ابتسم قليلاً وأقفل الباب .

وجدت رسالةً طويلةً من الذئب المستوحد ، بطول ستِّ صفحات . قررت أنّها رسالةٌ أطول من أن أقرأها الآن ، فالوقت تعدَّى منتصف الليل .لذا أقفلت حاسوبي ووضعته أسفل السرير وأطفأت الضوء . أعرف أنّني سأنهض ، مع ذلك انتظرت عشرين دقيقة ، لا أعرف لماذا .

ستُّ صفحات ، لا بدَّ أنّها استغرقته وقتاً طويلاً . حسناً ، لا يبدو شخصاً يعمل عملاً متطلباً ويعود إلى البيت متعباً آخر الليل .

هو سعيد جداً بتلقّي رسالتي . يعرف أنّنا يناسب أحدنا الآخر . كلانا يعرف ما هي التّضحية ، نعرفها أفضل من بقيّة البشر . هو متشوّقٌ لسماع قصتي ومعرفة الشيء الذي لا يمكن غفرانه ، أستطيع إخباره بالأمر حين أشعر أنّني مستعدة .

قال إنّه سيكون سعيداً لمعاقبتي ، فهو يعلم أنّ هذا سيكون مخرجاً لكلينا ، وأنّ لا أحد في العالم يعرفه ، والجميع يلومونه على كلّ شيء .

لقد ولد ككبش فداء .

في بقية الرسالة تكلّم عن جاره في آخر بيتٍ سكن فيه ، بيتٍ مطلٍّ على البحر ، أجمل مكان سكنه على الإطلاق . هذا الجار رجلٌ مسنّ يعيش في بيتٍ كبير ، لم يرغب بإخباري عن سنّه واسمه . وكان متأكداً من أنّني سأتفهم لماذا حين أسمع بقية القصة .

كان لديهم في الحيّ نظاماً للتخلص من القمامة ، تُجمع القمامة صباح كلّ خميس . الطريق بين البيوت ضيقةٌ جداً ولا تمكّن شاحنة جمع القمامة من العبور فيها ، لذا يجرُّ الجميع عربات القمامة نحو الشارع الرئيسي يوم الأربعاء ، وعندما يُفرِغون العربات يعودون لجرِّها مرةً أخرى نحو أعلى الهضبة . العربات الفارغة خفيفةٌ وليست هناك مشكلةٌ في الأمر . لكن في كلّ مرةٍ مرَّ بها العجوز ببيت الذئب المستوحد أسقط شيئاً ما ، غلاف حلويات أو بقية طعام ، قشرة برتقالة أو منديلاً ورقياً

مطويّاً وجافّاً وأصفر ، ويعلم الله كمية الجراثيم التي يحتويها . وهو لا يملك خياراً آخر . عليه التقاطها وإلقاؤها بعيداً عن عتبة بيته ، وإلا ستظلُّ هناك طوال اليوم ، وسوف يظنُّ الناس أنَّه هو من يلقي بالقمامة .

أخبر الرجل أنّه تعب من جمع قمامته كلَّ أسبوع ، وطلب منه بلطفٍ شديدٍ أن ينتبه وهو عائدٌ لما ألقاه في الطَّريق إلى الأعلى . هذا ليس صعباً ، أليس كذلك؟ فقط انتبه وأنت عائدٌ إلى بيتك القديم المُظلم ، فقط اسمح لعينيك الحليبيّتين العجوزتين أن تتنشّطا قليلاً وهما تحدّقان فوق عشب الذئب المستوحد لترى ما ألقيت به هذا الأسبوع وتتلطّف برفعه .

ثم قال إنّ عليَّ أن أرى النظرة التي ارتسمت على وجهه عندما أخبره بذلك ، لم يكن هناك سوى الازدراء . في البداية بدت على وجهه المتغضّن متعةٌ ما ، كأنَّ كلَّ شيءٍ كان مزحة ، قال إنَّه سينتبه لقمامته في المرة القادمة بأدبٍ وسخرية .

في بيت العجوز استطاع الذئب المستوحد أن يرى من بعيدٍ الأكياس الورقية مكدسةً في كلِّ مكان ، والمصابيح القديمة ترمش في السقف ، لم يكن العجوز في موضع يسمح له بالاستخفاف به .

قال إنّ العجوز أغلق الباب قبل أن يُنهي جملته ، وكلُّ ما فعله هو الوقوف هناك .

لكنه قرر حينها أنّه فعل الصواب وعاد إلى بيته ، لم يحدث شيء . كلّ يوم خميس يجد قطعة قمامة جديدةً في حديقته ، شعر بأنّ القمامة أصبحت تزداد ، يمكن أن يرى قشرة موزة كأنّها قضيبٌ ملقىً على العشب ، والكثير من تذاكر الحافلات أو المواقف العامة . لم يجد كميةً كبيرةً من القمامة في أيّ مرّة ، لو حصل ذلك لأمكنه الاتصال بالشرطة فوراً ، فقط غرضين أو ثلاثة كلّ أسبوع ، كأنّ هناك من يترك له هديّةً أسبوعيّة ، عود قطنيّ نظف به العجوز أذنيه هديّةٌ مثلاً .

قرر أن يدع العجوز يتذوق من كأسه . كلما وجد شيئاً على العشب لفّه في كيس بلاستيكيٍّ وألقى به على عتبة العجوز . كان بإمكانه رؤية الكيس من نافذته والريح تلعب به من جهة لأخرى ، أحياناً يظلُّ الكيس هناك لأيام . رأى العجوز يلتقطه عدّة مراتٍ بوجه محايد ، وهو ينظر إلى بيت الذئب المستوحد الذي كانَ مختبئاً خلف الستائر .

لم يختلف شيءٌ ، قمامةٌ كلّ أسبوع . بعد عدّة أشهر معدودة اتصل بالشرطة وأخبرهم بالأمر . استمع الشرطي ، ثم قال إنّه من الواضح أنّ الجيران يضعون الكثير من القمامة في العربة ، لهذا أسقطت الريح بعض الأشياء هنا وهناك ، لا بدّ وأنّ جرَّ العربة صعبٌ على العجوز ، ربما تستطيع أن تساعده في ذلك .

هذا سيجعلك صديقاً لجارك وتنتهي الأمور على خير .

لاحظ الذئب المستوحد أنَّ الشرطيَّ كان كبيراً في السنّ ، لهذا تعاطف مع العجوز . بعدها سأله الشرطيُّ عن اسمه ورقمه ، وعندها أغلق الذئب المستوحد السّماعة لأنّه عرف أنّهم سيحقّقون بشأنه .

إذاً فعل كلَّ شيء ، لكنَّه اصطدم بجدارٍ مسدود ، هكذا كان يشعر ، ثم بدأ يدرك أنَّ موضوع القمامة شغله بالكامل ، من اللحظة التي يجمع فيها قمامته ، ثم يراقب ما ألقاه العجوز في حديقته ، إلى أن يضعه في كيس ويعيده إلى عتبة العجوز ، ثم يختبئ خلف الستائر . لكن لا يبدو أنَّ الأمر يزعج جاره على الإطلاق ، الأمر لا يترك أيَّ أثرٍ على حياته ، تستطيع أن تلحظ ذلك على وجهه وعلى هيئته حين يحني ظهره ليلتقط الكيس البلاستيكي الملقى أمام العتبة ، لا شيء ، هو فقط يتأثر بينما يمضي العجوز أيّامه من دون الشعور بشيء ، هو البريء الذي يتعذّب ، بينما المذنب لا يشعر بشيء ، لم يكن الأمر عادلاً .

كان ذلك في تشرين الثاني حين استيقظ ونظر من النافذة وكان كلُّ شيءٍ أبيض . لا بدَّ أنَّها أثلجت طوال الليل ، المنظر جميلٌ جداً ، كأنه عالمٌ جديدٌ مطليٌّ بأكثر الألوان براءة . فتح النافذة وكانت تلك الرائحة بانتظاره ، رائحة بللٍ وجفافٍ ونظافةٍ في الوقت نفسه . سمع صوت خرخرةٍ من بعيدٍ وعرف أنَّها سيارة نقل القمامة ، فتذكر أنه ذلك اليوم من الأسبوع . ارتدى معطفه البيتيّ وجزمته وخرج . نظر إلى العتبة فانتبه لوجود

بعض الحفر هنا وهناك فوق السطح الأبيض الناعم . خطا بعض الخطوات على مضض ، فهو لا يريد أن يدمّر ذلك المنظر الأنيق للسطح الذي يبدو كالقشدة البيضاء ، لكن عليه أن يعرف . ذهب إلى حيث الحفر ووجد بقايا كأس بلاستيكية مجعلكة .

حمل الكأس الذي يحتوي على ثلج ذاب بين أصابعه ، وتوجه نحو بيت العجوز ودقّ الجرس .

عندما فتح العجوز الباب حمل الكأس البلاستيكية وحطّمها بين يديه وقال إنّه تمادى كثيراً . رفع صوته وشعر أنّه على حق .

لكن ما الذي حدث في الحقيقة؟ لقد قال ما يجب أن يُقال ، ثم استدار وعاد إلى بيته . ترك الكأس البلاسيتيكة على عتبة العجوز ، ربما ، فقط ربما ، رماها في وجه العجوز ودخلت البيت .

وما الذي حدث بعد ذلك؟ وُجد العجوز ميتاً داخل بيته في اليوم التالي ، يبدو أنّه أغلق الباب وسقط ميتاً ، كان قلبه ضعيفًا أدخله إلى المستشفى مرّات عديدة .

لكن ليس هذا هو الموضوع ، الموضوع كيف ظهر كلُّ الجيران فجأةً وشهدوا أنّهم سمعوا كلَّ شيء ورأوه ، ولديهم قصة مختلفة تماماً ، مختلفةً بحيث أنّه جلس يستمع لهم بفم فاغر .

لا أحد من الجيران يعرف شيئاً عن إلقاء العجوز للقمامة في كلِّ مكان ، لا ، بالعكس ، شككوا جميعاً بأن يكون العجوز قد رمى شيئاً خلفه ، فهو معروفٌ لديهم بالسيد مُنظّم ، ولو أنّه رمى القمامة وهو يجرُّها لكان رماها أمام بيوتهم أيضاً ، أليس كذلك؟

وهو لم يفعل شيئاً كهذا ، ثم تركوا الاستنتاج يطفو على السطح وحده ، هل يدّعي هذا الرجل أنَّ العجوز المسكين ألقى القمامة أمام بيته وحده؟ ألا يفاجئكم الأمر ، أيها الشرطي ، إلا إذا كان هذا الرجل ، أنت تعلم ، كيف يمكن أن نقولها؟

مهزلة! الأمر كان ليكون مضحكاً لو أنه لم يتعلق بموت العجوز . لا ، لم ير الجيران أيّة قمامة ملقاةً هنا وهناك ، لكن ذلك الصباح من صباحات تشرين الثاني ، بينما كان العالم غارقاً في البياض سمعوا ورأوا كلَّ ما حصل أمام عتبة العجوز!

وهذا المريض نفسياً يقف هناك ، يصرخ ويهدّد العجوز اللطيف البريء المسكين الذي لم يفعل أيَّ شيءٍ في أيامه سوى إطعام العصافير الصغيرة والتجوُّل وهو يرفع قبَّعته لكلِّ من يصادفه .

يبدو أنَّ العجوز قد أعطى إشارةً للمريض النفسيِّ ليتوقف ، كأنَّه قال أرجوك ارحمني ، أنا رجلٌ مريض ، لكنَّ المريض النفسيَّ ظلَّ يصرخ ويهدّد بيده التي تشبه يد اللحامين .

آه ، نعم ، قال الذئب المستوحد ، فجأةً تكلم الجيران بصوتٍ واحد! معظمهم لم يكن يعرف اسمه ، لكن يبدو أنَّهم يعرفونه باطنًا وظاهرًا . وربما يخبرون الشرطة أنّهم لم يتفاجأوا على الإطلاق ، فقد أرهب المريض النفسيُّ الجيران منذ سنوات . توقّعوا حدوث شيءٍ كهذا ، بل هم يلومون أنفسهم الآن لأنَّهم لو يتصرفوا ويفعلوا شيئاً حيال الأمر مسبقاً ، لظلَّ العجوز المسكين

في أمانٍ الآن . المشكلة ، قال الذئب المستوحد ، أنَّني عندما وقفت على عتبة العجوز كنت أبكي ، هذا ما أذكره بشكلٍ قاطع ، الدموع تدحرجت على خدّي . كنت في حالة يأسٍ كاملة ، شعرت بعدم الحيلة . أتذكّر أنَّني وقفت هناك وقلت لَه أنا أستسلم ، سأركع على ركبتيَّ وأرجوك أن تتوقف . لم يتبقّ لدي أي إحساس بالكرامة . إن لم تتوقف عن موضوع القمامة هذا فسأرحل إلى مكانٍ آخر ، وهذا يؤلمني لأنَّني أحبُّ المكان هنا ، أحبّه أكثر من أيِّ مكانٍ عشت فيه من قبل لأنَّ أمي رأته قبل أن تموت بأسابيع . التفتت إليَّ وقالت أخيراً أنا في بيتي بعد حياةٍ طويلةٍ من عدم الاستقرار .

ثم أضاف ، لماذا لم يتذكر أحدٌ منهم الدموع التي تدحرجت على خدّي؟ لماذا لم يسمع أحدٌ منهم نحيبي ورجائي؟ لماذا تحولوا إلى صمٍّ وبكم فجأة؟

قال إنَّه استسلمَ الآن ، كان ذلك قبل سنواتٍ حين كان لا يزال يعتقد أنَّه يستطيع أن يفعل شيئاً في حياته ، وأنَّه يستطيع التعامل بما لديه .

لكنه كبش الفداء دائماً ، ولم يملك ما يفعله إزاء الأمر . الآن بات يعرف أنّ الناس يميّزونه كمريضٍ نفسيٍّ حتى قبل أن يفتح فمه ، قبل أن يُعرِّف عن نفسه . نعم ، قبل أن يعرف أحدٌ في ذلك المكان النَّعس على شاطئ البحر ما هو لون عينيه يعرفون أنَّه كبش فداء . تستطيعين التخيل ، حين أرتكب تلك الجريمة

بمساعدتك وبإذنٍ منك ، عندما يأتي دوري لفعل شيءٍ لا يغتفر ، تستطيعين أن تتخيّلي كم سيكون مريحاً بالنسبة لي ، عندها سأكون في بيتي بعد حياةٍ كاملةٍ من عدم الاستقرار .

ما زلت لا أستطيع النوم ، أُشعل النّور وأنظر إلى الجدران ، أحدّق في ورق الجدران وأستطيع سماع صوت كاترينا تسألني إن كنت أريد تغيير ورق الجدران ، أو الكاتلوج ، أو أنّنا ربما نستطيع الذهاب للتّسوق لنبحث عن ورق جدرانٍ أو نشتريه عبر الإنترنت . وأكاد أسمع صوتي وأنا أقول ، لا ، لا بأس ، كأنني آلةٌ ، فينطفئ ضوءٌ في وجهها . لا أستطيع تسمية ذلك بخيبة الأمل ، لكن هناك ضوءٌ بدأ يلمع ثم انطفأ ثم تضيف لا عجلة ، فقط أعلميني إذا غيرتِ رأيك .

هذا البيت هادئٌ جداً . في العادة أضع الموسيقى طوال اليوم ، لكن حين أنام عليَّ أن أطفئها لأنّها تجعلني متنبّهةً أكثر . أجلس هناك وأتساءل ما هي الأغنية القادمة . جرّبت الاستماع إلى ألبوماتٍ أحفظها ، لكنّ هذا لم يساعد .

حين أطفئ الموسيقى يصبح المكان هادئاً جداً . الأمر سيرياليٌّ ، كأنني ميِّتةٌ! كأنني متُّ وأنا نائمةٌ واستيقظت وكان كلُّ شيءٍ على حاله . فقط لا أحد يراني أو يتكلّم معي ، بل يركضون باتجاه غرفتي وينحنون على سريري ، وأبي يحاول أن يفحص نبضي ويبدأ بالصراخ على الأغلب بلغتنا القديمة .

عندما كنت أصغر سنًا ولا أستطيع النوم ، كنت أقضي تلك الليالي أفكّر بأمي . في الأوقات المتأخرة من الليل تأتيك تلك الأفكار التي تتغلب عليك . واحدةٌ من تلك الأفكار كانت أنَّ أمي أيضاً لا تستطيع النوم ، في البداية فكّرت أن ذلك سخيفٌ ، لكنّني تذكرت وثائقياً على التلفاز يظهر فيه شخصٌ ينهض في الليل فجأةً كأنّه استيقظ من كابوسٍ لا يذكره ، ثم ينظر إلى المنبِّه ويعود إلى النوم مرّةً أخرى . في اليوم التالي يخبره أحدهم أنّ أخاه مات في تلك اللحظة تحديداً من الليل ، المئات من القصص كهذه ، ثم يتكلم رجلٌ بشكلٍ جديٍّ ويقول إنّنا بدأنا بدراسة هذه الظاهرة ، ولا بُدَّ من ذكر أن الناس كانوا يضحكون علينا قبل مئات السنين حين بدأنا بالكلام عن موجات الراديو والميكروويف .

لذا ، من الواضح أنَّ أمي في مكانٍ ما لا تستطيع أن تنام ، وربما أنا التي أُبقيها مستيقظة . هناك من هو معها في الغرفة وهو يتساءل ما الذي يبقيها مُستيقظةً ، لكنّها تتصرف بجديَّةٍ وتقول في الظلام إنها لا تعرف . كأنّني أجلس هناك على سريرها أو أتلصَّص من النافذة . لا أستطيع تحديد ملامحها ، لكنّني أستطيع تبيّن الدموع في عينيها .

خيالاتي تتمدَّد وتتمدَّد ، وفي العادة تصل أمي إلى نقطةٍ فاصلةٍ في حياتها وتتخذ قراراً ، وحين تستيقظ تحافظ على ما قرّرته ، ثم تبدأ بالبحث عني ، أو تشتري تذكرة حافلةٍ وتحضر

الطعام للرحلة وتجلس في محطة الحافلات متوترةً وتُشعل سيجارةً رغم أنّها أقلعت منذ سنوات عن التدخين ، لكنها تنفث الدخان بقوةٍ بينما إشارة عدم التدخين موجودةٌ على الجدار خلفها . هي لا تراها لكنّ الناس ينظرون إليها بامتعاض ، بخاصّة امرأةٌ بقبّعةٍ بنيّةٍ تقف أمامها ، لكنّ أمي لا تلاحظ .

هذا الخيال حول بحثها عني هو الأسوأ ، لأنني أدرك أخيراً أنّ ركوب أمي الحافلة لتراني كان حلماً تحقّق ، لكنه أيضاً كابوس . وأنا أتأرجح بين هذين الشُّعورَين المتضاربَين وأحاول معرفة أيٍّ منهما أقوى . ولا يهمُّ إن كان أحدهما أقوى بنسبة 0,10000000 ، كنت أتمسَّك به وأقتنع أنّه هو الحقيقي .

وحين أميل للتمسُّك بالحلم ، ينظف الكابوس حلقه في وجهي ويظهر نفسه ، والعكس صحيح .

هذا كان حين كنت أصغر سنًّا ، كنت مقتنعةً أنني أملأ حيّزاً مهمّاً هامًّا من الفراغ ، وأنني إن متُّ سيفتقدني الناس ، وأنّ أمي تحمل توقاً إليّ في داخلها لا يختفي أبداً .

الآن صرت أعرف أكثر ، فأنا مثل معظم البشر قابلةٌ للتبديل ، والنوم لا يجافي أمي في الليل بسببي . باعتقادي أنّها كوّنت تلك الفكرة التي احتفظت فيها قبيل النوم في السنوات الأولى كأنّها حبوب تنويم : الفكرة أنّها تستطيع أن تراني حين

أكبر ، أو أنَّها إن بقيت فإنها هي وجان سيجرحان أحدهما الآخر ، وهذا أسوأ بكثيرٍ لحياتي- أو أنَّها ستفكر بشخصٍ عانى من حياةٍ صعبةٍ وتقول : على الأقل حياة ابنتي أفضل ، أو ستفكر : لو استطاع هذا الشخص أن ينجو من طفولةٍ كهذه فإنَّ ابنتي ستنجو بدورها .

لديّ العديد من الأفكار ، ويبقى أن تختار واحدةً تناسبك . وأحياناً يتحتَّم عليك استبدالها بفكرةٍ أخرى ، لأنَّ الفكرة تخسر طعمها مثل علكةٍ ممضوغة . الجيد في الأمر أنك تحتاج تلك الفكرة فقط لبضع سنوات ، بعد ذلك تتفاعل الفكرة وتغيِّر من خصائصها الكيميائية داخلك ، ولا تعود بحاجة إلى طمأنة نفسك مرةً أخرى . أنت الآن متأكدٌ من أنك فعلت الصواب وستغطُّ في النوم مثل رضيع دون قلق .

وإذا كان عليك الانزلاق نحو أفكارك القديمة التي تبقيك مستيقظاً في الليل ، وتفكر في كلِّ ما فعلته ، يكون ذلك لكي تسترق نظرةً سريعةً على تلك الأفكار المُطمئنة ، بعدها بإمكانك الشعور باسترخاءٍ كاملٍ في جسدك .تضع نفسك في وضعيَّة الراحة التامة ، مثل بالونٍ كبيرٍ على العشب .

أستطيع أن أفتقد أحلام اليقظة القديمة ، حاولت مرّةً أن إعادتها للحياة من جديد ، لكنَّ هذا لا يمكن أن يحدث .

أنا متأكدةٌ من أنَّ أمي نائمةٌ بعمقٍ هذه الأيام ، وأنَّها تفعل

ذلك منذ سنوات . لا تشعر بالذنب لأنّها فعلت كلّ ما في وسعها كي لا تشعر بالذنب . على الأغلب أنّها بدأت تحضيراتها لذلك قبل أن ترحل بكثير ، رتّبت ظروفها بحيث لا يوجد سوى طريق واحدة للخروج ، هذا ما يفعله البشر .

إنه يومٌ جميلٌ! عندما غادرنا بالسيارة رأينا كاترينا مع الكلب ، الكلب يسبقها بمسافةٍ كبيرة . هي لا ترانا وتحمل عصاً بيدها ، أتساءل إن كانت تضرب الكلب بها ، أعلم أنّها لا تضربه ، لكنّ الفكرة في رأسي وهي تجعلني أبتسم .

- هل تكلّمت مع أيٍّ من أصدقائك؟ سأل أبي .

- أيُّ أصدقاء؟ أجبت .

نظر إليّ دون صبر .

- أصدقاؤك في الوطن ، أيُّ أصدقاءٍ ظننتِ؟ أو أنك كوّنتِ العديد من الأصدقاء هنا؟

- في وطننا؟ ظننت أنّ هذا موطني!

- نعم ، الآن تتصرّفين كفتاةٍ في الخامسة؟ أنت تعرفين هذا ، أليس كذلك؟

- لا ، لا أعرف .

- حسناً ، لكنّك تعلمين أنّك تعرفين .

- نعم ، الآن أعرف . آه ، أنتِ لطيفةٌ جداً ، كأنّك نجمة ، هل أستطيع أن أحصل على توقيعك؟

- أنت تعرف أنّك تتصرف كطفلٍ في الخامسة ، قلت .

لم يردَّ بشيء ، لا حين وصلنا ولا حتى حين نزلت من السيارة .

تركت باب السيارة مفتوحاً واتّجهت إلى مبنى المدرسة ، يوجد العديد من السيارات الثمينة واللمّاعة في موقف السيارت . وخطر في بالي ماذا سيحدث لو أنَّ سيارةً مثل سيارة الميتسوبيشي القديمة التي كان يمتلكها أبي في بلدي القديم مرَّت قرب هذه السيارات ، أو أنَّها توقفت فقط في هذا الموقف! أستطيع رؤية الجميع متجمّدين خلف مقود سياراته .

لم أنظر خلفي ، أعلم أنَّ عليه أن ينزل من السيارة ، لا بل أفضل من ذلك ، سيكون عليه أن يفكَّ حزام الأمان ويخرج من السيارة ، ثم يعود ويجلس خلف المقود ويربط حزام الأمان مرةً أخرى .

وتحدِّق عيونهم نحوه طوال الوقت ، كلُّ هؤلاء الآباء سيحدِّقون جيداً من خلف سياراتهم اللمّاعة ، وسيصيبهم الفضول لأنَّهم يعرفون أنني الفتاة الجديدة ، ولا بدَّ أنَّ هذا هو والدي الذي تقول الشائعات إنّه كان يمسح القاذورات من خلف طاولة الخدمة في مقهاه قبل ستّة أشهر فقط . والآن تزوّج كاترينا ، البضاعة الفاسدة بما فيه الكفاية ، ويجلس معها في القلعة فوق التلال البعيدة .

عليه أن يفعل كلَّ ذلك وهو يبتسم ويبدو واثقاً ومحترماً وإيجابياً طوال الوقت ، بل ربما واثقاً أكثر من اللازم ومحترماً

وإيجابياً لأنَّ كلَّ هؤلاء الآباء المحدِّقين سيعتقدون أنَّ الفتاة الجديدة لم تخرج من السيارة بمزاج جيد . مبتسماً وواثقاً بقصَّة شعره ذات الروح الحرّة . مررت بالقُرب من فتاتين إحداهما تخبر الأخرى شيئاً ، استطعت رؤية الفتاة المستمعة التي حيَّتني . عيناها واسعتان ووجهها شاحبٌ وخائف .

سمعت شابّاً خلفي يصرخ على آخر ، ثم بدأ بالغناء ، كانت أغنيةً مضحكةً كأنَّهما في القوّات البحريّة الأمريكيّة في فيلمٍ حربيّ .

أصبحت قُريب البوابة . رأيت رجلاً ينظر من النافذة نحو الطلاب الذين يدخلون إلى المدرسة . يلبس زيّاً رسمياً ، ربما يضع علامةً في قائمة كبيرة من الأسماء قرب اسم كلِّ طالبٍ يدخل ، لكن لا يمكن أن يكون بهذه السرعة . ربما لكلِّ طالبٍ شريحةً أسفل بطنه تُخرج صوتاً على الشاشة التي أمامه .

انتبهت إلى أنني لا أملك قلماً ولا ورقةً معي ، فقط الهاتف المحمول في معطفي . لم أفكر بالأمر ، وأبي أيضاً لم يفكّر ، ولا حتّى كاترينا . لا أعرف في أيِّ صفٍّ أنا . أفكر بالأمس ، وبالطريق الذي سلكناه ، وبالرَجُلَين . أحدهما كانت له لحيةٌ والآخر يدخن . كأن أبي تركني أمام مدرسةٍ مختلفة .

عليَّ أن أسأل أحداً في أيِّ صفٍّ أنا وأين سيكون الدرس الأول ، ولكنّني لا أستطيع فعل ذلك . لا أعرف لماذا ، أنا لا

أستطيع ذلك ببساطة . توقّفت ونظرت حولي ثم توجّهت نحو موقف السيّارات ، الشمس تنعكس في عينيّ ، لذا لم أميّز الوجوه التي رأيتها رغم أنّني واثقةٌ أنّني سمعت كلمة مرحباً أكثر من مرة .

على وجهي رسمت تلك الابتسامة التي توحي بأنّني أقول مرحباً وأعتذر في الوقت ذاته للعالم كلّه . تظاهرت بأنّني نسيت شيئاً وأنّني أستعجل قبل أن يغادر أبي .

أخيراً أصبحت في الظل . هناك سياراتٌ تُنزل طلاباً وترحل ، لكنّني أحسست أنَّ الأمر سينتهي قريباً . مشيت حتى آخر موقف السيارات ووضعت الهاتف على أذني وتظاهرت بأنني أستمع . إنها حركة جيدة ، فعلتها عدَّة مراتٍ من قبل لكنّني لا أذكر متى . تعطيك الفرصة لتنظر حولك في كلِّ الاتجاهات دون أن تبدو غريباً .

إذاً أنا في منتصف هذه المكالمة المزيّفة وأنظر حولي ولا أرى سوى التلال ، تلال ، تلال . الأخضر في كلِّ مكانٍ ، لكنّني أعتقد أنَّ بإمكاني الذهاب نحو البلدة .

عليَّ أولاً تجنّب الطريق حتى تبتعد كلُّ السيّارت ، عندها أكون وحدي .

قفزت فوق السياج الذي يحيط بموقف السيّارات وتتبَّعت

مسار التلة ، وعندما أصبحت فوقها وجدت طريقاً مستوية ، واسعة وجافةً ومناسبةً للمشي ، تمتدُّ بعيداً ، ويمكن رؤية بعض الجبال أيضاً .

مشيت لبعض الوقت وأنا أغني بهدوءٍ شديد . الشمس ساطعةٌ ودافئةٌ ، فتحت معطفي وسمعت صوت الحشرات ، بعد قليل صرت أتنفس بعمق ، كان الشعور جميلاً!

توقفت عند مفترق طرقٍ ، وُضِعت عليه ثلاث إشاراتٍ ، تشير كلُّ واحدةٍ منها إلى اتجاه ، تأمَّلت الرجل على الإشارة لفترةٍ طويلةٍ ، يضع حقيبة ظهرٍ وقبّعة صيدٍ ، وله أنفٌ حادّةٌ وعينان دامعتان .

ثم رأيت شيئاً يقترب ، رجلاً في الثلاثينات له وجهٌ أبيض ونظّاراتٌ كبيرةٌ وفمٌ صغير . خفت أن يكون هو نفسه الرجل المرسوم على الإشارة . نظر واحدنا إلى الآخر . ملابسه تبدو من ماركاتٍ عالميةٍ ، ورأيت جاربيه ظاهرتين من فوق حذاء الركض ، إنهما من تلك النوع من الجوارب التي أريد استخدامها في شهر شباط حين تكون الحراراة ناقص عشرين .

سمعت رنيناً من هاتفي النقال ونظرت إلى الإشارات مرّةً أخرى . اخترت الاسم مع الأرقام 7 و5 . لا بدَّ أنَّها كيلومترٍ لكنّني لا أعرف ربما لا يزالون يستخدمون الأميال ، في هذه المناطق القرويّة من البلاد . وأنا متأكدةٌ أنَّ الميل أطول من الكيلومتر . استمريت بالمشي بكلِّ الأحوال ثم تذكّرت رنين

الهاتف ، كانت رسالةً من والدي بالخط العريض : أين أنت؟ ابتسمت وفكّرت بالمدرسة ، كيف أمكنهم ذلك؟ يبدو أنَّ الطلاب لديهم شرائح فعلاً في بطونهم ، وحين لا تُضيء الأزرار جميعها على الشاشة يضغط الحارس جرس الإنذار ويبدأ الصراخ والأضواء الحمراء ، وقريباً سأسمع الكلاب تنبح من بعيدٍ والهيليكوبتر تُحلّق قرب العشب ، ورجلاً يصرخ في سماعة ويطلب أن أسلّم نفسي .

لم أعرف كيف أتصرف في البداية ، لكنّني كتبت رسالةً تقول إنني ذهبت لأتمشّى ، وأنّني أريد أن أكون وحدي . لم تمضِ عشر ثوانٍ حتى بدأ بالاتصال .

مشيت ونظرت حولي ، إنه يومٌ جميلٌ . بعدها بدأت أفكر بالحيوانات التي عليَّ أن أخاف منها ، لكنّني لم أصادف حيوانات . الطريق ينحدر نحو الأسفل والمنظر مدهشٌ ، رأيت البلدة تلمع من بعيد .

بدأت أتساءل إن كانت فكرة الهرب من المدرسة فكرة جيدة فعلاً . لا أذكر أنني فعلت شيئاً مماثلاً من قبل . أعلم أنني أقصد إلى تصعيب الأمور على كاترينا وأبي ، لكنّني أجعلها أصعب على نفسي أيضاً . فكّرت أنني لا أهتمُّ ، لكنَّ هذا أسهل ما يمكن قوله . تخلّصت من الفكرة سريعاً . فكرت بكلِّ الناس

الذين يهربون يوميّاً ، لماذا لا أكون واحدةً منهم ، على الأغلب لن أفعل ذلك غدًا ، أتساءل كيف سيكون أبي في الغد ، أتكهّن أنّه سيعضُّ على أسنانه ويمشي بي حتى الصف ، وعندما أقول أنّه ليس مضطراً لفعل ذلك ، سيقول بصوتٍ عالٍ : من الواضح أنني مضطرٌّ ، وسأفهم حينها أنّه خطأي .

لكنّها طريقٌ جميلةٌ ولا شيء يمكن أن يؤذيني . فكرت بالهليكوبتر مرّةً أخرى ، وكم سيكون إيجادي سهلاً ، أنا النقطة الضئيلة بين كلِّ هذا الخُضار ، مع ذلك سيكون إيجادي سهلاً جداً . مشيت ومشيت وفكرت بمليون شيء ، بالذئب المستوحد وكم هو قلق . عليَّ إخباره أنني أريد التخطيط لكلِّ شيءٍ بحذر . فجأةً رأيت شيئاً يلمع ، بناءً أبيض كبيراً مع موقفٍ للسيارات ، والكثير من السيارات اللمّاعة التي تتوقف هناك في الشمس وكأنّها في انتظار أحدٍ ما .

تساءلت إن كانت هذه بداية البلدة .

عندما اقتربت رأيت لوحةً كبيرةً على المبنى ميّزتها من الدعايات في التلفاز والجرائد ، إنه مبنى أثاثٍ كبير .

في الإعلانات يتحدثون عن ارتفاع وتزايد ، وجميع الأسهم تشير نحو الصعود وأنواعٍ مختلفةٍ من المخطّطات الناجحة .

شعرت برغبةٍ في التسلل إلى هناك . كنت سعيدةً بالقفز فوق السياج نحو موقف السيّارات ، كأنني لصّة . توقفت سيارةٌ زرقاء صغيرةٌ قربي ، فتح أحدهم النافذة ، يبدو أنّه أفغانيٌّ ، وسألني

شيئاً وكان عليَّ أن أقترب خطوةً لأسمعه ، يحمل بيده شيئاً ويسألني إن كنت أحمل فكّةً من أجل آلة الموقف . رأيت امرأةً وفتاةً قربه تنحنيان إلى الأمام وتنظران إليّ . ابتسمت وفتّشت في جيبي وقلت آسفة . للحظةٍ فكرت إن كانوا يعتقدون أنني بريطانيةٌ ، وهذا جعلني أرغب بالتصفير بلحنٍ من الستينيات ، لحنٍ سخيفٍ وسعيدٍ . وفكرت للحظةٍ أنني فعلت شيئاً جيداً اليوم . ألم يجعلني الابتعاد عن ذلك المكان سعيدة؟ بالتأكيد أستطيع تدبُّر أمري ، أستطيع تدبُّر أمر سعادتي وحدي ، لا أحتاج الكثير لأكون سعيدة . أنا لست واحدةً من هؤلاء الناس ، ومع ذلك لا أزال غنيّة ، على الأقل هذا ما قالته كاترينا . يوماً ما سأسألها ماذا تعني بذلك ، هل تعني أنني أستطيع الذهاب إلى متجرٍ ما وشراء ما أريد؟ إن لم يكن هذا ما تعنيه ، فماذا تقصد بالتحديد؟ أم أنّها تعني أشياء أخرى عدا المال؟ ربما تعتقد أنَّ عليَّ أن أعتبر نفسي غنيةً لأنَّ لديّ هذه العائلة السّعيدة؟ أو لأنَّني أعيش في بلدٍ ديمقراطيٍّ حارب هتلر في الحرب ولديه صحافة حرّة ولاعبي كرة قدم جيدين؟

سأبدو مضحكةً حين أقول ذلك ، لكنّني سأدع ذلك يظهر في نبرة صوتي .

نظر الأفغاني إليَّ دون أن يصدّقني . هززت كتفيّ وابتسمت وأدرت رأسي . نظرت حول الموقف وشاهدت آلةً وأردت إخباره أنني رأيت أناساً يضعون البطاقة المصرفيّة فيها ، لكن إن لم يكن

يفهم كلمة «آسفة» فهو لن يفهم كُلَّ هذا .

ربما أحكم على الأمور بسرعة ، لكنّني أشكُّ في أنَّه يملك بطاقة مصرفيّة . تخطّيت السيارة وسمعت صوت الرجل الغاضب خلفي ، لكنّه لم يكن غاضباً مني ، ربما من زوجته .

مشيت داخل أبواب المتجر الكبير واستقبلني حسٌّ صباحيٌّ جميلٌ في الداخل . لا يوجد زبائن كُثر ، بعض الشباب بمعاطف برتقاليةٍ يرتّبون بعض الأغراض . رأيت ولدين لا يكبرانيٍ سنّاً بكثيرٍ يرتبان عصيّاً معدنيةً مع أكوابٍ بلاستيكيةٍ عند الطّرف ، مكتوبٌ عليها أنَّها أداةٌ لقياس نسبة سقوط المطر .

نظر الشابّان باتجاهي ، لكنّني مشيت فحسب وتفحّصت جميع الأغراض . كلُّ شيءٍ رخيصٌ نسبياً ، ويوجد أماكن لعرض الأشياء هنا وهناك ، كلُّ شيءٍ موجودٌ عدا البشر .

مثلاً ، أعدّوا مكاناً للشواء ، كراسي قابلةً للطّيِ ومظلةً كبيرةً وغاز شواءٍ ومبسطاً لقلب الهامبرغر . ليس بعيداً كثيراً عرضوا مكتباً ، جوارير وطاولةً للحاسوب وصناديق خاصّة لجمع بطاقات التعريف . هناك أيضاً حديقةٌ صغيرةٌ مع شبكةٍ ومضارب ريشةٍ وكراسٍ ، ويبدو أنَّ شخصاً ترك العشب على عجل . يبدو مخيفاً بعض الشيء . كلّ شيءٍ يمنحك رغبة بجمع بعض الناس وفعل شيءٍ ما ، تلمّ المضارب مثلاً أو تفتح الحاسوب ، تشعل النار أو تفتح علبة صودا . خلف تلك المنصّات الفارغة تجد كلَّ شيء ، صناديق تصل السقف تقريباً ، كراسي وطاولات الكمبيوتر

T

والمظلات ومضارب كرة الريشة ، لكنّها غير جاهزة للاستعمال .

من المفترض تجميعها في البيت ، لهذا هي رخيصةٌ جداً ، معبّأةٌ بصناديق بيضاء متشابهةٍ مع قضبانٍ معدنيةٍ ومظاريف بلاستيكيةٍ سميكةٍ ، بداخلها دليل الاستخدام الذي يبدو مجعلكاً .

هذا هو الطابق الأرضي فقط من المتجر ، وفوقه أربعة طوابق أخرى . قدماي تؤلمانني لذا ذهبت إلى المقصف . بحثت في جيوبي فوجدت قطعة نقودٍ تكفي لكأسٍ من الشاي ، وهو أرخص الموجود .

توقفت هناك لفترةٍ ونظرت إلى الكعك المكوّب والبيتزا بجبنة الموتزارلا والبري . يبدو مقصفًا جميلاً ، كلُّ شيءٍ نظيفٌ ، والفتيات اللواتي يعملن هناك يلبسن قميصاناً حمراء وقبَّعات جولف . تبسَّمن وقلنَ مرحباً ، وكيف يمكن أن أخدمك . الفتاة المسؤولة لديها لآلئ جميلةٌ في شعرها ، على الموضة . تبدو من جامايكا بأسنانٍ بيضاء ، كانت جميلةً جداً لدرجة أنني قررت أن أكلّمها . ذهبت نحوها وطلبت كأساً من الشاي ووضعت قطعة النقود على طاولة الخدمة ثم ترددت قليلاً وقلت ، انتظري قليلاً ، دعيني أرى . فتشت في جيوبي لبعض الوقت ، تقريباً قلبتها إلى الخارج . قالت : لا بأس ، قلتُ : هل أنت متأكدة؟ فقالت : بالتأكيد لا تقلقي .

لم أكن أريد الاستعجال في الردّ على لفتتها الجميلة ، لذا قلت بصوتٍ واضح : هذا جميلٌ جدًّا منك .

هذه المرّة غمزتني قليلاً وقالت مرّةً أخرى : لا بأس ، وصوَّبت بصرها على الزبون التالي .

بجانبها تقف فتاةٌ أخرى وتبدو من جامايكا أيضاً ، وضعت كأس الشاي على الطاولة . الكأس الورقية حرقت أصابعي ، عيناها تشبه عيون البقر ، ولا أقول ذلك بطريقةٍ مزعجةٍ لأنَّ للبقر عيوناً جميلة فعلاً ، أجمل من عيون الأحصنة .

عيون الأحصنة على جوانب رؤوسها ولا يمكن أن تراها بشكلٍ جيد ، وهذا يمنحها منظرًا غريبًا ، مثل النظر إلى شخصٍ أحولٍ .

اخترت طاولةً بكرسيٍّ طويلٍ قريبةً من طاولة الخدمة لأنني أردت أن أبدأ حديثا حين لا يكون هناك زبائن ، وتكون الفتاتان الجامايكيتان وحدهما . أردت أن أرى إن كانتا لطيفتين مع واحدتهما تجاه الأخرى كما هما لطيفتان مع الزبائن ، وأعطائهما فرصةً لرؤيتي ، وربما تشعران بالفضول نحوي ، وبأفضل الأحوال تشعران بالشفقة علي .

لكنّني لم أر الفتاتين تتفاعلان واحدتهما مع الأخرى . عندما لا يكون هناك في المقصف زبائن تقف الفتاة المسؤولة هناك وتنظر بشكلٍ مستقيم كأنّها دمية عرض . أحياناً تنظر إلى أظافرها ثم تنظر بشكلٍ مستقيم .

هاتفي رنَّ مرّةً أخرى وتركته يفعل يرنّ. نظرت الفتاة المسؤولة نحوي، وعندما توقف الهاتف عن الرنين أشاحت نظرها، ثم إلى أظافرها مرّةً أخرى.

جلست في الكافتيريا أكثر من نصف ساعةٍ وفكرت بأشياء كثيرة، ثم ذهبت لأمشي في الطوابق الأخرى.

يوجد أسرَّةٌ كبيرةٌ وأخرى صغيرةٌ وستائر، قسم الأسرَّة كان ممتعاً. هناك الكثير من الرجال الكبار في السن بوجوهٍ حمراء ونظاراتٍ كبيرةٍ. تظهر نظراتٌ خاصةٌ على وجوههم حين يتمدَّدون ويجرّبون الأسرَّة، يبدون منزعجين ومرتاحين في الوقت نفسه، كأنَّهم مُنحوا الإذن لارتكاب فعل خطأ. تمددت على أسرَّةٍ عديدة أنا أيضاً، وأنا أتساءل إن كانت تبدو عليّ السمات ذاتها. نظرت إلى الناس الذين يمرّون قربي ولا ينظرون إلا للأسرَّة وبطاقة السعر. لا أحد ينظر نحوي، ربما هم يفعلون حين أنظر بعيداً.

الجوع يأتي ويختفي. اكتشفت خدعة: كلما أتى الجوع، أذهب إلى الحمام وأشرب بعض الماء، هذا يساعد أكثر مما تخيّلت. ثم قريباً سيكون عليّ أن أقضي حاجتي، من الجيد الهرب من كلِّ شيءٍ والجلوس على كرسي الحمام والتحديق في ضوء السقف والاستماع للأصوات الخافتة للناس في الخارج، وأنت متأكّد من أنَّ أحداً لا يستطيع الدخول.

بعد قليل استيقظت من كلِّ شيء ، كأنّني كنت أحلم . كنت في الطّابق حيث يبيعون الورود والشتلات وأصُصَ الورد ، نظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الرابعة ، كلُّ شيءٍ بدا حقيقياً فجأة .

أنا في هذا المتجر ، وأنا غائبةٌ طوال اليوم دون أن أجيب على الهاتف ، أدركت أنّهم لا شكَّ قلقون عليّ . فكّرت في حجة دفاع ، الأمر ليس أنني هربت ، لقد تركت له رسالةً واضحة ، أنا ذاهبةٌ لأتمشّى وأريد أن أكون وحدي ، حتى أبي يمكنه أن يفهم هذا .

المشكلة أنّني لا أعرف أين أنا ، أنا فقط أعرف اسم المتجر فقط . توقفت أمام صفٍّ من الصناديق البيضاء ، أخرجت الهاتف وكان بإمكاني سماع صوته ، التعِب ، الصوت الميّت حين يسألُني أين أنا ، ثم يقول إنّه سيُقلّني في الساعة الفلانية ويغلق الخط .

رأيت إشارةً في السقف تشير إلى الخروج ، وإشارةً أخرى تُشير إلى المحاسبة والتّوصيل . خطرت لي فكرةٌ مجنونةٌ جعلت مزاجي يتحول إلى رائع ، اتّجهت نحو مكتب التوصيل بخُطاً سريعة .

المكتب في طابق التسوية ، ذهبت إلى طاولة الخدمة حيث

يقف رجلٌ ضئيلٌ أسمر وامرأةٌ شاحبةٌ بأسنانٍ كبيرةٍ ووجهٍ خالٍ من التعابير .

هناك أمامي امرأة أمامي في الصف تحمل صندوقين أبيضَين في عربة . سجّلت الصناديق وطلب منها الشاب أن تملأ الاستمارة ، ومن صوته يمكن أن تعرف أنَّه يقول تلك الكلمة مئات المرات كلَّ يوم .

كنت متحمسةً أكثر من اللازم ، لذلك تقدمت وحملت استمارةً لأوفر بعض الوقت ، يمكنني أن أمُرَّ على الأسئلة بينما أنتظر . يريدون معرفة الأمور الاعتيادية ، الاسم والعنوان وأيّة ساعةٍ أريد أن تصلني الأغراض .

سيكون هذا سهلاً ، العنوان معي في ورقة . الجميع يعمل باجتهادٍ خلف الكاونتر ، وعندما بدأت المرأة التي أمامي تسأل أسئلة غبية أجابت المرأة الشاحبة على أسئلتها ، ثم استدار الرجل الضئيل نحوي وقال : مرحبا؟

سألته إن كانوا يوصلون الأشخاص؟ لم ألمح ابتسامة أو مفاجأةٍ دهشة في وجهه حين أجاب لا ، فقط الحاجيات من المتجر ، أعتذر .

إنها مزحةٌ قلت ، فكرت أنَّ بإمكاني أن أملأ هذه الاستمارة ثم تأخذونني إلى البيت وتقولون يوجد توصيلةٌ لكم ، ثم أظهر أنا .

نظر الرجل نحوي ، لم يُحرّك عضلةً من وجهه . ابتسمت له أكثر في المقابل ، ابتسمت حتى أحسست أنَّ خدودي ستنفجر .

المرأة التي تحمل الأغراض قالت شكراً وابتعدت ، وحلَّ الصمت . المرأة صاحبة الأسنان الكبيرة نظرت نحو الحاسوب وحرّكت الفأرة وكتبت شيئاً .

- سأدفع بالطبع ، قلت .

- إلى أين؟ سأل .

مددت له الاستمارة حيث كتبت العنوان .

- ليس بعيداً ، قال .

- لا ، قلت

- لا أفهم ، أليس من الأسهل أن تأخذي تاكسي؟ هناك موقفٌ للتكسيات في الخارج أو حتى حافلة .

المرأة ذات الأسنان الكبيرة تنظر نحوي .

- تريد أن تركب سيارة التوصيل ، قال لها ، لعنوانٍ معين .

استدرت نحو المرأة ، هي أملي الأخير . بدأت أشعر بالجوع الشديد ، لا أعتقد أنَّ خدعة الماء ستنفع بعد الآن .

- أريد أن يتصل الرجل صاحب سيارة التوصيل بأهلي ويخبرهم أنَّ لديهم توصيلة ، قلت

- إنها مزحة .

منحتني المرأة لمحة ابتسامة .

- حسناً ، أعتقد أن بإمكاننا أن نسأل ، قالت .

انحنى الرجل وضغط على زرٍّ على جهاز الرد الآلي ، تكلّم مع شخصٍ ما ولم أستطيع معرفة ما الذي يقولانه ، قربي هناك زبونٌ قربي يتكلم مع المرأة ذات الأسنان الكبيرة ، تكلّما بصوتٍ عالٍ لدرجة أنّ الرجل الضئيل بالكاد كان يسمع بصعوبة ، اقترب من الجهاز وصرخ : «أعِد مرةً أخرى» على الأقل عشر مرّات .

ثم التفت نحوي وسأل :

- كيف ستدفعين؟

وجهي كان متعرّقاً ، العرق يغطيني ، وعلى الأغلب سيُغمى علي قريباً .

- آمل أنّهما سيدفعان ، أجبت . حين يتمُّ توصيلي ، ألا تجري الأمور هكذا في العادة؟

- لا ، في العادة يدفع الزبون مقدماً ، نقداً أو بالبطاقة .

- ألا يمكن أن يدفعا حين أصل؟

- من؟

- والداي .

لا يبدو أنَّ الرجل سيدع الأمور تمرّ ، هناك شيءٌ لا يُريحه . ظلَّ يطرح الأسئلة ، واحداً بعد الآخر . كلما ظننت أنَّ المشكلة حُلّت يأتي بشيءٍ آخر .

كنت أجيب بصعوبةٍ دون أن أعرف إن كان باستطاعتي اختلاق المزيد من الكذبات . سألني مرةً أخرى لماذا لا آخذ تكسياً . مرةً أخرى أجبت أنَّ الأمر سيكون ممتعاً أكثر . من الغريب أن أقول ذلك وأنا على وشك الانفجار بالبكاء .

تدخلت المرأة ذات الأسنان الكبيرة . قبل بضع دقائق أعطت نظرت إلى الرجل نظرةً كأنَّها تقول لماذا تسأل هذه الأسئلة القذرة ، أعط الفتاة فرصة ، استرخي استرخِ قليلاً ، لكنها بدَّلت موقفها الآن ، هزَّت رأسها وقالت :

- آسفة ، إن لم تتمكني من الدفع مقدماً أخشى أنَّنا لا نستطيع شيئاً لنف . . .

- لكنَّها ستدفع ، قلت ، أنا متأكدةٌ أنَّها ستفعل ، مئةً بالمئة .

- من؟

- هي ، حسناً ، زوجة أبي ، تسكن في ، تعرفين هذا العنوان ، هل تعرفين أين؟

نظرت إلى العنوان وهزّت رأسها .

- لا ، آسفة .

كنت على وشك الاستسلام ، لا بدَّ أن أذهب إلى الحمام ، سأفعل أيَّ شيءٍ لأصل إلى البيت ، وآكل شيئاً وأجلس . سأتصل بأبي وأسمع ذلك الصوت . ربما أقفز في سيارة تكسي وأذهب إلى البيت وأرى وجهه كأنَّه تمثالٌ من نافذة التكسي .

ثم قالت المرأة : لو أنّك تشترين شيئاً سيتغيّر كلُّ شيء .

فقط لو أنّني أشتري شيئاً ، عندها سيكون التوصيل أسهل .

عندها انتبهت إلى أنَّ كاترينا والدي سألاني مئات المرات إن كنت أحتاج شيئاً لغرفتي ، مراتٍ عديدةً نظروا في الغرفة وتذمّرا لأنَّها لا تحتوي على أضواءٍ كافيةٍ ، وأنني أؤذي عينيَّ هكذا . ربما إن أخذت عربةً وتجوّلت قليلاً وبحثت عن أضواء ، ربما ضوءٍ جانبيٍّ للسرير ووسادةٍ كبيرة . سيكون من الجميل أن أحظى بوسادةٍ كبيرةٍ وناعمة .

رأيت وسائد بألوانٍ رائعة ، بعضها طُبعت عليها إشارات طرق ، وبعضها صورٌ لشخصيّاتٍ مشهورة ، وقفت أمام واحدةٍ وابتسمت ، الوحيد الذي ميّزته كان صورة جيم موريسون ، أبي سيرغب بالحصول على هذه الوسادة . ربما إن اخترت بعض الأغراض وطلبت توصيلها في السيارة معي ، ستكون مزحةً لكنها ستكون لفتةً جميلةً أيضاً ، شيئاً يجعلهم يبتسمون ، سيكون لطيفاً أن أحضر شيئاً للبيت ، ستصبح غرفتي حميمةً أكثر .

تحمّست وقلت إنَّني سأعود فوراً . ذهبت نحو المخرج وحملت عربةً وقررت أنَّني لن أختار شيئاً ثقيلاً لأنني متعبة . لم آكل شيئاً منذ الإفطار ، لكنَّها ليست مشكلة ، بالتأكيد يوجد الكثير من الأشياء الخفيفة هناك .

ذهبت إلى الحمام في الطريق ، أحدهم تقيّأ على الأرض

بجانب السّلة ، لا أفهم كيف استطاع أن يخطئ السلة ، الرائحة مقرفة ، لكنّني تنفست من فمي ونظرت أمامي مباشرة . المشكلة أنّني لم أحتمل شرب الماء لأنّني فكرت بالشخص الذي تقيّأ ، وأنّه بالتأكيد غسل فمه وشرب بعض الماء .

عندما خرجت كانت تقف فتاةٌ بدينةٌ تلبس معطفاً برتقالياً وبجانبها ممسحة ، هززت رأسي لتفهم أنّه ليس أنا من فعل هذا ، كان ذلك غبياً لأنّها بالتأكيد تعرف ذلك وأشكّ في أنّ الأمر يعنيها ، لكنّني شعرت بالتعاسة لأنّني جلست هناك بالقرب من بركة القيء من دون الشعور بالذنب والخوف من الإصابة بعدوى .

الأمر منحني القوة لأفكر بأنّ هذا آخر ما سأفعله هنا اليوم . من خلف النافذة في الأفق رأيت السماء تتحول إلى اللون البرتقالي ، واستطعت أن أتخيّل كم هو الجو جميلٌ الآن في الخارج وفي القلعة .

كل ذلك أعطاني القوة ، التفكير بكاترينا والقلعة وسارة وأبي وكم أنا ثريّة ، هي أشياءٌ لن يحصل عليها هؤلاء الناس ، الفتاة البدينة التي تمسك الممسحة ، والرجل الضئيل الذي رفض الابتسام في وجهي . وجدت أشياء جميلةً فعلاً ، اخترت في البداية حاملة شموعٍ مصنوعةً من زجاجٍ سميكٍ بألوانٍ جميلة ،

أحمر لامع وأخضر وأزرق ، كأنَّها فقاعاتٌ زجاجيةٌ ، أتشوق لأشعل الشموع فيها في غرفتي ، وأنظر إليها بينما تتراقص الألوان على الجدران .

بعدها ذهبت إلى قسم الوسائد . لم أرغب بالوسائد الكبيرة ، عوضاً عنها اخترت أربع وسائد صغيرةً لأنَّها تحتوي على مواد ناعمة جداً ، كأنَّه مخملٌ حقيقي ، دفنت أنفي داخلها وأعطتني شعوراً كأنَّني أضع وجهي في الماء . شعرت بالسعادة لمجرد تخيُّل الوسائد على سريري ، وأنَّني مهما استدرت سأجد واحدةً قربي .

توجد إشارةٌ قربها تقول إنَّ الوسائد قابلةٌ للغسل بالغسّالة ، وأنَّها ضدُّ الحرق . في البداية فكرت بمحتواها ، ثم قلقت قليلاً لأنَّني قرأت في مكانٍ ما عن المواد المستخدمة لجعل الأشياء غير قابلةٍ للاشتعال ، وأنَّها تسبّب السرطانات ، ثم سألت نفسي أيَّ شيءٍ أفضله ، أن يُحرق وجهي أو أموت بالسرطان؟ من الواضح أنَّ السرطان كان مغرياً أكثر ، لكن لا أحد يعلم كم يمكن للسرطان أن يكون مؤلماً ، وكم سيلزمهم لشفائه .

كما أنَّ الوسادة ستجعلك تموت بسلام حين تستنشق كلَّ الدخان بينما كلُّ شيءٍ يحترق حولك ، سينتهي الأمر دون أن تشعر بذلك ، بعدها لم أرد التفكير بالأمر ثانيةً لأنَّني خفت أن أجلب النحس إلى نفسي بمجرد التفكير بالأمر ، ثم تذكّرت أنَّ

هذا ما قاله أبي ، الأمر الذي جعلني أشعر بالثقة والتعاسة في الوقت نفسه .

أسرعت للوصول إلى قسم التوصيل . ركضت نحو المحاسب وأنا أحمل العربة ، المرأة التي تعمل في الخلف نظرت إليَّ نظرةً غريبةً ، لكنّني ابتسمت لها فحسب واستمريت بالتقدم .

فجأةً رنَّ جرس الإنذار وبدأت الأضواء تومض من ضوءين صغيرين على جانبي ، مثل ضوء الإسعاف ، ثم بدأ الجميع بالنظر نحوي .

توقّفت وتركت العربة وسقطت واحدةٌ من الوسائد على الأرض ، لم أجرؤ على الانحناء لالتقاطها ، كنت خائفةً جداً .

إمرأةٌ بدينةٌ سوداء بزيٍّ رسميٍّ اقتربت مني وقالت : هلّا انتظرت هنا للحظة من فضلك .

قلت : لا بدَّ وأنّ هناك خطأ ما ، ليس لديَّ أيّة نيةٍ لسرقة أيِّ شيء ، ثم قلت اسألي المرأة عند المحاسبة التي منحتني تلك النظرة الغريبة ، لقد نظرت إليها واعتقدت أنَّها تقول لي لا بأس أن أعبر نحو قسم التوصيل .

المرأة البدينة ردّدت : أوه ، هم ، أوه ، هم ، مرّةً تلو المرّة ، وبدت كأنَّها تسخر وتنظر طوال الوقت إلى الاتجاه الآخر كأنَّها تنتظر وصول أحدٍ ما ، ثم بدا أنَّها قررت أن تأخذ زمام المبادرة وقالت : عليك اللّحاق بي من فضلك . سألتها إن كنت أستطيع

إحضار عربة التسوق ، وبدت محتارةً للحظةٍ ثم قالت : نعم .

مشينا عبر المتجر بينما نظر الجميع نحونا ، المرأة البدينة تتمختر بالمفاتيح . فكرت أن أترك العربة وأهرب ، أشكّ أن المرأة تستطيع اللحاق بي ، لكن كانت تلك الفكرة من نوع الأفكار التي تبدو رائعةً وأنت بعيدٌ عن الموقف ، عندما تكون داخل المصيبة كلُّ ما تفكر فيه هو أنَّ عليك الهرب ، لماذا لا أترك العربة وأركض بأسرع ما أستطيع؟

لكن في نفس اللحظة كنتُ ألحق بالمرأة البدينة بطاعةٍ تامة .

فتحت باباً معدنياً رماديَّ اللون ، ومشينا عبر ممرٍّ بجدرانٍ حمراء ، إلى أن وصلنا غرفةً يبدو أنَّ العمال يتناولون طعامهم فيها . لا يوجد مطبخ ، فقط ميكروويف قرب حوض المجلى وعواميد من كؤوسٍ قبيحةٍ وصحونٍ وصوانٍ .

مجلاتٌ قديمةٌ على الطاولات . طلبت مني الجلوس وأضاءت الأضواء التي رمشت لفترةٍ ثم أصبح الضوء مشعَّاً بشكلٍ مؤلم .

جلستُ على الطاولة بينما ذهبت هي لطاولةٍ أخرى وأحضرت نموذجاً وقرأته بأنفاسٍ ثقيلة ، الآن أستطيع قراءة البطاقة على معطفها ، مكتوبٌ شيلا . فكرت باليوم الذي مُنحت فيه الزيَّ والبطاقة ، وتساءلت إن حصلت عليهما في الوقت ذاته أو أنَّها اضطرت للانتظار عدّة أسابيعٍ للحصول على البطاقة .

فكرت بشعورها في أسابيع عملها الأولى ، وكيف كانت تحدِّث أمها على الهاتف وهي تسأل مئات الأسئلة عن عملها الجديد ، تخيَّلتها تكلِّم أمها عن البطاقة التي كتب اسمها عليها ، وكم بذلت مجهوداً لتبدو غير مكترثةٍ بالأمر ، وكيف استطاعت أمها أن تشعر الفخر في صوتها .

سألتني شيلا إن كنت أملك هويةً وأجبتها بلا . نظرت شيلا إليَّ للحظاتٍ ثم سألتني إن كنت أملك أيَّ نوع هويةٍ على الإطلاق وأجبت بلا ، أعتذر .

نظرت إليَّ وضغطت على قلمها ، وأدركت أنَّ علي أن أتكلم ، لذا قلت كلَّ شيء ، أنَّني وصلت إلى هذه البلدة منذ عدّة أسابيع فقط ، وذهبت إلى المدرسة هذا الصباح لكنَّ درسي الأخير كان عند الظهيرة ولدي امتحانٌ كبيرٌ غداً ، والمعلمة شعرت بالأسى علينا وقالت إنَّ بإمكاننا أن نذهب .

قلت إنَّني تمشّيت طويلاً ثم تهت وانتهى بي الأمر في المتجر ، وأخبرتها عن فكرة أن يتمَّ توصيلي إلى البيت ، وكيف أخبرني الموظّفان أن أشتري شيئاً حتى يتم توصيلي ، وهذا ما فعلته . وصفتهما لها ، الشاب الضئيل والمرأة ذات الأسنان الكبيرة ، وسألت إن كانت تعرفهما وهزّت رأسها وأجابت : لا ، لا أظن .

شعرت بالأسى تجاه نفسي ، وبدا غضبٌ في صوتي فجأة ، وتذكرت كم أنا متعبةٌ وجائعةٌ ، وكيف ، وسط كلِّ ذلك ، كنت أملك الرغبة بالركض كالمجنونة حول المتجر وأن ألتقط المزيد من

الأشياء لشرائها كما أخبراني ، وكيف جلست على كرسيّ الحمام بالقرب من بركة القيء دون تذمر .

- لكن كيف كنت تنوين الدفع مقابل كل هذا؟ سألت .

افترضت أنَّه لا بأس أن أدفع حين أصل إلى البيت ، أجبتها ، وأنَّ والديّ يستطيعان الدفع . لقد طلبا مني أن أشتري أشياءً جديدةً لغرفتي ، سيكونان سعيدان بدفع ثمن هذه الأغراض .

نظرت إليَّ وأخفضت رأسها ودونت شيئاً في النموذج وهي تهزُّ رأسها غير مصدّقة .

- أعتقد أنَّ أفضل ما يمكن فعله هو الاتصال بوالديك ، قالت .

أخفضت رأسي . حاولت التفكير بكلِّ ما حدث ، الأمر ليس سهلاً ، كالنظر في حلقةٍ متشابكةٍ من الخيوط قام أحدهم بشدّها فزاد من العقد . فكرت بالطريقة التي خطّطت فيها كلَّ شيءٍ ، ثم أدركت أنَّ كلَّ شيءٍ فشل . أردت أن أقوم بمزحةٍ جميلةٍ تغيّر نهاية هذا اليوم التعيس بشكلٍ مُفرح .

لكنّني أدركت كم بدا الأمر غبياً ، كيف اعتقدت أنَّ بإمكانهم توصيل البشر وأن يتركوني أخرج من المتجر دون أن أدفع ثمن حامل الشموع والوسائد . شعرت أنّني طفلة ، لكنّني لا أملك ذلك الوجه المحبَّب الذي يسمح للأطفال بالإفلات بأفعالهم . لا أستطيع النظر في وجوه الناس بعينَين واسعتَين

وأدعهم يشعرون بالأسى نحوي .

لا يثقون بي ، لا يفترضون أنّني أملك نوايا طيبة ، بل العكس . في عيون الجميع لست شخصاً جديراً بالثقة . أتساءل متى بدأ ذلك ، متى اعتدت على الأمر .

شعرت بالخجل الشديد ، مثل أوجا - بونجا في الغابة مع أبويها السكارى في الحيّ الشرقي ، ضحية التجارة بالبشر ، التي وصلت خليج الحرية على جذع شجرةٍ ، أو شيءٍ من هذا القبيل .

فكرت بالوسائد وحامل الشموع ، وكيف تحوّل كلُّ شيءٍ إلى كابوس ، أخرجت هاتفي وأجريت المكالمة .

وصل أبي بعد نصف ساعة . بحلول ذلك الوقت سيطرتُ على شيلا ، كنت أربح الجدال تلو الآخر . على سبيل المثال ، كنت أسألها بصوتي البريء إن كنت قصدت فعلاً أن أسرق الأغراض ، هل كنت سأمرُّ من بين مكاتب المحاسبة كالغبية؟ وعندما اشتعل جهاز الإنذار هل كنت سأقف هناك كأنّني حملٌ بانتظار أن يُذبح؟ لو كنت لصَّةً ألم يكن من المفترض أن أركض؟ سنحت لي العديد من الفرص كان بإمكاني الهرب فيها ، لكنّني لم أفعل .

شيلا قالت إنه لم يقع أيُّ أذى ، وأنَّ المتجر لن يسجّل الموضوع ، حتى أنّها مزّقت النموذج لتأكيد ما قالته ، لكنها تركت الأوراق الممزّقة على الطاولة ، ثم تجاهلتني أو حاولت

ذلك ، وقرأت في مجلةٍ حتى وصل أبي .

أبي مختلفٌ ، وجهه لم يكن كوجه أبي الذي أعرفه . سألني عمّا اشتريته ونظر إلى العربة وقال إنها جميلة ، ثم نظر إلى الوسائد وقال إنّها أعجبته ، ثم أخذ نفساً عميقاً وتفحص الحاجيّات في العربة ونظر إلى بطاقات الأسعار وقال إنَّ الأشياء رخيصةٌ بشكلٍ لا يصدق ، ثم نظر إلى شيلا التي ابتسمت له وبدت سعيدةً وتشعر بالفخر .

أصبح صوته أنعم وسألها عما حصل وأخبرته . قالت إنَّ الأمر مجرّد سوء فهم ، عندها سألتها إن كان ضرورياً أن تضعني هنا كأنّني مجرمة ، ألم يكن أسهل أن تأخذي العربة وتدعيني أذهب؟

كنت حائرةً بين الشعور بالفخر من أبي الذي ردَّد كلَّ ما قلته ، والغضب منه لتدميره للروح الحرّة . لكن لا يسعني سوى الاستمتاع به . وأدركت فجأةً أنَّها أقلُّ منه بكثير ، وأنّها على الأغلب معجبةٌ بثقته بنفسه ، وأنّها ربما تعتقد أنَّه وسيمٌ جداً .

ثم تخيلتها تتصل بأمّها آخر اليوم ، تكلّمُها بصوتٍ ميِّتٍ ومسطّح ، وستشعر أمّها بإحساسها ابنتها الذاتيّ بالقذارة .

ذهبنا أنا وأبي نحو المحاسبة . انشغلت شيلا بشيءٍ ما عند الباب المعدني ، أو ربما تظاهرت بذلك لتتجنَّب قول وداعاً . وقفنا في الصفِّ كأيِّ زبونٍ آخر ، زبونين بين المئات . نظرت نحو المخرج ورأيت أنَّ الشمس قد غابت ، لا يوجد زبائن يذكرون ما حدث

معي ، لكنَّني خمَّنت أنَّ المحاسبة تتذكرني . وضع أبي يده على كتفي وقال إنّه اشتاق إليّ . وضع أنفه في شعري كأنَّه يفتقد رائحة شعري المتسخ .

قلت إنَّني آسفة لأنّني هربت من المدرسة ، فقال لا مشكلة . قال إنَّه يتفهم ، وأنّ كلّ هذا تغييرٌ كبيرٌ بالنسبة لي ، سيكون من الغريب ألّا أُظهر ذلك بطريقة أو أخرى .

هذا ليس من شيمه ، كان أكثر ليناً ، أو بالأصح ، لينه لم يكن معتادًا ، طيبته كانت من النوع الذي أستطيع التخلص منه على الفور كورق جدران أو طلاءٍ قديم ، أخدش السطح بأظافري ويزول ببساطة . لكنّ طيبة هذه المرّة كالجدار ، مصنوعةٌ بإتقان . وضعت كلَّ الوسائد وحامل الشموع على طاولة المحاسبة التي مسحتها بالليزر وأصبحت كأنَّها وُلِدت من جديد ، وأنا أعرف أنَّني سأكون سعيدةً معها . أبي ينتظر بجانب الآلة ليدخل رقم البطاقة السري . كلُّ شيءٍ انتهى نهايةً سعيدة ، من المدهش كيف يمكن للأمور أن تتغيّر بسهولة .

انتهى أبي من الدفع واتّجه نحو المخرج ، سألته إن كنت أستطيع الحصول على قطعة شوكولاتة لأنَّني لم آكل شيئاً منذ وجبة الفطور . هزّ كتفيه وقال : لمَ لا . بدت مضحكةً الطريقة التي قالها فيها . مرَّت من قربنا امرأةٌ ونظرت إلينا بعينَين فرحتَين ، خمَّنت أنَّها تبتسم لأنَّه كان من الواضح أنَّ الإنجليزية ليست لغتنا الأم ، وبدا الأمر لطيفاً بنظرها ، أو أنَّنا بدَونا لها

كطفلَين صغيرَين يحاولان التأقلم في بلادهم الجديدة . رأتني أنظر نحوها وابتسمت لي ، أرادت أن أعرف أنَّها تفكر بنا بطريقةٍ جيدةٍ لكنَّني أردت قتلها .

لم أعد أريد الشوكولاتة . ابتسمت لأبي وقلت لنذهب إلى البيت . أعرف أنَّني جعلته يقلق ، وأنَّه سيحاول إقناعي بشراء الشوكولاتة ، لكنِّي فعلاً لم أعد أريدها ، لا أريد الوقوف في الصفِّ مرةً أخرى ولا قول كلمةٍ إضافية .

عندما وصلنا البيت كانت الشمس قد انخفضت وراء التلة ، وتزيَّنت السماء بألوانٍ كثيرةٍ وبدت باردةً ونظيفة . يوجد قاربٌ صغيرٌ قرب موقف السيارات ، وأستطيع رؤية كاترينا والرجل الذي يؤدي مهاماً كثيرةً في البيت ، لا أذكر اسمه ، يتكلمان بنبرةٍ منخفضةٍ تبدو دافئةً وخفيفة ، كان يخبرها شيئاً عن القارب . كاترينا تلبس معطفاً قديماً يبدو كبيراً جداً عليها ، وجزمة سوداء ، وتستمع للرجل ، نظرت نحوي مع ابتسامةٍ وحيَّتْني برأسها ، قالت : مرحباً عزيزتي . نظر الرجل نحوي وقال شيئاً لم أفهمه ، لكنّني ابتسمت ولوّحت بيدي .

- سيكون العشاء جاهزاً قريباً ، قالت .

قلت : جيد ، ووضعت يدي على معدتي .

ذهبت إلى سريري وتمدّدت هناك . تتسارع الأفكار في رأسي رغم أنني أشعر بفراغٍ كبيرٍ داخله ، لا شيء هناك على الإطلاق .

من بعيدٍ سمعتهم ينادون . نهضت وبدأ كلُّ شيءٍ يدور حولي ، كانَ عليَّ أن آكل شيئاً عندما مررت من المطبخ ، لكنَّني كنت متعبةً جداً . ربما هذا ما يحدث للأطفال في إفريقيا حين يتمدَّدون وينظرون نحو الكاميرا بسلام وهدوءٍ كأنَّهم صخرةٌ أو محيط ، ليس لديهم القوة للاختفاءً . ذهبت إلى الأسفل وأمسكت الدرابزين بصعوبة ، خطوةً خطوة . الطاولة تتألق بالشموع وصحونٍ كبيرةٍ جميلةٍ ، الجميع هادئٌ على غير العادة . جلست وصببت بعض الماء . لدى كاترينا آلةٌ لتنقية مياه الحنفية ، قالت إنَّها أفضل للبيئة ، وأنَّها تصاب بالجنون ممن يشترون مياهً معدنية .

انتهيت من شرب الماء وعندها رأيتهم ، كاترينا بسترةٍ بيضاء وخدودٍ حمراء . رنَّ هاتفها ، فهزَّت رأسها وذهبت نحوه فتوقف عن الرنين . سارة تنظر بعدم صبرٍ إلى أبي وكاترينا . وعندما نظرت إليها توقّفت فجأة ، كأنَّه ليس من المفترض أن أرى . نظرت إلى كاترينا واستطعت أن أراها تحدِّق في سارة .

فجأةً بدأ الجميع يتكلمون بلغتنا القديمة ، جملةً بعد جملة ، سارة كانت أكثر من أجاد الكلام ، توقّفت كاترينا عدّة مراتٍ وساعدتها سارة على الاستمرار ، يبدو أنَّهم تدربوا كأنَّهم في جوقةٍ ويعرفون الجملة القادمة .

تكلموا بموضوعٍ لمدةٍ طويلة ، نظروا إليَّ طوال الوقت . نظرت إلى أبي مرةً وكانت ابتسامةٌ كبيرةٌ تعتلي وجهه الأحمر .

قالوا كلاماً لطيفاً عني ، وأنَّهم سعداء بوجودي بينهم ، أنا أختٌ وابنةٌ ، أو شيءٌ من هذا القبيل ، ثم انتهوا . أصدرت سارة صوتاً كأنَّها أنهت سباقاً طويلاً .

- واو ، قلت .

وضحك الجميع ، وكانت خدودهم حمراء . اعتقدت أنَّني صفَّقت أيضاً . ثم قالت كاترينا إنَّه وقت الأكل . أعدّت شيئاً من الخضار والجبن على سطحه ، مع صلصة بيضاء ، لا أعرف إن أعدَّته بنفسها ، لكنَّني أعتقد أنَّها تحبُّ الطهي . كانت هناك قطع لحم أيضاً ، قالت كاترينا إنهم اشتروا اللحم من مزرعةٍ كبيرةٍ فوق التلة ، ثم أخبرتني سارة قصةً طويلةً عنها حين كانت صغيرة ، وكيف لحقت بكاترينا إلى المزرعة . كان الرجل قد ذبح مجموعةً من الخنازير منذ مدةٍ قصيرة . كانت معلقةً بخطّافٍ ومسلوخة . استمعت وأنا آكل ، وضحكت وأنا آكل ، ثم فكرت بالخنازير وبأنَّهم ربما كانوا عائلةً . وفكرت بما سيحدث لو أنَّني قلت ذلك .

لكن أشكُّ في أنّ المزارع قتل صغار الخنازير ، وشككت بالخنازير كلِّها ، ثم فكرت بكلِّ الأشياء التي قالوها ، ومن أين تعلموها كلَّهاَ ؟ ربطت ذلك بهربي طوال اليوم ، لكن أشكُّ في أنَّهم استطاعوا تعلُّم كلَّ ذلك في يوم واحد ، كيف فعلوا ذلك؟ ربما قالت كاترينا وسارة لأبي جملاً مختلفةً ، وقام هو بترجمتها وكتابتها .

عندما أكملت نصف طعامي وضعت الشوكة والسكينة وقلت شيئاً عن لغتي الإنجليزية ، وقراري بترك لغتي القديمة . أردت أن أخبرهم بما أفكر . استدرت إلى كاترينا وقلت إنَّني سعيدةٌ بمفرداتي لأنَّني أملك أذناً جيدةً وذاكرةً ممتازةً لحفظ الكلمات ، القواعد لا بأس بها بعض الشيء ، لكن من الممكن أن تتحسن ، لكنَّني أريد أن أطوِّر طريقة لفظي للكلمات ، قلت إنَّه من المؤلم أن أفتح فمي وأستمع لصوت الكلمات تخرج منه ، أشعر غالباً بأنَّه ليس صوتي ، ليست أنا صاحبة هذا الصوت ، لا يمكن أن أبدو كحمقاء ، متخلِّفة ، راعية أغنام .

لم أستخدم تلك الكلمات بالتحديد مع كاترينا ، لكنَّني فكرت فيها .

أريد أيضاً تطوير قدراتي في التفاعل مع الناس بشكل يوميٍّ وغير رسمي . لو قال سائق الحافلة شيئاً مثلاً ، لو قال نكتةً أو جاملني ، أريد أن أكون قادرةً على إجابته على الفور بدلاً من التفكير بما قاله لعشر دقائق . أعتقد أنّني أستطيع تطوير هذا كله فقط بقطع علاقتي مع لغتي القديمة . لا أستطيع أن أقول إنني أشتاق إليها أيضاً .

سألتني سارة كيف وجدت المتجر ، قلت إنه جميلٌ ، وأخبرتها أنَّ بإمكانها أن تأتي إلى غرفتي لترى الوسائد وحامل الشموع ، وأنَّ الأسعار كانت رخيصةً بشكل لا يصدّق ، ثم قالت سارة إنَّها تحسدني ، للمتجر دعايةٌ لطيفةٌ على التلفاز

تُعرض منذ بضع سنوات ، ومنذ ذلك الحين وهي تطلب من أمها أن تأخذها إلى هناك لكنَّها تقول لا .

لم أعرف بماذا أجيب ، لذا مضغت ما في فمي ونظرت إلى سارة وكاترينا ، ثم أضافت كاترينا : طبعاً يمكن أن نذهب إلى هناك ، ليس أمراً صعبًا . عندها وضعت سارة شوكتها ونظرت إلى أمها بعينَين حادَّتين ثم قالت : كيف؟ لقد قلت دائماً . . .

لكن كاترينا رفعت يدها وأسكتت سارة . قالت إنّها لم تكن تريد أن تذهب هناك في السابق لأنَّها اعتقدت أنَّه لا يحتوي على أشياء جيدةٍ ، لكن بما أنَّني تحقَّقت من الأمر فلا بأس أن نذهب .

شعرت بالسخافة لأنني فهمت أنَّ كاترينا لم ترد الذهاب لأنَّها تعتقد أنَّهم يبيعون أشياء لا قيمة لها ، قليلة الجودة ، وطبعاً محقّة . أعرف أنّ الوسائد لن تدوم إلى الأبد ، وأنَّ حامل الشموع مُصنَّعٌ في مصنع رخيص وقذرٍ في أندونيسيا أو مكانٍ آخر ، بأيدي أطفالٍ يعملّون 24 ساعةً في اليوم . لا أمانع ، ولا أهتمُّ ، فهي جيدةٌ كفايةً بالنسبة لي ، بل هي رائعةٌ! وحتى لو كنت أملك الملايين مثل كاترينا سأشعر بالغباء إن ذهبت إلى متجر وسائد وأشتري وسائد صمَّمها مصمِّمٌ مشهورٌ تكلفتها عشرات الأضعاف . أفضّل صرف أموالي على أشياء أخرى . لو اشتريت وسائد بآلاف الجنيهات سأشعر أنَّ حياتي فارغةٌ ،

وأنّني شخصٌ فاشلٌ متعطّشٌ ليُظهر للآخرين أنّه غنيٌّ وقادرٌ على شراء وسائد باهظة الثمن ، ولا أعتقد أنَّ العالم مهتمٌّ لهذه الدرجة .

فجأةً نادت امرأة من الأسفل ، ردَّت عليها كاترينا وطلبت منها أن تصعد . هل أنت متأكدةٌ؟ قالت المرأة ، فردَّت كاترينا : نعم ، تعالي عزيزتي . إنها هارييت . نهض أبي وأحضر صحناً جديداً من الخزانة ، كان واقفاً حين دخلت هارييت . عرفتها حين رأيتها ، إنها واحدةٌ من أخوات كاترينا . ترتدي فستاناً زهرياً ، قالت إنها قادمةٌ لتحذّرنا من أنَّ أمها في الطريق إلينا . اضطربت كاترينا وسألت إن حدث شيءٌ ما .

قالت هارييت شيئاً لم أستطع فهمه .

لكن لا يبدو الأمر خطيراً ، لأن الجميع يبتسم . أبي سأل هارييت إن كانت ترغب بتناول الطعام ، فأجابت : لَمَ لا .

جلست والتفتت إليّ ، قالت إنَّها سمعت بمغامرتي وأنّني أخفت الجميع . قرَّرت أن أخبرها عن جمال الطريق ، جلست وفتحت فمها واستمعت إليَّ وأعجبتني النظرة الجديَّة التي بدت على وجهها ، كأنَّني صديقتها .

هارييت تبدو أكبر من كاترينا ، وحركتها أبطأ بعض الشيء ، لكنها تبدو أكثر صحة ، ممتلئةٌ نوعاً ما ، وأعتقد أنَّ معظم الناس يجدونها أكثر جاذبيّة من كاترينا ، أتساءل إن كان أبي يفكر

مثلي أيضاً . للحظة تخيَّلت أنَّ أبي طلَّق كاترينا وتزوج هاريت ، وأنَّ العائلة انقبلت علينا وانقطعت علاقتنا بهم . هذا يذكرني بفيلم لا أذكر اسمه ، ربما لوودي ألِن . أحببت شخصاً مجنوناً بأفلامه مرةً . أعتقد أنني شاهدت كلَّ أفلامه . كان ذلك جميلاً لفترةٍ لأنَّ الأفلام بدأت تؤثر على في مظهرنا وطريقة أكلنا وتفاعلنا واحدنا مع الآخر ، كأنَّه عالمٌ جديدٌ حيث كلُّ شيءٍ مقرَّرٌ مسبقاً . وكان ذلك مريحاً بطريقةٍ غريبة . حين افترقنا بعد عدة أسابيع وابتعدت عن كلِّ تلك الأفلام شعرت كأنني في العراء من دون بيت . وافقتني هاريت وقالت إنَّ المنطقة جميلةٌ ، وأنَّها كانت تركب الخيل هناك حين كانت أصغر سنًا ، لكنها توقفت بعد أن سقطت عن الخيل . وكانت تلك المرّة الأخيرة التي تتعامل فيها مع تلك الحيوانات المريعة غير الموثوقة . ضحكنا جميعاً وسألتها عن الحادث ، وأجابتني بقصةٍ طويلةٍ ، نظرت إلى هاريت طويلاً وأحببتها كثيراً لدرجة أنني لم أركّز على قصتها .

كان ذلك سيئاً ، فحين أنهت قصتها لم أستطع أن أسألها شيئاً ، لأنَّني حينها كنت سأسألها شيئاً ليس له علاقة بالموضوع وسأبدو غبية ، وستضعني على قائمة الأغبياء داخل رأسها ، وسأبقى منبوذةً هناك مع كلِّ الأغبياء الذين لا تلتفت إليهم ولا تحدثهم .

لكن حين أسكت بعد أن تنتهي من رواية قصتها سأبدو كالغبيّة أيضاً، كأنّني لا أستطيع تجاوز موقع الغبيّة مهما حاولت.

ربما يُستحسن أن أسأل سؤلاً غبيّاً فعلاً، سيبدو ذلك غبيّاً بطريقة ممتعة، أو ربما أفضل ما أستطيع فعله هو أن أخبرها قصةً عن الأحصنة. المشكلة أنّني لا أستطيع التفكير بشيء. شاهدت حصاناً يُلاطفُ امرأةٍ مرّةً على الإنترنت، رجلان يمسكان به من الأمام وهو يقف بجانب المرأة، لكن لا يمكن أن أخبرها بتلك القصة، ولا أستطيع أن أخبرها بأيِّ قصّةٍ حتى لو كنت أعرف واحدةً، لأنّني لا أعرف إن كانت للقصة علاقةٌ بالقصة التي سردتها. لا تستطيع أن تتكلم مع الآخرين من دون الاستماع إليهم، إن فعلت ستنتهي في منطقة الأغبياء. استأذنت ونهضت وقلت إنّه كان عشاءً جميلاً. وضعت صحني في آلة غسل الصحون وذهبت إلى غرفتي.

وضعت الوسائد على السرير، أحببتها جداً، لم أفكر أنّني سأحبها بعد حادثة جرس الإنذار تلك. النقشات على الوسائد تبدو هنديةً أو شرقيةً، أو ربما مكسيكية، كأنّها مصنوعةٌ باليد. وضعت حامل الشموع على الطاولة بجانب السرير. سأطلب الشموع من أحدهم لاحقاً، لا أستطيع الذهاب الآن بعد أن غادرت تواً.

فتحت الحاسوب . هناك لديّ رسالةٌ من الذئب المستوحد . تجاهلت الرسائل الأخرى . أرسل صورةً لورودٍ حمراء تشعُّ مقابل حجر يبدو قديماً .

قال إنَّ الصورة التقطت في الكنيسة القريبة منه . الورود مميزةٌ لأنَّه لم ير وروداً بهذا اللون القاني ، وأنَّها تبقى هكذا حتى آخر الخريف .

أعلم أنَّه دوري الآن في الكتابة لكنَّني لا أملك أدنى فكرة عمّا يمكن أن أقوله . أستطيع أن أقرأ ما كتبته في السابق ، لكنَّني لا أملك الطاقة ، لدي فكرةٌ باهتةٌ عما كتبته . أخبرني قصّةً طويلةً عن الجار الذي مات ، لقد حان الوقت لأجيبه .

قلت إنّ اسم ابنتي أبريل . لقد حذرني الجميع وقالوا إنَّ إنجاب طفلٍ ليس أمراً سهلاً ، وأنّ الأطفال بإمكانهم الصراخ حتى تصابَ بالجنون ، وأنّني لن أحظى بأيِّ قسط من النوم ، وهذا يمكن أن يدفعني لفعل أشياء مجنونة ، لكن لم يكن هناك أيّة مشكلةٍ مع أبريل .

لكن حصل شيءٌ عند الولادة ، تألّمت كثيراً ، كلُّ من في المستشفى قال إنَّ الأمور مشت على ما يرام وأنّني كنت شجاعة ، لكن حين كان الألم يضرب بي كانت تهجم عليَّ أفكارٌ من قبيل أن هذه الصفقة خاسرة ، ما الذي يستحق كلَّ هذا الألم؟

كنت أعلم أنَّ أمّهاتٌ كثيرات يفكرن بالطريقة ذاتها . بعض

الأمّهات في قسم الحاضنة قلن الشيء ذاته ، لكنهم قالوه كنوع من التأكيد على شعورهنَّ بالسعادة بعد الولادة ، وأنّهنَّ سيحملن أطفالهن للعالم مثل الملك الأسد ، ويصرخن أنهنَّ لم يكنَّ يعتقدن أنَّ شيئاً في العالم يستحق هذا الوجع ، لكنهنَّ كنَّ مخطئات . أستطيع أن أخوض نفس تجربة الألم ذاتها غداً! أريد أن ألد مرّةً أخرى في أسرع وقتٍ ممكن!

هكذا تكون الأمهات ، هكذا يجب أن تكون ، سمعت ذلك مليون مرة . وفكرت ، ماذا لو أنني لم أشعر هكذا؟ (طبعاً ستشعرين) لكن ماذا لو لم أفعل؟

ولدت أبريل وجاء الأصدقاء لزيارتنا وأحضروا الهدايا ، وقفوا حول السرير وأراد الجميع حملها والغناء لها .

مع الوقت شعرت أنَّ أبريل استولت على حياتي ، وكلَّما عاشت يوماً إضافياً وأصبحت أطول بإنش واحد ، كنت أشعر أنَّ حياتي تصغر تتضاءل .

كأنني بيتٌ يحوي كلَّ شيء ، الأشياء الثمينة والرخيصة وتلك التي لا حاجة لها ، لكن حين أتت أبريل أصبح الأمر كأنَّ سارقًا انتقل إلى البيت وبدأت الأشياء الثمينة تختفي ، واحدةً تلو الآخرى ، ولا يمكن إيجادها مرةً أخرى . أنت تعلم أنَّ الأمر لن ينتهي حتى تختفي كلُّ الأشياء الثمينة ، عندها ستبقى القمامة .

حاولت التفكير بأنَّ البيت لا يتمُّ إفراغه فقط ، فقد ملأت أبريل البيت أيضاً بالكثير من الأشياء الجديدة التي لم أرها من قبل .

حاولت وحاولت .

تكلّمت مع أمهاتٍ أخرياتٍ في مجموعة الولادة ، كلُّ واحدةٍ كانت تعرف عمّا كنت أتكلّم . الجميع خاض التجربة ذاتها ، لكن كان هناك شيءٌ في الأسفل ، شيءٌ قويٌّ ودافئٌ في أصواتهنّ ، شيءٌ يتمسّكن به ، لم أسمع شيئاً مثيلاً له في صوتي .

زوجي قال كما قال الجميع ، إنَّه سمع هذه القصة مئات المرات ، وأنَّ الأمور ستتغير ، لكنَّني فكرت ماذا لو لم تتغيّر؟ (طبعاً ستتغيّر) لكن ماذا لو لم تتغيّر؟

في الكثير من المرات جلست مع أبريل في الملعب أو الحديقة وأعطيتها شيئاً لتمسكه بيدها ، ورقةً أو مفتاحاً أو كمّثرى ، ورأيت وجهها الجديَّ الذي ينظر إليّ ويطلب مني التأكد من أمان أم عدم أمانه ، ثم تبتسم قليلاً قبل أن تتفحّص الورقة أو الكُمّثرى ، وأنا أنظر إليها وأقول لنفسي : انظري أيتها االغبية ، إنَّها ابنتك ، لحمك ودمك ، لا يهمُّ إن كنت أنت البيت وابنتك هي السارق الذي يبيع كلَّ شيءٍ داخلك ، أنت سعيدةٌ لكلِّ خطوةٍ تخطوها ولا تستطيعين الانتظار حتى تأخذ شيئاً جديداً منك وتلقيه بعيداً .

هذه طفلتك التي تريدين التضحية بكلِّ شيءٍ من أجلها ، لا يوجد أيُّ شكٍّ في أنَّ هذا هو الصواب .

ثم أفكر بأفلام شاهدتها تضحّي فيها الأمهات بأنفسهنَّ من أجل أطفالهنّ ، كتُب قرأتها وأغنيات سمعتها ، وللحظة أشعر أنَّ هناك شيئًا ما يحدث في داخلي ، لكنَّ هذا يدوم طالما كنتما داخل شخصٍ آخر ، مثل ممثلةٍ مشهورةٍ رأيتها كثيراً في الأفلام أعرف ملامحها عن ظهر قلب ، لكن حين ينتهي الفيلم وتشتعل الأضواء وأعود إلى نفسي يختفي الشعور .

أذكر حين بدأ زوجي بتولّي مسؤولياتٍ أكبر نحو أبريل . سمعت امرأةً في مجموعة الولادة تقول إنها تبتسم ما أن يقوم زوجها بالاعتناء بالطفل أو إطعامه أو تغيير حفّاضاته . طبعاً كانت تعرف أنّه طفله أيضاً وأنَّ عليه الاعتناء به ، لكن في العمق كانت تريد أن تنتشل الطفل من بين يديه وتدفعه بعيداً . الجميع هزَّ رأسه وضحك مع شعورٍ عارمٍ بالاتحاد ، كنساءٍ يفهمن تماماً ما الذي تقوله .

لكن حين قام زوجي بالاعتناء بأبريل أحياناً ، لم يدفعني ذلك إلا نحو التفكير بالهرب .

ها هو ، إنه يستطيع أن يعتني بها مثلي تماماً ، ما الذي يجعلك تفكّرين أنك غير قابلةٍ للاستبدال؟ تستطيعين الهرب ، أبريل ستكون على ما يرام .

اتّصلت بطبيبةٍ نفسيةٍ وذهبت لرؤيتها ، سمعت صوتي الذي بدا كنداء استغاثة .

قالت إنَّ عليَّ التكلم مع زوجي ، قالت إنني متأثرةٌ بكلِّ هذا الحب ، الحب الذي أحمله لطفلتي ، وأيضاً الحب الذي تمنحني هي إيّاه ، وأنَّه أكثر مما أستطيع احتماله ، وأنّني أقنع نفسي بأنني لا أستحق هذا الحب وأنَّه فوق طاقتي على التحمل ، وأنَّ الحلَّ الذي أوجدته هو التفكير بالهرب وتركها ، وأنا بذلك أثبت أنَّني على محقّة .

انظر ، أنا لا أستحق حباً كهذا ، أرادت الطبيبة أن أراها مرتين أسبوعياً ، ربما تستطيع أن تساعدني . زرتها خمس أو ستَّ مرات ، كنت متأكدةً من صحة ما قالت . هي امرأةٌ حكيمةٌ ، لكنَّ الموضوع تطور كثيراً . شعرت أنَّ البيت في حالة حريق ، وهي تريد تعليمي بطريقةٍ حكيمةٍ جداً أين أضع جهاز الدخان ، وكيف أجعل بيتي آمناً أثناء الاحتراق .

فكرت بالهرب في كلِّ دقيقةٍ في اليوم ، كلُّ شيءٍ آخر ، كلُّ وجبةٍ حضَّرتها ، كلُّ ابتسامةٍ لطفلتي حين تقول شيئاً ما ، كلُّ جوابٍ قدَّمته حين سألتني سؤالاً ، كان تمثيلاً مملاً في لعب دورٍ جعلني أخسر نفسي أكثر .

ثم جاء ذلك اليوم ، أخت زوجي كانت تحتفل بعيد ميلادها ، انتقلت لبيتٍ في الريف ، يحتاج الوصول إليه إلى

ساعتين في السيارة . قال زوجي إنَّه لا داعي لمجيئي . كان يعلم أنَّني لست مولعةً بأخته ، وهي أيضاً لم تكن مولعةً بي ، وأنَّني أحتاج إلى الراحة . قال إنَّني أستطيع أخذ إجازة والذهاب إلى حيث أريد ، احضري فيلماً أو اتصلي بصديقةٍ واذهبي إلى مطعم . قال إنّه يستطيع الاعتناء بأبريل حتى صباح اليوم التالي إن كنت أريد النوم في وقتٍ متأخر ، أجبت أنه ليس مضطراً لفعل ذلك ، فأجاب أنَّه يتطلع لذلك . لقد تجاوز خوفه من ارتكاب الأخطاء وحاجته لوجودي في الغرفة المجاورة لطلب النصائح . طبعاً سيرتكب بعض الأخطاء ، لكن ماذا في ذلك؟ لن تكون تلك نهاية العالم .

أبريل ترتكب الأخطاء أيضاً ، هكذا نتعلم ، لا طريقة أخرى للتعلم ، بالمناسبة . طبعاً تستطيع التعلُّم من أخطاء الآخرين ، لكن هذا ليس الشيء ذاته ، عندما ترتكب الأخطاء بنفسك ، تحرقٍ بها جلدك ، وحتى إن نسيت الخطأ ، جسدك سيتذكر ، ويحذّرك .

سمعته يقول كلَّ ذلك ، وكان هذا كل ما كنت أحتاجه . أعرف أنَّ أبريل لن تحظى بأبٍ أفضل منه ، وأنّهما سيكونان على ما يرام .

في اليوم الذي ذهبا فيه إلى بيت أخت زوجي بقيت في الخارج طوال الوقت ، كنت خائفةً من أن أنهار وأكشف نفسي .

نظر زوجي إليَّ بمتعةٍ نوعاً ما حين كنت أمسح دمعةً ، وقال إنَّ الوقت قد حان لفعل هذا . عندما غادرا جلست وكتبت لهما رسالة ، رسالةً قصيرةً ، لكنَّني قلت إنّني سأكتب رسالةً أطول قريباً . طلبت منه أن لا يبحث عني أو يقلق علي .

لقد كتبت رسائل أطول فعلاً ، كتبت رسائل من كلِّ عواصم أوروبا ، وعندما تأكّدت أنَّه لن يبحث عني كتبت رسائل من قرى كورواتيا حيث عشت لفترةٍ طويلة .

شرحت له كلَّ شيء . طلبت منه أن يحتفظ بالرسائل ويعطيها لأبريل حين تصبح في العشرين من عمرها ، وأن يخبر عائلتي بما حدث معي . كنت واثقةً أنَّه سيفعل ذلك ، وأنَّه لا يملك أيَّة مشاعر سلبيّة تجاهي ، حسناً . بالطبع نمت مشاعر الأسى ، لكنها ليست من الصعوبة بحيث تُعجز حاملها من تحملها .

قطعت علاقتي مع كلِّ شيء .

سافرت عبر أوروبا . مرّت أوقاتٌ التقيت فيها ببعض الناس وأخرى كنت فيها وحيدةً تماماً ، مع ذلك كنت أعيش أسعد أيام حياتي .

عزيزي الذئب المستوحد ، ربما تتساءل أين حدث معي كلُّ تلك الأشياء التي أخبرتك بها في رسالتي السابقة ، أين تعاطيت المخدرات وخذلت الجميع ، وجاءتني تلك الفكرة أنَّ

عليَّ أن أغرق جداً وأصل إلى الحضيض قبل أن أنشل نفسي نحو السطح؟ أين حدث كلُّ ذلك الهراء؟ لقد حدث في ذلك الوقت بالتحديد .

لا يمكن لك أن تتبع مساراً إن لم يكن فيه ما يشدُّك إليه . كلُّ خيارٍ نتخذه يأتي مع أشياء جيدةٍ وأخرى سيئة . والحياة ليست سوى خيارات ، صفوفٍ لا تنتهي من الخيارات . لا تستطيع الهرب من ذلك . تستطيع البقاء في السرير وتغطّي نفسك بالشراشف . تستطيع أن تلقي بنفسك من فوق منحدرٍ وتموت . هذا خيارٌ أيضاً ، وربما هو خيارٌ كبير ، ربما هو أصعب الخيارات .

ابنتي مراهقةٌ الآن ، ومما أسمعه هي جيدة بخير . لا أعرف لماذا أكتب شيئاً محيّراً ككلمة «مراهقة» وأنا أعرف كم هو سنّها بالتحديد؟ لكنَّني لا أريد أن أخبرك ، لا أريد أن أخبر أحداً ، لا أعرف لماذا . فعلاً لا أعرف .

لم أر أبريل منذ وضعها زوجي في كرسي الأطفال ووضع ثلاث دمى أمامها ، وقال شيئاً عن أنَّه على الأغلب سيتوقف كلَّ فترةٍ لأن أبريل ترمي فيها الأشياء ثم تنظر نحوك وتتوقع منك أن تحضرها . أتذكر كم كان صعباً عليّ المحافظة على وجهي ثابتاً حين كانت تنظر إليَّ بتلك النظرة ، وأن أقول شيئاً جدياً كي تتوقف عن فعل ذلك ، لأنَّ ظهر ماما أصبح يؤلمها من النزول والصعود مئات المرات في اليوم ، كان ذلك مستحيلاً . تبادلتُ

الرسائل مع زوجي بين الحين والآخر ، الأمر الذي سمح لي بتتبُّع أحوالها . طلبت منه ألّا يخبرها عني ولا عن مكاني ولا عمّا أفعله ، لكنَّني أخبرته أيضاً أنَّه حرٌّ بفعل ما يراه مناسباً ، لأنَّه هناك معها كلَّ يوم ، وأنا أثق أنَّه سيفعل ما هو أفضل لها . أحياناً كنت أفكر كيفَ سيكون الأمر لو أنني التقيت بها ، لكنَّني كنت أعرف أنَّ الوقت قد فات .

كنت مرعوبةً من شيئَين ، الأول أن أقف أمامها ويكون الأمر أكثر من قدرتي على الاحتمال ، وتنفتح داخلي أبواباً لم أكن أعلم حتى بوجودها ، وأنني لن أكون قادرةً على إغلاقها مرة أخرى .

لكنّ الشيء الثاني الذي يرعبني ، أن أقف هناك ولا أشعر بشيء ، وحينها سأبدأ بالتظاهر أنّ مشاعري تطغى علي ، وآمل طوال الوقت أنَّ ادّعائي سيحفّز مشاعري على الخروج .

لكن الوقوف هناك وانتظار تدفق مشاعر الحب والتأثُّر التي لا تأتي ، وإدراك أنَّ كلَّ شيءٍ هو تمثيلٌ وادّعاء ، هذا ما لا أحتمله .

هذان الأمران المرعبان اللذان أخشى حدوثهما يبقيان عليَّ في حالة توازن ، وهما من يمنعاني من رفع سماعة الهاتف أو الصعود في القطار .

لكن للإنصاف ، مع السنوات أصبحت هذه المشاعر باهتةً وفقدت لونها وتأثيرها وقوّتها ، كأنَّها كبرت شاخت كما يشيخ كلُّ شيء . أشعر أنَّني فقدت الاهتمام أكثر وأكثر ، وأنَّ أياماً

وأسابيع وأشهراً يمكنها أن تمرَّ من دون أيِّ خوفٍ أو شعور .
هذا ما أريد منك فعله .

أعيش في قلعة ، أعيش هناك مع زوجي الجديد . حول القلعة أرضٌ كبيرةٌ حيث آخذ كلبي ليتنزه على الأقل مرةً واحدةً في اليوم ، عادةً وقت الغروب . أحبُّ ذلك الوقت حين أعود إلى القلعة مع الكلب ويكون الظلام قد حلَّ لدرجة أنَّ عليَّ الانتباه لموضع قدمي ، لأنَّ الأرض تحت قدمي مُحفّرة والصخور تُحاول الإيقاع بي .

أريدك أن تختبىء في الغابة خلف الجدول ، سأرسل لك خريطةً عندما يحين الوقت . أريدك أن تأتي قبل يومين لتتأكد من أنك تعرف المكان ، لا أريد أن أرى وجهك قبل أن يحين الوقت .

أريدك أن تظهر من خلف شجرةٍ أو صخرةٍ ، هناك الكثير من الأماكن للاختباء . أريدك أن تقترب مني ، وأن ترتدي بذلة دراجةٍ ناريةٍ بجلدٍ أسود ، أريدك أن تشتريها الآن كي لا تُحدث أيَّة شكوك .

الجلد سيحميك من الكلب ، لأنَّ الكلب سيلحق بك . لكن لا نفع منه ككلب حراسةٍ وأنت ستحمل معك آلة صعقٍ كهربائيةٍ بكلِّ الأحوال ، رأيتها على الإنترنت ، تأتي بفولتياتٍ مختلفة . يجب أن تشتري الفولتية الأعلى لأنَّها خطرةٌ على البشر ، لذلك أنا متأكدةٌ أنَّها ستقضي على كلب .

لم أستعمل هذا الجهاز من قبل، لكنّه يبدو سهل الاستخدام، وهو بحجم المصباح اليدوي.

عندما ينتهي أمر الكلب، أريدك أن تطلب مني أن أصمت، وأنني إذا فعلت تماماً ما تريده لن تؤذني، لكن إن صرخت سألقى نفس مصير الكلب. وأريدك أن تخبرني أن أفكر بابنتي. ثمّ أريدك أن تطلب مني أن أفكَّ أزرار ثيابي، لا أريد أن أبقى هناك عاريةً لأنَّ الطقس سيكون بارداً في ذلك الوقت من النهار، وإن صرت عاريةً فإنني سأقف وأرتجف وذلك سينهي كلَّ شيء. أريدك أن تأخذ حبل نايلونٍ قصيرٍ وتلفّه حول رقبتي، وتقول إنك ستستخدمه فقط إن لم أُطع أوامرك وحاولت فعل شيءٍ غبي، وتعدني أنك ستزيل الحبل ما أن تنتهي.

أريدك أن تطلق كلَّ تلك الوعود، وأن تتأكد من أنني أصدقك. انظر إلى عينيَّ بعمقٍ واحلف بكلِّ الأشياء المقدسة، احلف بقبر أمك أنك ستفي بوعدك، أريدك أن تطلب مني أن أدير لك وجهي، وأن تقف خلفي أريدك أن تجعلني أواجه الاتجاه الذي أتيت منه، حتى أبحث عن أحدٍ يساعدني، لكن لا أحد سيأتي، سأهتمُّ بذلك.

ثمّ أريدك أن تنكث بكلِّ وعدٍ قطعته، أريدك أن تشدَّ الحبل بقوةٍ من كلا الاتجاهين بأقصى ما تستطيع.

استخدم ثقل جسدك لتسقطني أرضاً، ربما ألتفُّ وأتلوّى خلال هذه الدقائق، لكنك لن تجد صعوبةً في السيطرة علي.

بعد دقائق من عذابي سينتهي كلُّ شيءٍ وسأصير في مكانٍ أفضل . فكر بي كشخصٍ سيطفو حولك حين تقف على قدميك ، وانظر إليّ ، فكرٍ بي كشخصٍ سينظر نحوك بحبٍّ وتعاطفٍ وامتنانٍ لما فعلته .

اسمع ، سأعطيك فرصة الانسحاب من كلِّ هذا إن كنت تمتلك أية شكوك ، لن ألومك . لكن إن كنت لا تزال ترغب في تنفيذ هذا المعروف الكبير ، سأرسل لك تفاصيل أكثر لاحقاً ، لا أريد إعطاءك العنوان الآن ، في حال أردت أن تغير رأيك 180 درجةً وتخبر الشرطة أو أحداً ما . أشياء غريبةٌ من الممكن أن تحدث .

بالحديث عن ال- 180 درجة ، أريد أن نتفق على كلمةٍ سريَّةٍ في حال بدّلتُ رأيي في الدقائق الأخيرة ، أو أنني لسببٍ ما أردت أن أعود إلى حياتي البائسة . عليها أن تكون كلمةً غير عادية ، كلمةً مثل «توقف» أو «لا تفعل» لن تجدي نفعاً لأنّها محفورةٌ في عقولنا ، ومن الممكن أن نقولها دون أن نعنيها .

عندي كلمةٌ أريد أن أستخدمها ، الكلمة هي «كولّكا» .

إنها كلمةٌ جيدةٌ ، الطريقة التي تُلفظ بها بالشدِّ على اللام ، اللام ليست صامتةً كما في الإنجليزية ، الثقل يكون في الجزء الأول من الكلمة «كول لَ - كا» .

أريدك أن تردِّد الكلمة على نفسك عدة مراتٍ حتى تحفظها ،

حين أقف هناك على أربعةٍ وأنت تعذبني ، سيكون الوقت يركض ، وعندما تنتهي سيكون الوقت قد فات ، إن لم أكن قد قلت الكلمة حتى ذلك الوقت أريدك أن تكمل المهمة .

هناك من يدقّ الباب . لم أكتب شيئاً منذ فترة ، لم أرسل الرسالة بعد ، لم أقل وداعاً للذئب المستوحد .

نعم ، قلت .

صوتي متوازنٌ وعالٍ مثل الرعد في الصمت .

إنها سارة . طلبت منها أن تدخل . تبدو أصغر من العادة ، أنحف . قلت ذلك لها ، أنَّها نحيلةٌ جداً ، وأنَّ عليها أن تكتسب بعض الوزن . عندما ضحكت لاحظت أنَّ لديها أسناناً أماميةً كبيرةً ، وهذا يجعلها تبدو أصغر ، إنه ذلك الوقت من العمر الذي تذهب فيه أسنان الحليب وتنمو الأسنان الجديدة وتكون أكبر من وجهك .

جلست على السرير ونظرت إلى الوسائد ، لَمستها برفقٍ بأصابعها وقالت أنَّها لطيفةٌ جداً . سألتني عن سعرها وكان من الغريب أن لا أتذكر .أردتها أن تكون رخيصة ، لكن ليس رخيصةً جداً . ستنظر إليها كأنَّها متفاجئةٌ وستشعر أنَّها ليست جميلةٌ لأنَّها ليست غاليةً ، لكن إن كانت رخيصةً جداً ستفقد احترامها لها . قلت إنني أملك الفاتورة في مكانٍ ما ، وقالت إنه غير مهم . نهضت عن السرير وجلت في الغرفة بحثاً عن الكيس

من المتجر الذي لا بدَّ وأنَّ أبي أخذه ، ثم جلست وقلت إنَّ أبي دفع ببطاقته . ابتسمت سارة ولم تقل شيئاً ، لكنَّني فكرت بالنقود وأنها نقود كاترينا ، وكم هو غريبٌ أن أجلس وأتظاهر أنّني شيءٌ عظيمٌ بينما المال هو مال كاترينا ، الذي سيصير يومًا مال سارة ، وكلُّ ما أفعله أنني أجلس وأدَّعي أنني شيءٌ عظيمٌ بينما أنا أصرف مال سارة .

حاولت أن أجادل نفسي بأنَّ أبي ربما اشترى هذه الوسائد بأمواله الخاصة . هو لم يكن يوماً غنياً أو شيئاً عظيماً ، لكنّ هذا لم يكن لينفع لأنَّنا هنا في إنجلترا ، وأبي لايمكن أن يصرف من نقوده الخاصة .

ها نحن مرةً أخرى ، أتساءل إن كانت سارة تفكر بالمال ، أو أنَّها متحرّرة من ذلك . أعتقد أنني اكتشفت شيئاً عظيماً حول الثراء . الأمر لا يتعلق ببركة سباحةٍ أو حقائب غوتشي أو ساعة رولكس . إنه المفتاح لحياةٍ جديدةٍ لا تفكر فيها حتى بالمال ، تترك الأمر فحسب ، وعندها تبدأ بالتفكير بالأشياء الأخرى . أعتقد أنَّ هذه هي الحرية ، حرية التفكير بأيِّ شيءٍ عدا المال ، يقترن بالكثير من المنافع . هذه الحرية تمنحك المزيد من الحرية والجمال ، تمنح ملامحك جمالاً خاصاً ، لوجهك وبشرتك وجسدك . تندفع إلى العالمُ وتصبح ذلك النوع من البشر الذي يريد الناس أن تكون يكون معه . يريدونك وزبونًا ، وزميلاً في العمل .

يبدو جيدًا في البداية ، ويستجلب معه المزيد من المنافع .

سارة جالسةٌ على السرير والحاسوب مفتوحٌ وينساب اللون الأزرق على الشراشف ، لكنَّ سارة تنظر بثباتٍ نحوي وتشبك يديها حول ركبتيها .

جلست بجانبها وأغلقت الحاسوب بصفعةٍ سريعةٍ وأريتها حامل الشموع . حملته بعنايةٍ كأنَّها بيوض عصفورٍ ، ونظرت إليه في يديها ، قالت كلماتٍ مثل «جميلٍ» و «ثقيلٍ» .

سألتها أيَّ واحدٍ أحببتَ أكثر ، رفعتَ الأخضرَ وابتسمت ، وقالت هذا .

- يمكن أن تأخذيه ، قلت .

- لا ، لا ، لا أستطيع .

- طبعاً تستطيعين ، أريدك أن تأخذيه .

ضغطت شفتيها ببعضها ، ثم منحتني ضمّتني ضمةً سريعةً وهمست ، شكراً . جلسنا لفترةٍ ونظرت إلى شمعتها ثم شعرت بشيءٍ ، كأنَّ حامل الشموع هذا قد أفسد شيئاً ما .

- انظري ، أنا فقط أريد أن . . ، قالت .

صمتت لفترةٍ ثم نظرت إلى حامل الشموع ، ثم تكلمت مرةً أخرى .

- فكرت بما قلتِه ، تعلمين ، في الليلة الفائتة .

- عمَّ؟

سألتني عن ، تعرفين . . .

قالت بهدوءٍ ، كانت الكلمات تخرج هشَّةً كأنَّها فقاعةٌ من فمها .

نظرت إليها ، أتساءل ما الذي تريده ، تبدو كطفلٍ صغيرٍ وتجلس على حافة سريري كطفلةٍ وأشعر بقلق لسماعها تقول ذلك .

- نعم ، أجبت ، حسناً .

- كنت أفكر ، لدي شعورٌ أنني جبانة ، كنت تفتحين لي قلبك ، وأنا كنت . . .

- لا تهتمي ، لا يهمّ .

- أريدك أن تعرفي أنني أفعل ذلك ، أحياناً ، وأنا أحبه .

- حسناً ، قلت .

العرق يتصبَّب مني ، جلست أستمع إليها تتكلم بصوتها الخفيض ، ولا أعرف كيف أتصرف .

سألتها إن كانت هاربيت لا تزال في الأسفل . بدا عليها الارتياح ، وقالت إنَّ جدّتها وصلت أيضاً ، وأنَّها أحضرت حلوياتٍ يجب أن أتذوقها .

قالت اسماً لم أسمعه من قبل ، وأضافت أنَّه كعكٌ من إيطاليا ، وأنَّ جدّتها أحضرته حين سافرت إلى هناك قبل سنواتٍ ، وأنَّها أغرمت به وأصبحت جدتها تشتريه لها خصيصاً من متجرٍ إيطاليٍّ في لندن .

نهضت سارة وشكرتني مرةً أخرى على حامل الشموع

وغادرت الغرفة . سمعت خطواتها الراكضة .

شعرت بالسعادة لأنَّ سارة أحبت حامل الشموع ، جعلني ذلك أشعر أنني شخصٌ جيد . أتمنى فقط لو أنَّها لم تخبرني بالشيء الآخر ، لقد ظلَّ صداه في الغرفة كأنَّه اتهام .

تمدَّدت على السرير وفتحت الحاسوب وقرأت رسالتي للذئب الوحيد . حضّرت أصابعي على الأزرار وجمعت أفكاري لبرهةٍ ، ثم أرسلته ، لقد ذهب .

عليَّ أن أنزل إلى الأسفل ، إن لم أفعل سيبدأون بالكلام ، أعرف ذلك . المطبخ فارغٌ ومظلم . نزلت أسفل إلى القاعة الكبيرة ، توقفت وحاولت الاستماع إلى الأصوات ، لكنَّني لم أسمع شيئاً .

مشيت نحو الجزء الأيسر من البيت ، لم أذهب إلى هناك سوى عدَّة مرات ، السجادة سميكة ، لونها أخضر ، على الجدران لوحاتٌ تبدو من أمريكا الجنوبية ، ملوكٌ بأنوف بنيَّةٍ يلوّحون ويشيرون كأنَّهم يحذّرون من شيء ، وأمامهم عبيدٌ يجرون قطعةً كبيرةً من الخشب . أتساءل إن كانت هذه اللوحة سياسية ، وإن كانت كاترينا اشترتها من شخصٍ يساريٍّ أو رجل عصاباتٍ ، وإن كانت تلك طريقتها للقول إنّ الأمور كانت هكذا ، وإنّ هناك أمورٌ لا تتغير . لكنها كانت ستكون الملكة في ذلك الوقت ، وهي لا تزال كذلك .

الفرق الوحيد أنَّها ترتدي معطفاً سويدياً من جلد «الشاموا» وجزمةً ، وتلقي النكات على الرجل الذي أحضر لها قطعة الخشب ، لكنها لا تزال صاحبة السلطة .

ولو أنَّها ليست الملكة ، فستكون متزوجةً من شخص يملك جزءاً كبيراً من المملكة ، أو صاحب كنز أو شخصاً قريباً من الملك ، شخصاً يملك رقم هاتف الملك ، إن كان وجدت هناك الهواتف في تلك الفترة . فتحت الباب وقفز السواد في وجهي . أشعلت الضوء ، الغرفة أشبة بغرفة طعام مع طاولة بلوطٍ كبيرة ، أو نوعٍ آخر من الخشب الغامق ، ربما خشبٍ من الغابة المطيرة . ربما وقف ملكٌ هناك وأشار وصرخ على العبد ليأتي بقطعة الخشب تلك من الغابة ، لكن بحذرٍ من دون أن يخدش تلك القطعة الثمينة لأنَّها ستصبح طاولة طعامٍ جميلةٍ يوماً ما ، وهذا وذاك سيجلسون حولها ويشربون ويأكلون ويتناقشون .

وقفت في الغرفة وتمتَّعت بجمود الأشياء ، تسمَّرت في وجه الملوك والأشباح الذين ارتعبوا من وجودي . أردت إخبارهم أنني أعيش هنا ، وآكل وأتغوّط . يستطيعون التحديق فيّ كما يريدون . أشعر بالحماسة كأننا في رحلة مع المدرسة ودخلنا فجأةً في إلى متحفٍ ، والجميع سعداء ويشعرون بالملل في الوقت نفسه ، ثم أهرب وأجد غرفةً في قلعةٍ حيث لا أحد يستطيع أن يجدني . ثم

جاءتني تخيلاتٌ عن بقائي هناك ، حتى يأتي الحارس الليليُّ مع كلب من فصيلة «الجِيرمان شَبرد» ومصباحه الضوئي ، لكنَّني سأختبئ منه . وإن وجدني سيكون عليَّ ربما قتله ، لكن هذا ليس خيالاً والقلعة هي ملكي .

عدت إلى الصالة وكان كلُّ شيءٍ على حاله ، لا صوت .

فتحت باباً في الوسط فسمعت شيئاً . مشيت في غرفة فيها كتبٌ وكراسٍ وحاسوبٌ قديمٌ على الطاولة ، يبدو أنَّ أحداً لم يستخدمه منذ فترةٍ طويلة . منظره جعلني أشعر بالبرد . وهو أمر حمّلت كاترينا ذنبه . فهي مسنّة وقبيحة ومخلوقةٌ من قبل التاريخ ، وتفكر مثل بقية الكبار في السن الذين يظنون أنَّه من الغباء التخلص من شيءٍ وهو لا يزال يعمل .

كنت أعلم أنَّه لو كان هناك حاسوبٌ حديثٌ على الطاولة كنت سأقلب الأمر ضدّها أيضاً ، فهي كانت ستبقى مسنّة وقبيحة ومخلوقةً من قبل التاريخ ، لكنَّها تتظاهر بأنَّها ليست كذلك ، وهذا سيجعلها منافقةً ، أليس كذلك؟

هناك رجلٌ كبيرٌ في صورةٍ بالأبيض والأسود بجانب الحاسوب رجلٌ مسنّ ، يرتدي قبَّعةً كبيرةً ويشير إلى رجل يضع غليوناً في فمه ويبدو أنَّه في وسط الكلام ويلقي ملاحظةً ساخرة . ربما هذا هو الجدُّ الذي ساعد شامبرلين على بيع أوروبا

لهتلر . أتساءل ماذا كان سيقول لو أنَّه كان هنا الآن ويستطيع أن يخرج من الصورة؟ ربما نظر إليَّ وفهم كلَّ شيءٍ ، ولم يكن هناك من داعي للادعاء .

عندما وصلت نهاية الغرفة سمعت صوتاً وفتحت الباب ، وقفت وسط دفيئةٍ وكانت هناك في كلِّ مكان منها نباتاتٌ وأشجارٌ في كلِّ مكان . نباتاتٌ بأوراقٍ مخيفةٍ وأصابع طويلة . أعتقد أنَّها شجرة تين . ولكنَّ هذا غريب! لو أن أوراق التين بدت هكذا في الجنة فأنا متأكدةٌ أنَّ حواء كانت سترى أعضاء آدم من طرف الورقة ، لكن أليس هذا هو المطلوب؟

يوجد مدفأة حطبٍ في نهاية الدفيئة ، وسجادةٌ في المنتصف .

هنا ، صرخت كاترينا .

يجلسون على كراسٍ كبيرةٍ أمام المدفأة ، هذا لك ، قال والدي وأشار إلى كرسيٍّ بينه وبين هاربيت .

أمها نهضت وحيَّتني وقبَّلتني ، وقبَّلتها في المقابل ، وشممت رائحة عطرها الذي كان أخّاذاً . اجتاحتني رغبةٌ بفتح فمي وتناول نسمة من عطرها لأنني أردت للرائحة أن تبقى معي .

أخبرتها أنني أحببت عطرها ، فلمست أذنيها وقالت شكراً ، ثم حاولت تذكر اسم العطر . عندها فكّرت أنَّها ربما تعتقد أنني مدحته لأنني أريدها أن تشتري لي زجاجة ، قلت فوراً : لا يهم .

لكن هاربيت تذكرت الاسم وردَّدوه أكثر من مرةٍ ، عندها

عرفت أنَّ أحدهم سيشتري لي زجاجة - أبي ، كاترينا ، هارييت ، أو أمها أو حتى سارة ، عندها ستكون رائحتي كرائحة امرأةٍ عجوز . الكراسي مصنوعةٌ من القصب وتصدر الكثير من الأصوات . حين تجلس تشعر أنك تغوص فيها . توجد في الوسط منضدة عليها كؤوس شاي وكعكٌ وصحونٌ وملاعق وشموع . لكنَّني لم أستطع تحديد نوع الكعك . سارة جاثيةٌ على ركبتيها تقطع لي قطعة ، ذكرت اسم الكعك مرّةً أخرى لكنَّني لا أستطيع سماعها . طبعاً أسمعها لكن من المستحيل أن أحتفظ بالاسم في عقلي .

جدّة سارة نشيطةٌ وتشبه السنجاب . سألتني كيف أتأقلم مع حياتي الجديدة ، فأجبتها أنني أتأقلم بسهولة . نظرت إلى النار ، لم أسمع ما يقولونه لكنَّني لا أعتقد أنَّهم يقولون شيئاً ، كلُّهم يعرفون ما يقبع خلف كلماتي ، وأنَّ كلَّ ما أقوله ليس حقيقياً ، وهو ليس كذلك بطريقةٍ جيدةبالمعنى السلبيّ للكلمة ، بل هو فقيرٌ وكئيبٌ أيضاً .

المدفأة بيضاء وتبدو من العصور الوسطى . على الرفِّ هناك شمعةٌ ترفُ . وأستطيع الآن أن أميِّز أنَّها الشمعة التي أعطيتها لسارة . تُخرج ضوءاً أخضر فوق المدفأة ، وتبدو كشمعةٍ روحيةٍ ترقص هناك لأجلنا ، طويلةٍ ونحيلةٍ وملتوية . أكلت بعضاً من الكعكة ، ثم فهمت أنَّ سارة جالسةٌ هناك تنتظر رأيي فيها .

يوجد شيءٌ ما في الكعكة يبدو هامًا ، شيءٌ عليَّ أن أكون جزءاً منه ، مسألةٌ عائلية ، لذا تذوقتها وأدرتها في فمي . بدت كقطعة من نخاع لا طعم لها ، فيها قطعٌ صغيرةٌ من اللوز . هززت رأسي وابتسمت وقلت ممم . عرفت ذلك ، قالت سارة ، وذهبت صعوداً ونزولاً على الكرسي الهزّاز ، كانت سعيدةً جداً لأنني أحببت الكعكة .

فكرت بما اعترفت به منذ قليل ، ثم فكرت أنَّ الأمر لم يكن بهذا السوء في كلِّ الأحوال . يوجد خيطٌ بيننا الآن لم يكن موجوداً منذ أيام . فكرت بالأحداث العشوائية التي تشعر أنَّها مترابطةٌ إن نظرت إليها من بعيد . أنا متأكدةٌ من أنَّني ما كنت سأعطيها حامل الشموع لو أنَّها لم تقدم على ذلك الاعتراف . أتساءل لو أنَّني أخبرتها أن الحدثين مرتبطان ، اعترافها وحامل الشمع ، لو أنَّني سألتها إن كان الأمر يستحق الاعتراف . في البداية أنا واثقةٌ من أنَّها ستعتقد أنَّه يستحق ، لكنها ستشكك بالأمر بعد مدة . سارة لا تفكر في الحياة ضمن تلك الشروط ، المتاجرة والمساومة في العلاقات ، تعتقد أنَّها طريقةٌ مبتذلةٌ لعيش الحياة . طبعاً تفكر هكذا لأنَّ أسرتها تفكر بهذه الطريقة ، لم يتحتَّم عليها الاختيار فعلاً .

فكّرت بالرسالة التي أرسلتها للذئب المستوحد ثم فكرت بسارة ، ستحصل دائماً على من يعتني بها . سيقفون في صفٍّ

طويل للاعتناء بها ، ستذهب إلى أفضل المدارس وسيأخذونها إلى أفضل الأطباء النفسيِّين في المدينة . دائماً ستجد من يعرض عليها أفضل الوظائف ، إلا طبعا إن اعتبر شخصاً وضيعاً ولا يرتقي لمستوى عائلة سارة .

جاءت فتاةٌ إلى صفّي حين كنت بسنّ سارة . شعرنا بالفضول نحوها لأنَّها كانت ضخمةً جداً ، حتى أن صدرها بدأ يظهر في تلك السنّ الصغيرة . شعرها متموّج وتضع نظاراتٍ كبيرة ، اسمها جانيت .

عاشت جانِيت في ميتم طوال حياتها ، لكنَّ عضواً جديداً في مجلس المدينة قرر أنَّ الأيتام يجب أن يختلطوا ببقية الأطفال في المدارس العادية ، ليصبحوا أكثر استعداداً للحياة في الخارج . فسَّر أبي ذلك في طريق عودتنا إلى البيت ، وقال إنَّ عليَّ أن أكون لطيفةً معها ، فهي لم تكن مهيّأةً لهذه الحياة التي نعتبرها نحن أمراً مفروغاً منه .

أذكر أننا كُنَّا متحمسين لوجودها في الصف ، ثم أصبحنا غاضبين من وجودها . طريقتها في الكلام كانت مضحكةً ومزعجة . قال أبي إنّها تتكلم هكذا لأنَّها ليست معتادةً على الكلام مع الآخرين .

في البداية كنَّا نطلب منها إعادة كلامها مرةً أخرى ، ثم بدأنا نهملها ونقول لا تهتمِّي .

المعلمة بدت غاضبةً من وجودها أيضاً . مرةً سمعتها تقول

لمعلمةٍ أخرى إنَّ العمل كان كثيراً حتى قبل أن تأتي جانيت للصف ، والآن أصبح لا يُحتمل ، فهي لا تملك الوقت لمساعدة الطلاب الآخرين بسببها .

اكتشفنا أنَّ جانِيت لا تنظّف أسنانها يومياً ، وأنّ على سروالها بقعٌ من الدماء ، قال أحدهم إن مناديلاً غارقةً بالدماء محشورةٌ في ملابسها الداخليّة .

بعد أشهر معدودة رحلت جانيت ، المعلمة قالت إنها انتقلت لمدرسةٍ تناسبها أكثر . عندما رحلت تكلّمنا عنها كثيراً ، وبدأنا ندرك كم كانت مهملةً طوال حياتها ، وكم هو مأساويٌّ أنَّ أحداً لم يعلّمها أن تنظف أسنانها أو أن تستخدم الفوط النسائية .

قال أحد الأولاد إنّها كمن أُسقِط على جزيرةٍ مهجورةٍ لعشرة أعوام ثم أُخرِج منها ، وتوقّع منه الجميع أن يذهب إلى مدرسةٍ عاديةٍ مع أطفال عاديّين .

فكرت كثيراً بالأمر ، وفكرت بشخصياتٍ مثل روبنسون كروزو الذي عاش في جزيرةٍ مهجورةٍ ، وماوكلي الذي كبُر في الغابة ، وطرزان الذي كبُر مع القرود وكان يضرب صدره ويصرخ مثل الغوريلا .

فكرتُ بكلِّ تلك الشخصيات التي يحبُّها الأطفال ، وشاهدوها في أفلام واقتنوها على شكل دميً محشوّةٍ وعلى شكل أقلام ، وكيفَ أنّنا ، عندما يدخل حياتنا أحدٌ عاش فعلاً مثل ماوكلي أو روبنسون كروزو ، فإننا نريده خارج حياتنا فوراً ،

ونفكر فيه كشخص مقرف . كنت أتساءل لماذا لم تكن جذابةً مثل طرزان أو مبتكِرةً كروبنسون كروزو ، ربما كانت كذلك لكننا لم نلحظ الأمر خلف تلك الأنفاس الكريهة والمناديل الورقية في ملابسها الداخلية .

عندما تفكر بالأمر ، أن تحشو المناديل الورقية في ملابسك الداخلية ، إنه شيءٌ مبدعٌ ومبتكر!

كم هو عمر جانِيت الآن؟ ربما هي في التاسعة عشرة أو العشرين ، أتساءل إن عادت إلى الميتم ، وإن حظيت بصديقٍ ، أو ربما قد تزوّجت .

أتساءل إن علَّمها أحدٌ كيف تنظف أسنانها أو تستخدم الفوط النسائية ، وأتساءل إن كان من الرّحمة قتلها هي وجميع الأطفال في الميتم . سمعت مرةً أنَّ أكثر ما يخشاه البشر هو النَّبذ والابتعاد القسري عن الآخرين ، وأننا طوَّرنا خوفاً نحمله معنا منذ ملايين السّنين : إن لم يرغب من حولنا في بقائنا معهم ، فنحن على الأغلب سنموت .

أفكر بجانِيت وبقية الأيتام ، بالتأكيد من المؤكّد أنّهم شعروا بأنَّهم منبوذون طوال حياتهم . ثم أدركت فجأةً أنني مخطئة ، فطالما هم يعيشون في الميتم ، على الأغلب لم يخطر في بالهم على الأغلب أنَّ هناك ما هو غير طبيعيٍّ بشأنهم . الجميع يفهم لغتهم في الميتم ، ولم يعرف أحدٌ هناك أنَّ رائحة أنفاس جانيت كريهةٌ لأنَّها مماثلةٌ لرائحة أنفاس الجميع .

وربما فكروا أنَّ جميع النساء يحشرن المناديل الورقية في ملابسهنَّ الداخلية عندما تأتيهم الدورة الشهرية .

إذاً ، الخطأ كان بإخراج جانِيت من الميتم وجعلها تدرك أنَّها شخصاً غير طبيعي ، وأنَّ هناك الملايين من الأشخاص في الخارج ، وكلُّ الذين قابلتهم أداروا لها ظهرهم وأرادوها أن تختفي .

ثم فكرت بكلِّ الأشخاص الذين يشعرون أنَّهم منبوذون في العالم ، وإن كان من الأفضل موتهم . لكنَّني فكرت أيضاً بعالم جانِيت الصغير في الميتم ، وأنَّ هناك دائما مكاناً لكلِّ شخصٍ وجماعةٍ من الناس تشعر فيها أنَّها مقبولة .

إنها نظريةٌ جميلةٌ ، أو أنَّها جميلةٌ بشكل مبالغ فيه . لكنَّما أهمّيّة أن تكون في المجموعة المناسبة ، وما مدى الدمار الذي ينتج لو أنك دخلت مجموعةً وأدار الجميع لك ظهره؟

وفكرت أيضاً بالمسؤولية التي تتحتَّم عليك إزاء أشخاصٍ مثل جانِيت ، وذلك السياسيُّ الحقير الذي أراد أن يصنع من نفسه بطلاً بذلك القرار ، وكيف جعل جانِيت تدرك كم هي غير صالحة للعيش في هذا العالم ، وربما تسبّب في دمار عالمها .

لكنَّني فكرت أيضاً بكلِّ ما حدث لنا في الصف ، نحن الذين أُعطينا فرصةً للقاء شخصٍ كجانِيت ، والأفكار التي دارت في أذهاننا ، والتي لم تكن لتخطر لنا لو أننا لم نلتقِ بها ، التي حوّلتنا أشخاصاً أكثر وعياً بالأيتام ، وربما ستدفع بأحدنا

إلى أن يجعل ظروف دور الأيتام أفضل في بلادنا . لهذا ، على المدى البعيد يكون قرار السياسيِّ الحقير قد ساعد الأيتام .

المشكلة الوحيدة هي تضحية جانِيت من أجل الأجيال القادمة في الميتم ، مثل المسيح . والسؤال الذي يمكن طرحه الآن هو هل الأمر يستحقّ ذلك؟ لكن لم يسألها أحدٌ إن كانت تريد التضحية بنفسها . ربما لا تستطيع! يجب أن تسأل الناس إن كانوا يريدون التضحية بأنفسهم لأنّهم سيقولون لا دائماً ، وبذا لن يحصل أيُّ شيءٍ جيدٍ أبداً .

ربما أنا جانِيت بطريقةٍ ما ، الآن ، وأنا أجلس هنا وآكل الكعك وأنظّف الصحن بملعقتي الفضية ، لكنّني لا أعرف بمَ سأضحي ولأيِّ سبب . نحن لا نعلم أبداً ، ولا يوجد طريقةٌ لمعرفة ذلك . نستطيع فقط أن نأمل أنَّ أحداً من الأجيال القادمة سوف يعرف أكثر عنّا وكيف عشنا وماذا فعلنا ، وما فعله أبيٍ ، وكيف تزوج كاترينا وانتقل إلى بلادٍ أُخرى ، وعواقب كلِّ شيء ، وأنني لم أكن فقط شخصاً ضحّى البتّة ، لكنّني كنت إنسانةً أيضاً .

هناك شيءٌ معقدٌ حول أن تكون إنساناً بين الملايين من البشر ، يصيبني الأمر بالدوار . وأتساءل إن كنت سأقبل بالمجيء إلى الحياة لو أنَّ أحدًا أخبرني بكلِّ هذا . كنت سأتقوقع داخل أمي رافضةً الخروج ، وسأبقى هكذا حتى تموت وأموت أنا معها .

أعتقد أنَّ فكرة الموت هناك في داخلها وأخذها معي هي أكثر الأفكار التي راودتني إسعادًا منذ وقتٍ طويل . ربما جزءٌ من رسالتي للذئب المستوحد علِق في رأسي كأنَّه فايروس .

نهضت كاترينا وسارة إلى زاويةٍ في الدفيئة وأرتا الجدّة بعض النباتات التي زرعتاها هي وسارة في بداية العام .

لم أرغب بالمتابعة ، لذا بقيت أمام النار مع هاريت . نظرت إلى النار فيما تخرج الأصوات من الجهة الأخرى . هاريت تتنهد وتتثاءب . من المثير أن أجلس معها وحدنا . لكن في الوقت ذاته أريد أن أذهب إلى غرفتي . شيءٌ ما يمنعني ، أعرف أنَّ هناك أمرًا ما سيحدث قريباً ، وأنا أتوق إلى ذلك لكنَّني لا أتحمّله . عليَّ أن أعطي نفسي سبباً مقنعاً للبقاء على الكرسي ، وقد قررت أنَّه من الجيد أن أصبح صديقةً لهاريت ومصادقتها لأنَّ أبي سيقع في حبِّها بسهولةٍ .

نظرت إليها من زاوية عيني ، وكانت هناك نظرةٌ رائعةٌ على وجهها نظرةٌ رائعةٌ . كان وجهها مشوياً تماماً من إحدى الجهات ، وهناك ابتسامةٌ وعلى شفتيها ابتسامةٌ ، عيناها تبدوان تعيستان وكئيبتان . كانت تنظر إلى النار طوال الوقت كأنَّه المشهد الأخير في فيلم حزينٍ وكئيب .

تنهَّدت مرةً أخرى ثم نظرت إليَّ وسألتني إن كنت أشتاق إلى بلادي . أجبت أنني لا أفعل ، لكنَّني أردت أن أمنحها شيئاً إضافياً ، لذلك قلت لها إنني أتوتر لأن الجميع يسألني

السؤال ذاته مراراً وتكراراً ، ولا يهمُّ بما أجيبهم ، لأنني حين أخبرهم بأنني لا أشتاق لها يهزُّ الناس رؤوسهم من دون قول شيء وينظرون نحوي كأنَّهم لا يصدّقونني ، وأشعر أنني أجبت إجابةً خطأ ، وأتساءل لماذا طرحوا السؤال إن كانوا يتوقّعون إجابة ما مقدمًا .

ضحكت هاربيت وبدت مستمتعةً . وقالت إنها تعرف ما أعنيه ، وأنَّ الناس حين يتحدّثون مع مهاجرٍ فإنهم يريدون أن يشفقوا عليه أو عليها . وهذا على الأغلب إشارة خوف . إنهم يخشون من المهاجر لكنهم يريدون السيطرة على الأمر .

قلت إنَّ هذا يبدو صحيحاً .

وسألتها إن التقت بعددٍ كبيرٍ من المهاجرين ، فقالت إنها عملت في إحدى المنظمات التي بدت هامّة ، شيء مثل الأمم المتحدة . كنت أنظر وهي تخبرني بالأمر وأحاول ألّا أبدو غبية . ثم نظرت بعيداً وقالت إنَّ ذلك كان منذ زمنٍ بعيد .

أردت أن أسألها حول تلك المنظمة لكنَّ كان عليَّ أن أنهي الأمر فوراً لا لكي لا أنتهي في منطقة الأغبياء ، فأنا لم أعد قلقةً من الأمر كما كنت عند العشاء ، بل لأنّني أحسست بأنَّ الموضوع أزعجها .

سمعت صوتيهما خارج الدفيئة ، ورأيت ضوء مصباح يتحرك فوق الزجاج ، الأمر الذي جعلني أشعر أنني سجينةً أو فراشةً أو خفّاشاً ، وأنَّهم يصوّبون علينا من الخارج بمسدس ، ثم

سمعت صوت سارة السعيد ، وتحرك الضوء نحو وجهي وبقي هناك ، وفهمت أنَّ سارة هي من تحمل المصباح .

كاترينا قالت شيئاً ، فتحرّك الضوء عن وجهي .

التفتُّ إلى هارييت وقلت إنه ليس هناك الكثير لأشتاق إليه على كل الأحوال .

ضحكت قليلاً وقالت إنها تفهم ما أعنيه ، وأنَّها كانت في المدينة من قبل وهي «ميّتةٌ» تماماً .

هززت رأسي وابتسمت ونظرت إلى النار ، وشعرت أنَّ وجهي تحوّل إلى الأحمر .

- لا شيء يستحق أن تفتقدي إليه ، قالت .

أسمع من صوتها أنَّها تنظر نحوي وكأنَّها تتوقع مني شيئاً . نظرت إليها فضحكت وقالت إنها تمزح .

قالت إنها كانت في بلادي ، وهي تعتقد أنَّها جميلة جداً ، لكنها أرادت أن تُظهر لي أنَّ الموضوع حساسٌ جداً . نستطيع أن ننتقد بلادنا كما نريد ، لكنَّ هذا ليس امتيازاً للجميع . إنه امتياز تحصل عليه بولادتك هناك ، أو على الأقل لقاء العيش فيها لسنوات طويلة .

الجيد في الأمر ، قالت هارييت ، لأننا حين ننتقد بلادنا فنحن نعرف عمّا نتكلم ، ويوجد ما هو بنّاءٌ في انتقادنا ، نحن في النهاية نريد أن نطوّر بلادنا ، لكن حين نزور بلاداً ما لأسابيع فإننا لا نهتمُّ فعلاً لما يحصل هناك ، الأمر أصعب على من

يعيش في تلك البلاد ، وهذا عادل .

هززت رأسي واستمعت لها وكنت مهتمّةً بكلِّ ما قالته ، لكنَّ خديّ لا يزالان أحمران . وأشعر أنَّ ما فعلته كان مُحرّماً ، كأنَّها لعبت لعبةً قذرةً ، وسحبت الكرسي حتى أقع على مؤخرتي بقوةٍ وأتألّم ، وعليها أن تعلم أنني طفلةٌ ولا يجب معاملتي هكذا .

نظرنا إلى النار . ذكرت أسماء أماكن زارتها في بلادي القديمة ، هززت رأسي فقط . ذكرت العديد من الأسماء ثم حاولت أن تتذكر ، لذا كان عليَّ الانتظار لتذكر اسماً جديداً ، ثم قالت :

- كولكا .

أمسكت أنفاسي وسحبت شوكةً من الصينية ولحستها ، وانتظرت الاسم التالي .

لا بدَّ وأنَّ هناك اسماً جديداً . أتساءل إن كانت قد سمعت الاسم من أختها ، وكم سيكون احتمال ذكرها للاسم ممكناً للذئب المستوحد . جعل هذا قلبي ينبض بشدَّةٍ ، كلُّ جسدي أخذ ينتفض ، لكن لا يبدو أنَّ هاربيت انتبهت ، ثم قالت اسماً آخر وشعرت بالراحة ، بعدها لم يكن هناك المزيد من الأسماء .

قالت إنَّ كاترينا وأبي التقيا بفضلها ، عندما ذهبت كاترينا إلى المؤتمر أخبرتها هاربيت أنَّ في البلدة هناك الكثير لتراه ممّا

يستحقّ المشاهدة في البلدة ، وأنَّ عليها أن تخرج من العاصمة وتتجول في الأنحاء ، وهذا ما جعل كاترينا متلهفةً للخروج من المؤتمر ، وانتهى بها الأمر في المقهى .

غريبٌ سماعها تتكلّم عن المقهى ، كأنّني اعتقدت أنَّها لا تعرف بأمره . هما عالمان مختلفان ، هاريت والمقهى . أعلم أنَّها لم تضع قدمها هناك ، لكن من المستغرب مجرد سماعها تتكلّم عنه .

قالت إنها تعرف شخصاً من بلادي القديمة ، عرفته حين كانت تعمل مع المهاجرين . إنها امرأةٌ ، وتسكن في مكانٍ قريب من هنا . كانت معلّمةً ولا زالت تعلّم لغة بلادها ، وهي أيضاً تترجم بعض النصوص وتكون أسعد حين تترجم الشعر ، حتى لو كان ذلك من دون مقابل ، لأنَّه يمنحها الفرصة للتواصل مع أبناء بلدها ، لكنها تترجم المواد الإعلانية والأدلّة لتعيش .

قالت إنها مولعةٌ بطلّابها وطالباتها ، وهم مولعون بها ، وطلابها يبقون على تواصل معها أثناء الصيف ، وتقيم حفلات رائعة في بيتها . هو بيتٌ صغيرٌ ، لكنَّ طلابها يُحضرون خيماً ويخيِّمون في الغابة القريبة منه ، ويسهرون حتى وقتٍ متأخر ، يغنُّون ويعزفون على الغيتار .

تساءلت هاريت إن كنت أحبُّ أن أقابلها . سألتها لماذا ، أعني أنني لا أريد أن أتعلَّم لغتي القديمة . نظرت إليَّ هاريت كأنَّها صُدِمت من إجابتي الطفولية ، قالت طبعاً ، لكنَّ

صديقتها أخبرتها أنّه من المهم بأهمّيّة الإبقاء على علاقة بلغتنا الأم ، وأن لا نتركها كأنّها عادةٌ سيئة .

- ربما لاحقاً ، قلت .

- حسناً .

أتساءل إن كانت هاربيت متزوجةً أو لديها أطفالٌ ، ربما بإمكانها أن تحتفظ بي ، أفضل إن كانت بلا أطفال . أعرف أنني أستطيع أن أجعلها تحبّني ، وهذا سيجعلها أقرب لأبي ، وإذا رحلت كاترينا سيكون من الطبيعي أن يتوافقا .

لكنّني لست متأكدةً إن كانت عزباء ، أو حتّى أرملة بالطبع . ندمت على أنني لم أخبرها عن جانِيت . من المؤكد أن القصّة كانت لتثيرها ، ربما حتى لتدهشها . لم يكن عليَّ إبقاؤها داخلي . أنا دائماً أحتفظ بأفضل الأشياء داخلي ، والأشياء التي بلا معنى وغير المثيرة ألقي بها إلى الخارج بسهولة . لا أدرك ماهيّة الأشياء المثيرة إلا بعد فوات الأوان . منحت أسمعت من حولي العديد من الأقوال التي ليس لها أيُّ معنىً ، لدرجة أنّهم توقفوا عن الاستماع .

قلت إنه من اللطيف أن تقترح ذلك ، وأنّها لطيفةٌ جداً .

ثم فكرت بالمزحة التي لعبتها معي من قبل ، وأردت أن أردَّ لها لعبتها بدلاً من البقاء صامتةً والاختباء خلف الابتسامة وتمثيل والتظاهر بالأدب طوال الوقت ، لذا قلت :

- من السهل طبعاً أن تكوني لطيفةً حين تكونين غنيّة .

نظرتُ إلى النار وانتظرت ردّة فعلها .

- أعتذر يا عزيزتي ، لكنك مخطئةٌ ، فلا علاقة بين اللطف والغنى .

- طبعاً يوجد علاقة .

- كيف؟

بدت مهتمةً وهذا جعلني سعيدة ، لذا أخذت نفساً عميقاً . وعندما تكلّمت نسيت طريقتي المروِّعة في اللفظ ، أو ربما لم أهتمّ ، لم أهتمَّ كما أفعل في العادة ، بل كنت فخورةً بها .

قلت إنه من الصعب الحديث عن الأخلاق عندما يكون المرء فقيراً غارقًا بالقلق على بدلات الإيجار والفواتير والطعام وشراء ملابس لأطفاله . قلت إنَّ الأغنياء يظنّون أنَّ الفقر يجعلك نبيلاً ، وأنَّ الفقراء يتعاضدون معاً ويتعاونون ، وكلّ تلك التفاهات المجتمعية ، لكنَّني رأيت ما يكفي من الفقر لأعرف أنَّه يجعلك كئيباً ومملاً .

الفقراء يفكرون بأشياء صغيرةٍ ومثيرةٍ للشفقة ، ويوجد دائماً ما يقلقهم : الإيجار ، ملابس الأطفال ، سياراتهم المعطوبة عندما يتزوج قريبٌ في البلدة ولا يملكون ثمن إصلاحها .

عالم الفقراء صغيرٌ ومنظارهم ضيِّقٌ ، وطبعاً من غير العدل لومهم لأنَّهم ليسوا لطفاء مع الآخرين ، فلديهم ما يكفيهم من القلق والضغوطات ، إنها كلعنةٍ ، كالسجن .

الأغنياء متحرّرون من هذا السجن ، لم يدخلوه يوماً ، ليس عليهم القلق على أنفسهم أو على عائلاتهم ، لذا ، يمكنهم النظر حولهم ورؤية الآخرين والاعتناء والتلطّف بهم . هذا يشعرهم بأنّهم أفضل ، وطبعاً وهم محقّون بذلك طبعًا ، وحين يشعرون أنّهم أفضل يصبحون أكثر جاذبيةً ويظهر ذلك في عيونهم ، ودائماً ما يقودهم ذلك نحو عالم أفضل ، ولا ينتهي الأمر .

أنت ذكيةٌ جداً ، قالت هاريِيت ، وبطريقةٍ ما أنتِ على حق ، لكنّك أيضاً مخطئة ، وسأقول لك لماذا .

قالت إنها التقت بأشخاص كثر في حياتها ، أغنياء وفقراء ، طيّبين ، وسيئين ، ووضعت يدها فوق فستانها قرب صدرها تقريباً ، وقالت إنها تحلف أنّها لم تجد لطفاء بين الأغنياء كما وجدت بين الفقراء .

قابلت فقراء لم يكونوا لطفاء أيضاً ، لكنّها لم تسمح لفقرهم أن يكون مبرّرًا لذلك ، بخاصّة وأنّها قابلت الكثير من الفقراء الذين كانوا لطفاء جدًا مع الآخرين .

قالت إنّ على الجميع أن يتحمل مسؤولية طيبته وقبحه ، مهما كان حجم المال الذي يملكه .

لا يمكن أن نقول بالمطلق أنّ الأغنياء طيّبون والفقراء لا ، لأننا حين نأخذ الأمور على هذا المحمل فنحن لا نتوقع من الناس أن يتحملوا مسؤولية أفعالهم وتصرفاتهم . ومن الخطأ أن نعتقد أننا نسدي إليهم معروفاً حين نُحرِّرهم من المسؤولية ، هذا يعني أننا

لا نهتمُّ بأمرهم ونعزلهم . في نهاية حديثها تناهت حشرجةٌ على الباب ودخلتا ، خدودهما حمراء . سارة همست بشيءٍ ما وكاترينا أسكتتها . جلستا على الكرسيّين بهدوءٍ شديدٍ واستمعتا باهتمام كأنّهما ينظران نحوي بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً .

لوقتٍ قصيرٍ ، ربما لعشرين أو ثلاثين دقيقةً استمتعتُ بالأمر ، لكنَّني لاحقاً أردتها أن تنهي كلامها حتى قبل أن أبدو تعبةً وأقول إنَّ الوقت متأخرٌ ، وأنَّ عليّ الذهاب إلى المدرسة صباحاً .

عندما انتهت أرادت سارة تريد أن تُريني النَّبتة في الخارج . كنت سعيدةً بالوقوف على قدميّ ، أعارني أبي جزمته وخرجت مع سارة . الجو باردٌ في الخارج ، شعرت بحلماتي تقفز ورفعت كتفي . خرج الدخان من فاهينا . أحسست أنني معزاةٌ صغيرةٌ وسارة أصغر مني ، وهناك صيادٌ ينظر نحونا ، وتساءلت أين سيصوب . أنا أملك لحماً أكثر ، لكنَّ لحم سارة على الأغلب مذاقه أطيب . فكّرت بذلك فيما كانت سارة تريني نبتةً في وعاءٍ كبيرٍ بتربةٍ سوداء . النبتة صغيرةٌ لكن أوراقها كبيرةٌ ولامعةٌ ، وعلى الأوراق شعيراتٌ قصيرةٌ وعلى الشعيرات قطرات ماءٍ .

تكلمت سارة عن الورقة وأنا أقرقع بأصابعي وأخرج أصواتاً تدلُّ على أنَّني أستمع ، حولنا الهضاب والقمر الأبيض والعشب الباهت وأستطيع سماع جدول الماء .

سمعنا دقاتٍ على الزجاج من الكلب الذي يريد أن يخرج معنا ، أنفاس سارة كالغيمة حولي ، ثم سمعت صوت أنفاس الكلب وكأنَّها قادمةٌ من عند الشيطان في الأسفل .

شعرت بالحزن والخوف والغضب ، عليَّ أن أذهب إلى غرفتي وأنتظر حتى يذهب واحدٌ من الثلاثة .

هناك وجدت رسالةٌ رسالة مقتضبة من الذئب المستوحد ، مختلفةٌ عن البقية . قال إنَّ عليه وضع خطٍّ هنا وأنَّه يريد شيئاً مني ، شيئاً شخصياً يقنعه أنني حقيقية ، وإلا فلن يجد حلاً سوى أن يقطع الخط ويقول لي وداعاً .

قال إنه استُغِلَّ كثيراً في الماضي ، الكثير ممن كانوا حوله لم يكونوا جديِّين حين حانت الساعة .

حاولت التفكير ، عندي صداع . أتساءل ماذا عنى بشيءٍ شخصي .

فتحت جاروري ، أخذت الكاميرا ، إنها آلة تصوير أبي القديمة ، أعطاني إيَّاها حين اشترى واحدةً جديدة . غالباً ما يقول إنه يشتاق إليها ، وأنَّها أفضل من الجديدة . كان فخوراً جداً حين اشتراها لأن خاصيّة وضوح الصورة فيها 2 ميجا بيكسل ، وكان هذا الرقم يعتبر فوق العادة . الآن يوزعون مثيلاتها دون مقابل .

تحتاج البطارية للشحن ، وأحتاج لشاحنٍ آخر لأنني أستخدم

الشاحن الحالي لشحن حاسوبي .

ذهبت إلى غرفة أبي وكاترينا . لم يكن فيها أحدٌ والحمام مُضاء ، وقفت هناك وخطوْتُ بضع خطواتٍ في حمامهما ، يبدو كأنَّه أكثر الحمامات رفاهية . يملكان هذا الحمام لهما فقط ، هناك وفيه مكانٌ للاستحمام أيضاً .

الحمام نظيفٌ ومسالمٌ ، كأنَّه لم يُستخدم من قبل . توجد فيه سجادةٌ صغيرةٌ خضراء ، المرآة كبيرةٌ وبلا بقع ، تغريك بالسباحة فيها والذهاب إلى العالم الآخر . يحتوي نافذة أيضاً ، حين نظرت من خلالها شاهدت جزءاً من البيت لا اعتقد أنني كنت فيه من قبل . بإمكانهما الجلوس والتغوّط هنا بينما يغمرهما نور النهار من النافذة ، التي ليس بها كسرٌ أو تشوُّهٌ أو أيُّ شيء . أتخيل ما يعنيه هذا لأبي ، ولا أستطيع أن أمنع نفسي عن الابتسام لأنَّني تذكرت فجأةً كم مرةً تعاركنا بسبب الحمام ، وكم مرةً صرخ عليَّ لمليون سبب .

مثلاً لأنَّني تركت طبعات أقدامي المبلولة على الأرض ، أو لأنَّني لم أضع لفّافة ورقٍ جديدةً حين استهلكت القديمة . لم يفهم أنَّ صراخه كان يجعل من تنفيذ أوامره أصعب . مرّت فترةٌ لم يصرخ فيها . تلك الفترة كدت أنسى عنادي وأضع لفافةً جديدة . لكنه صرخ مرةً أخرى ، وفشل الأمر . كان هذا يعني أن أقف هناك وأقول له أنت دائماً مصيب وأنا مخطئة .

من الممكن أن أجلس وأحدِّق في اللّفافة الفارغة ، وأفكر

أنني أُفضِّل الهرب من البيت وقضاء حياتي في أنبوب صرفٍ صحيٍّ على تغيير تلك اللّفافة ، لأنَّني إن استبدلتها فهذا يعني اختفائي ، لن يبقى مني شيءٌ . من الغريب أن أجلس هناك وأفكر أنَّ وجودي بأكمله يمكن أن يتجسَّد في لفافة ورق حمام فارغة . هذا يعني أنني تخيَّلت نفسي إما أصغر مما يمكن تخيُّله ، أو أنَّ العالم أكبر مما تصورت .

كلُّ ذلك العراك اختفى الآن ، الآن نتعارك على أمورٍ جديدة .

وقفت في حمامهما وحاولت التفكير بكلِّ تلك المشكلات مع أبي في حمّامنا القديم . حاولت أن أفتقدها وأبتسم ، لكنَّني لم أكن صادقةً ، لا يوجد ما أفتقده . كان يصرخ دائماً وأنا أنظر بعيداً ولا أقول شيئاً ، ثم أقول شيئاً ساخراً يجعله يصفع الباب بقوةٍ ، ودائماً ما كان شيءٌ ما يقع ، في الغالب المقلاة المعلقة خلف باب المطبخ ، حيث نعلّق أدواتٍ أخرى أيضاً ، ومرةً كانت الصفعة كبيرةً لدرجة أنّ أبي عاد مسرعاً وفتح الباب وكان خائفاً من رؤية ما حصل .

وعاءٌ كبيرٌ سقط من الخزانة ، تفاجأت لأنني لم ألحظ وجوده من قبل . كان وعاءً من السيراميك الأبيض مع خطوطٍ زرقاء ، ذكّرني بالماضي السحيق والمزارعين والذباب وشرب الحليب مباشرةً من أثداء البقر ، والحليب الذي يملك نكهة

الزنخة الخفيفة ، والأمراض التي تصاحب ذلك ، خاصةً آلام الأمعاء . كان وعاءً كبيراً جداً وثقيلاً ، وقع في الحوض وتكسّر إلى خمس قطع أو ستٍّ .

سألته ما هذا ، وقال إنَّه هدية من أقارب . شعرت برغبةٍ في الضحك لأنَّني أحسست بأنَّه لا يعرف من أين أتى . حاول أن يجمع القطع بعضها ببعضها ، لكنه فقد اهتمامه بعد بعض الوقت .

سألته أيُّ أقارب ، ذكر عدة أسماءٍ لم أسمع بها من قبل . سألته أين يسكنون حتى أسهِّل عليه الأمر ، أردته أن يجمع ذاكرته كما نجمع الخيمة .

ذكرى تجعلنا نجلس أسفلها في المطبخ وننسى كلَّ الأشياء الغبية التي دعته إلى أن يصرخ ويصفع الباب .

لكنه هزَّ كتفيه وحسب . أتذكّر صورتي أقف بجانب الحوض وأنظر إلى الوعاء المكسور ثم إلى وجهه الفارغ . أحسست حينها بشعورٍ حزينٍ بأنَّه فقد الأمل من كلِّ شيء : العمل في المقهى ، ومحاولة تربيتي في هذه الشقة الرثّة ، حيث لا يمكن النوم حين تكون النّافذة مفتوحةً ، بخاصة في الصيف بسبب النادي الذي في آخر الشارع ، والسكارى الذين يملؤون الشارع طوال الليل ، والصراخ والغناء ورمي القناني في الطريق . اشترى أبي مروحةً كهربائيةً ، لكنَّ العداد الكهربائي انفجر ذات ليلةٍ وغرقنا في عرقنا طوال الليل .

أعتقد أنَّه سئم من الفقر ، وعندما سألته عن أقاربنا ذكر بعض الأسماء ومكان إقامتهم ، وما نوع القرابة التي تجمعنا ، لكن وجهه كان فارغاً وأكثر بؤساً ، وكأنَّ فقره وبؤسه ليس لهما نهاية .

لكنَّ سيدة الحظِّ ابتسمت لأبي ، أنظر حولي وأتخيّله يتجوّل بروب النوم في هذا الحمام بخطواتٍ واسعةٍ ، ويصفّر لحن أغنيةٍ ، وهو يعرف أنَّه وصل . لا يمكن أن يحدث له أفضل مما حدث . وأتساءل لماذا لا يجعلني وجهه الفرح هذا سعيدةً أنا أيضًا ، بدلاً من أن يصيبني بالغثيان .

وجدت شاحن ماكنة حلاقة أبي ، أخذته وذهبت إلى غرفتي ، شحنت الكاميرا وتمددت على السرير . راقبت رمز البطارية على الكاميرا الموصولة بالشاحن ، كان يمتلئ بالأسود ثم يعود ليفرغ منه ثم يمتلئ ثم يفرغ ، كأنَّه جهازٌ لتسجيل نبضات القلب ، يذهب ويعود .

شحنت الكاميرا لمدة عشر دقائق . لبست منامتي ومعطفي البيتيّ وعدت إلى غرفتهما مرةً أخرى . السرير مرتَّبٌ ، لكنَّ الغطاء مجعلكٌ متغضّن ويبدو أنَّ هناك من تمدد فوقه ، الغطاء أبيض ومزيَّنٌ بأجزاء بقطع من الفواكه بألوانٍ زاهيةٍ ، الكمثرى ، والتفاح ، والموز ، وأعتقد ورأس أناناس على ما أعتقد .

أخذت صورةً للسرير ، عندما خرج الفلاش من الكاميرا خطر

لي مشهد بساحة الجريمة ، كأنَّ حدثاً رسميّاً يحدث هنا . خفت ، أعرف أنَّ الفلاش يمكن رؤيته من مسافات بعيدة ، وأنَّ العين حساسة لهذا الضوء ، ربما هو الخوف من النار التي جلبناها معنا منذ ملايين السنين .

نظرت إلى الصورة في شاشة الكاميرا ، لكنَّ صورة ساحة الجريمة لم تذهب من رأسي ، فكّرت بالصور في الموقع الذي التقيت به الذئب المستوحد ، لم أفكر بها منذ زمنٍ طويل . من المفاجئ أن أتذكر أين التقيته أوّل مرّة ، كلُّ تلكَ الصور من الأذرع والأصابع البيضاء ، وصور النساء المتقدمات في السن بأرجلهن بسيقانهنّ المترهّلة ، بعيداً عن الابتسامات التي تبدو بلا أسنان ، والخطوط السوداء فوق العيون . ثم فكرت في جملته «شخصي» كان يتجول يجول في معرضٍ الصور تلك ، حيث الأرداف المتوردة والأوشام المتغضّنة ، وكلُّ ما يريده الآن هو «شيءٌ شخصي» .

على رفِّ الخزانة أرى رأساً أسود مصنوعاً من الطين ، رفعته بعنايةٍ ونظرت إلى أسفله ، يوجد شيءٌ محفورٌ هناك . سارة صنعته منذ بضع سنوات . رأس امرأةٍ لها ذات ابتسامةٌ جميلةٌ ، عيناها مصنوعةٌ عبارة عن ثقبين فارغين . الرأس مخيفٌ ، لكنَّ الابتسامة ليست كذلك . ذكّرتني بشخصٍ أعمى ، شخصٍ لا يعرف كيف ينظر إليه العالم بنفور ، أو ربما يعرف . من المؤكدِ أنَّه

سمع شيئاً في أصواتهم ، لكنَّه يعتقد أنَّ ابتسامته ستعوّض عن فقدانه للبصر .

وضعت الرأس وأخذت والتقطت له صورة له .

ذهبت إلى خزانة الملابس وفتحتها . دفّةٌ متحركةٌ تنتهي بسلالٍ فيها قمصانٌ مطويةٌ وكنزاتٌ صوفيةٌ ، وهناك مكانٌ للأحذية ، أحذيةٍ أنيقةٍ بكعوبٍ عاليةٍ ، وأحذيةٍ تصلح للمشي مسافاتٍ طويلةً ، وأحذيةٍ رياضيةٍ قذرةٍ ، وأحذيةٍ مجنونةٍ مزيَّنةٍ بمرايا وأزهار .

التقطت صورةً للأحذية ونظرت في شاشة الكاميرا ، تبدو كصورة إبادةٍ جماعيةٍ أو شيءٍ كهذا ، هذه هي الغرفة التي تراكمت فيها أحذية النازيين قبل أن يُؤخذ الملايين منها إلى الجدول ويتم تركيعهم ، وبعدها الممثل الذي لعب لاحقاً دور هانيبال يأتي من خلفهم ، يسحب بندقيته ويطلق عليهم الرصاص جهة الرقبة ، فيسقطون في الجدول وتتحول المياه إلى اللون الأحمر .

- مرحباً .

التفتُّ وكانت كاترينا تقف خلفي بعينَين واسعتَين .

- أعتذر ، قلت .

- لا بأس ، ماذا تفعلين؟

لم تبدُ غاضبةً ، لكن من الواضح أنَّها تريدني أن أجيب على

سؤالها . تصنَّعت ابتسامةً حزينةً وتجنَّبت النظر في عينيها وتراجعت عدة خطوات معدودة عن الخزانة .

- لا شيء ، أصدقائي في الوطن فضوليون جداً ، وطلبوا منّي أن أرسل لهم بعض الصور .

- آه .

بدت كاترينا سعيدةً ومتفاجئةً .

استعدت طاقتي من الكذبة التي اختلقتها ، والتي كانت مناسبةً مقنعة تماماً كما هو واضح . لقد جاءت من اللامكان ولاءمت الموقف ، حتى أنَّني استطعت أن أنظر إليها وأنا أقول إنَّ هناك شائعةً تقول إنَّني انتقلت لبريطانيا ، وأنَّ زوجة أبي ، - عيناها تغيرتا تماماً حين سمعت الكلمة - غنيةٌ جداً ، وهي صديقةٌ لنجوم السينما والمغنّين ، وتملك طائرةً خاصةً ، وحتى مهبط طيارةٍ خاصٌّ بجانب القلعة .

ضحكت كاترينا .

- لا أمانع ، شكراً جزيلاً .

أضفت أنَّ شائعةً تقول إنَّ لديها مسبحاً خاصاً وملعب بولينغ ، ولديها خيولٌ وقرودٌ وحمارٌ وحشيٌّ ، لأنَّ ابنة زوجة أبي سارة مولعةٌ بالحيوانات ، وزوجة أبي لا ترفض لها طلباً .

ضحكت كاترينا أكثر وصفَّقت بيديها .

- هذا مدهشٌ! قالت ، يبدو كأنَّه قصر مايكل جاكسون ، هل لدينا مدينة ملاهي أيضاً؟ ربما عجلةٌ دوارةٌ ، وسفينةٌ طائرة .

لاحظت أن كاترينا تتحدث بلغةٍ رصينة ، بفم متوتر أكثر من العادة ، ثم فقدت كلَّ ما كان عنديَ من طاقةٍ وبدَأت أنظر بعيداً عنها ، لكنَّني حاولت إبقاء الابتسامة على وجهي .

قالت كاترينا إنّ السؤال هو ما إذا كنت أرغب في تأكيد هذه الشائعات أو أن أضع حدّاً لها . إن كنت أريد لهذه الشائعات أن تكبر وتصبح أكثر سخفاً ، لماذا ألتقط صوراً لخزانة ملابسها المروّعة؟ الآن سيشعرون بالأسف عليَّ فقط .

- لا ، لا ، قلت .

قلت إنني أحببت الرأس المنحوت ، وقالت كاترينا إنّ سارة صنعته خلال زيارة لجدَّتها ، كانت في الخامسة فقط .

أتت سارة إلى الغرفة وهي تقرأ شيئاً ، وأستطيع من نبرة صوتها أن أميِّز أنَّها كانت على يقينٍ من أنَّ والدتها وحدها في الغرفة . عندما رأتني تبدَّل كلُّ شيءٍ فيها وأصبح متوتراً ، صوتها ، ذراعاها ، عيناها ، لم يكن الخوف وحده في ملامحها ، بل أيضاً كان هناك الترقّب .

أخبرتها كاترينا أنَّني أعجبت بمنحوتتها ، سألت سارة ماذا نفعل ، فأجابت كاترينا أنَّني ألتقط صوراً لأريها لأصدقائي في بلادي .

لماذا لا تلتقطين صوراً لنا؟ قالت سارة .

طبعاً ، قلت .

في الصورة الأولى وقفت سارة وكاترينا متجاورتين .

وضعت كاترينا يدها حول ذراع سارة وابتسمت وبدت رسمية . بعدها أرادت سارة أن ترى الصورة ، وعندما أريتها إيَّاها كان عليَّ أن أنحني قليلاً ، وفكرت كم هي صغيرةٌ ، ! ثم فكرت أن القدر يحركني ، لقد أصبحت شقيقتي الصغيرة ، وربما سنتركها تعيش معنا أنا وأبي حين ترحل كاترينا . الفكرة جعلت شيئاً يلمع في داخلي ، سيكون ذلك لفتةً طيبةً من جانبنا . سنقول إنَّ هذا البيت هو بيت طفولة سارة ، ولا نستطيع أن نطردها منه ، لكنَّني أشعر أيضاً مدى حاجة سارة لي وأهمّيّتي في حياتها ، وكيف سيجعلني هذا أنضج وأكون بمثابة أم لها . لكن المشكلة أنني سأكون مسؤولةً عن موت أمها ، وسيكون ذلك سراً كبيراً أحمله ، عاجلاً أم آجلاً سينكشف ، أعلم ذلك ، ربما سأتحدث أثناء نومي ، وعندها لن تغفر لي سارة وسأفقدها إلى الأبد ، وربما سيدمرني هذا أيضاً . لكن إن كنت متأكدةً من أنني لن أتمكن من إخفاء السر عن سارة ، كيف أكون متأكدةً من أنَّه لن ينكشف للآخرين ، أبي ، أصدقائي المستقبليين ، وأحبائي وزوجي وأطفالي؟

ربما أستطيع إخفاءه ، ربما سيذهب الشعور بالذنب ، ربما لن يكون هناك شعورٌ بالذنب أصلاً . لقد قلت شيئاً للذئب الوحيد عن هذا ، كيف تعلمت الحياة دون غفران ، وكيف يفقد الشعور بالذنب طعمه ، لقد شعرت بذلك فعلاً حين كتبته .

قلت إن الفلاش قويٌّ جداً وسارة وافقت . سألَت كاترينا إن كان بإمكاني أن أضغط على لائحة الاستعدادات وأتخلص من الفلاش ، وعندما فتحت لائحة الاستعدادات كانت باللغة القديمة . أثار هذا اهتمام كاترينا وسارة لأنّهما تعلّمتا بعض الكلمات من أبي ، نظرتا إلى الشاشة وبدأتا تسألان عن معاني الكلمات ، وكنت على عجلةٍ من أمري .

الصورة الثانية التي التقطتها لهما كانت عند الممر أيضاً ، الضوء كان خافتاً ولطيفاً وبدت الصورة أجمل . قُلت إنّها حميمةٌ ووافقت كاترينا على ذلك . إنها فعلاً جميلةٌ ، لكن ربما لم يكن عليَّ استخدام كلمة حميمة .

أخذت المزيد من الصور ، وطلبت أن آخذ صوراً منفصلةً لهما . عندما صارت سارة وحدها في الصورة إزداد خدّاها احمرارًا ، انتبهت لذلك حين نظرت إلى المرآة فيما كنت ألتقط لهما المزيد من الصور ، وبدت مستاءة . طلبت منها أن تذهب إلى الحمام وتغسل وجهها بالماء البارد ، لكنَّ كاترينا قالت لها إنَّ الاحمرار سيزداد إن فعلت ذلك ، وأنَّ ذلك وراثيٌّ ، لكنه يظهر فقط حين نكون تحت وميض الفلاش .

التقطت بعض الصور لكاترينا في الممر . كان هناك شيءٌ ما في ابتسامتها الباردة ذكرتني بالبروشورات والمواد الدعائية . تقف كاترينا بجانب امرأةٍ ممتنّةٍ في مصنع ، ويحمل أحدهم لوحةً كبيرةً عليها صورة شيك مصرفي . بعدً بضع صورٍ صارت الابتسامة

تميل إلى التوسل وسمعت صوتاً يقول :

- ليس عليك فعل ذلك .

- فقط واحدةٌ أخرى ، قلت .

في اليوم التالي اتصل شخصٌ بكاترينا وأخبرها أنَّ الحصّة الأولى ستكون لمادة الرياضة ، وأننا سنلعب كرة القدم لمدة ساعةٍ ونصف . في غرفة الملابس رأيت الكثير من الطالبات يرتّبن ملابسهنَّ كما لو أنهنَّ على وشك الذهاب في رحلةٍ طويلة . منهنَّ من ارتدت قمصاناً صفراء ، بينما ارتدت الأخريات قمصاناً حمراء ، للقمصان أرقامٌ وأسماء . الفتاة الهندية أمامي تماماً ، خزانتها ملاصقةٌ لخزانتي . سألتني عما حدث بالأمس ، وقلت وأجبت إنّني تشاجرت مع والدي .

ابتعدت عنها قليلاً وأنا أخلع ملابسي ، ما أقبح هذه اللحظات! أشعر بأنَّ كلَّ جزءٍ من جسدي ليس طبيعياً . زاد وعيي بجسدي ، ويمكن أن أشعر كيف يستدعي هذا المزيد من الانتباه إلى نفسي وإلى الوعي بعريي وعجزي .

شعرت بنظراتها من زاوية عيني ، إنَّها تترك بقعاً دهنيةً على جسدي . في رأسي كنت أسمع أصوات وميض فلاشات وضغطاً على أزرار الكاميرا ، كأنَّني في مواجهةٍ من الآن فصاعداً . الملاحظات حول جسدي العاري سوف تنتشر في المدرسة مثل فيروس الإنفلونزا . أستطيع سماع التعليقات حول

أشياء أعرفها وأشياء لم أفكر فيها من قبل ، عن عظام أردافي وكيف تخرج مثل السكاكين من بشرة جلدي الأبيض ، وعن صدري ، الصدر الأيمن أكبر قليلاً من الأيسر ، وعن كبر قدميّ ، وكيف أنّ أصابعي تتجه في كلّ الاتجاهات .

سألتني الفتاة الهندية إن كنت أحبُّ كرة القدم ، استرقت نظرةً إلى جسدها ، بدا غامقاً وثابتاً وصلبًا . أعتقد أنّها ستبدو دائماً هكذا مهما كبرت أو أنجبت أطفالاً أو تناولت طعاماً مقلياً وغير صحيّ ، ثم فكّرت أنّها لو كانت في الهند ستكون قد تزوجت الآن ، وأنّ هناك من سيدفنها لأنّ أباها لم يرسل مالاً كافياً معها حين تزوجت .

أدرت عيني وقلت طبعاً . خرجنا من غرفة الملابس ، كانت الشمس تملأ المكان ، ملعب كرة القدم كبيرٌ والعشب طريٌّ وكلُّ الأصوات مكبوتة .

صفّرت المعلمة فانقسمت الفتيات إلى فريقين . رحّبت بي المعلمة في الصف . من داخل الصمت سمعت الريح تصفر من جهة الجبال ، وأحسست أنّ هناك من يراقبنا ، شخصاً ضخماً بعينَين بنيَّتَين جديَّتَين صارمتين .

قالت المعلمة إن للمدرسة فريقين ، وذكرت بطولة «نيفيريندينج» العريقة ، وهي تقليدٌ يفخر به الجميع ، وهي بطولةٌ جديةٌ جدًا ، ضحك الجميع عندما قالت ذلك . انحنت فوق حقيبةٍ بلاستيكيةٍ وأخرجت قميصاً أصفر وأدارته بين يديها

كأنَّها تريد بيعه لي ، اسمي كان مكتوباً عليه ورقمي هو 11 . سألتني إن كان اسمي مكتوباً بطريقةٍ صحيحة ، أجبتها بنعم ، ورغبت بسؤالها ، ماذا كنت ستفعلين لو أنَّه كُتِب بطريقةٍ خطأ؟ لكنَّني كبحت نفسي عن ذلك .

رمت القميص نحوي ، ارتديته ووقفت مع الفريق الأصفر . ملمس القميص ناعمٌ ورائحته تشبه البلاستيك . الفتاة الهندية في الفريق الأحمر ، وأرى أنّ اسمها الأخير ويلكوكس .

بدأت اللعبة ، طلبت مني فتاةٌ أن ألعب بالخلف قرب حارس المرمى . لا أذكر أنني لعبت في مكانٍ كهذا من قبل ، ليس على عشبٍ طريٍّ على الأقل . لعبت حين كنت صغيرةً أمام المرآب مع الأطفال ، واستخدمنا الباب كمرمى . كان حجمه مناسباً ويصدر صوتاً مدويًّا كلَّما ارتطمت الكرة به . لعبت مع أبي على الشاطئ عدة مراتٍ عديدة ، ولعبنا في كولكا ، لكنَّ الريح كانت قويةً والأعشاب كثيفة . كان الفصل خريفاً ولم نكن نلبس أحذيةً ملائمةً على ما أعتقد . لكنَّني لم ألعب فوق عشبٍ جيدٍ كهذا . كأنَّني على التلفاز ، ومع قميصٍ وكلِّ شيء . المعلمة تجري بيننا كأنَّها الحكم ، مع صفارةٍ تلمع في فمها ، تطلقها وتشير إلينا وتعطي ملاحظاتها . وأحياناً تلوّح الفتاة بيدها كأنَّها تسأل الحكم ماذا تعني؟ والحكم يصرخ ويشرح والفتاة تبتسم وتستمر اللعبة .

الملعب كبيرٌ جداً ، والمسافة بين اللاعبين واسعةٌ . لكن فجأةً

جاءت إحداهُنَّ تركض بالكرة وكأنَّها تحولت إلى عملاقةٍ مرةً واحدة . بعدها أصبحت أمامي مباشرةً وهي تركض كالمجنونة وقد تحوّل وجهها إلى الأحمر من الحماسة . تفاجأت لأن إيقافها كان سهلاً جداً ، كلُّ ما كان عليَّ فعله هو الوقوف في الطريق طريقها أو مدُّ قدمي لتتشتت وتفقد توازنها .

فقدت الفتاة ذات الشعر المعقوص على شكل ذيل الفرس الكرة بسهولة . وعلى الفور امتلأ دوّى المكان بصرخات التشجيع والتقدير ، وكأنَّ كلَّ فتاةٍ من الفريق الأصفر كانت تصرخ بأنني قمت بعملٍ جيدٍ ورائعٍ وعظيم . إحداهنَّ صرخت باسمي ولم يبدُ اسميً غريباً أبداً ، كأنَّ الهتاف باسمي كان مقدّرًا له في ملعب كرةٍ حيث يلعب الجميع وأفواههم مليئةٌ بلعاب لزج .

فرحت لأنَّهم لم يهتفوا بأنّني الفتاة الجديدة وأونجا - بونجا من أوروبا الشرقية ، أو الحقيرة الصغيرة التي تبالغ في الزينة وتنظف السلالم في أوقات فراغها . لا ، لقد كانوا يصرخون يهتفون بكلماتٍ طيّبة . وبعد وقتٍ قصيرٍ صرت أشاركهم في الصياح أيضاً . لم يبدُ الأمر غريباً ، فكلماتي كانت تتدحرج في الهواء مع كلماتٍ أخرى يدحرجها الجميع ، كانت كلماتٍ طيّبة دائماً ، حتى لو كان اللعب سيئاً فعلاً . في الفريق الأحمر فتاة أخطأت ركل الكرة حين كانت قريبة جداً من المرمى ، لكنَّ أعضاء فريقها صرخوا ، هيا! كانوا متعاطفين كأنَّهم يقولون لا بأس ، لا تشعري بالأسى ، لدينا مباراة لنفوز بها .

في البداية كنت سعيدةً فقط بإيقاف الفتيات من الفريق الأحمر ، ثم حاولت أن أطوِّر الأمر أكثر وأركل الكرة للاعبة في الفريق الأصفر ، وكان هذا أصعب بكثير . لعبت الكرة من دون تفكير ، ثم فجأة ظهرت لاعبةٌ من الفريق الأحمر من اللامكان وأخذت الكرة منّي وتجاوزتني . غضبت والتفتُّ حولي ولحقت بها كالمجنونة ، كأنَّها حقَّرتني معتقدة بأن بإمكانِها التفلّت من التبعات . ركضت خلفها كأنني أريد تدميرها ، لكنَّني حين حاولت أن أركل الكرة ودفعتها قليلاً فوقعت ، وصفّرت المعلمة . الفتاة الحمراء تمدَّدت هناك على ظهرها وبدت مثل الخنفساء ، لكنها ابتسمت ومدَّت لي يدها ، في البداية لم أعرف ماذا عليَّ أن أفعل ، أخذت يدها من دون تفكيرٍ فضغطت على يدي بقوةٍ ، وفهمت أنَّها تُريدني أن أساعدها على النهوض . وتذكرت أنني رأيت حركاتٍ كهذه على التلفاز ، لذا رفعتها ، كانت ثقيلةً الوزن وضحكنا . وحين استوت على قدميها ، ربَّتت على كتفي وذهبت لتلتحق بفريقها الذين حصلوا على ضربةٍ حرة .

الفتاة التي دفعتها نفذت الضربة الحرّة لكنَّ الكرة ذهبت بعيداً عن المرسى ، إلّا أنّهم أحرزوا هدفين بأخطاءٍ من حارس المرمى والجميع صرخ ، هيا!

في الوقت المستقطع بين الشوطين كنت منهكة . تجمّع الفريق الأصفر عند خط الملعب وبحثوا في حقائبهم لإخراج زجاجات

المياه . تمدَّدت على العشب والتقطت أنفاسي ، ولم يتكلم أحدٌ كثيراً .

فجأةً وقفت إحدى الفتيات أمامي ، ذكرَت اسمي ومدَّت لي زجاجة ماء ، لقد مدَّت لي زجاجتها ، ثمّ بدأت إحداهنّ بالتكلّم معها ، فأخذت تبادلها الحديث بدورها . ولم أستطع أن أتركها تقف هناك وهي تمدُّ لي زجاجتها ، وكنت عطشةً أيضاً ، إلى درجة أنّني كنت مستعدّة للزحف لكي ألعق بعض الرطوبة من العشب .

شربت من الماء وأرجعت الزجاجة . كان على قميصها خطٌّ من القذارة ، وكتبت فيما كتب على ظهره أحرف إيونيكا بخطٍّ أحمر . فتاةٌ أخرى توجّهت نحوي وقالت إنها تملك زجاجةً إضافيةً ، وطلبت منّي أن أذهب إلى غرفة الملابس لأملأها بالماء . هززت رأسي وقلت لا بأس ، لكنها نظرت إليَّ بفارغ الصبر وقالت ، هيّا! قالت مرةً أخرى وأضافت أنّها لا تحتاجها ، وأنَّ عليَّ أن أشرب إن أردنا أن نقلب نتيجة المبارة في الشوط الثاني .

قلت حسناً ، وحاولت أن أصطنع ابتسامة ، لكنها لم تبدُ مهتمةً بذلك ، ربما هي فعلاً تفكر بالشوط الثاني ، عندما ركضت باتجاه غرفة الملابس فكرت بما قالته ، إذا أردنا أن نقلب

مكتبة
t.me/t_pdf

النتيجة ، بعدها فكرت : ماذا لو قلبناها فعلاً؟

هناك احتمالان اثنان ، وفقط اثنان ، إما أن نعمل بأقصى ما نستطيع لنقلب النتيجة ، أو أن نعمل بأقصى ما نستطيع ونفشل .

عندما فكرت بهذين الخيارين وشعرت بشيءٍ يدغدغني في داخلي ، وسمعت صوت طبولٍ وعلم يرتفع ويلوّح في الهواء . وقفت في الحمام ، كان مغبرّاً والرياحً عاصفة وانتظرت حتى تتحول المياه إلى البرودة ، وفكرت في أنَّ مفتاح النجاح واضحٌ جداً ، وهو ليس قلب النتيجة أو عدم قلبها ، لكن العمل بأقصى ما نستطيع لتحقيق ذلك . الاحتمالان جعلاني أشعر بالسعادة ، وإن ليس بالمقدار ذاته . ولم أكترث لسخافة الأمر . إنه إحساسٌ أشعر به الآن ، وهذا لا يمكن نكرانه .

أخذت الزجاجة وركضت باتجاه الفريق الأصفر . إحدى الفتيات قالت إنها تريد أن تلعب في الخلف . سألتني إيونيكا إن كنت أقبل باللعب في الجانب الأيمن أو أنني أريد أن أبادلها الموقع معها ، أجبتها بأن الجانب الأيمن جيد .

- الأيمن هو دائما الجانب الأفضل ، أضفت ، لكن حالة الترقّب حالت دون الاستمتاع بالنكتة .

لعبنا الشوط الثاني وسجّلنا هدفاً ، لكنهم سجّلوا هدفين ، لذا لم نستطع أن نقلب المباراة . عدنا إلى غرفة الملابس ولم يكن هناك من داعٍ للتعجّل في العودة إلى الصف لأنَّه حان وقت

الغداء . توجّهت مع البقية للاستحمام . ، ولم أكترث لشيء . على الأقل ليس لعظام أردافي أو أنّ صدري الأيمن أكبر من الأيسر أو كبر أصابعي . بلغ بي الإنهاك حدًا منعني من التفكير بهذه الأمور . الفتاة الهنديّة اسمها مادي ، هذا ما يناديها به الجميع ، تبدو مشهورةً . وفكّرت أنّه ربما لهذا السبب اختاروها لمرافقتي ، ربما شعروا أنّ هذا سيشعرني بالإطراء .

لم أعد أهتمُّ ، حسناً ، مادي لطيفةٌ نوعاً ما ، ولهذا هي مشهورةٌ بين الجميع . أعني ليس من الضروريّ أن تكون حقيراً ولا تتردَّد باستخدام نقاط ضعف الجميع التي تعرفها ضدهم لتكون مشهوراً .

تقف مادي في تحت مرشّة الاستحمام القريب المجاورة لي ، تكلّمنا عن المباراة وسألتني إن كانت الكرة لعبةً مشهورةً في بلادي ، وأجبتها بنعم ، لكنّني في السابق لم أكن أعتقد أنّها ممتعةٌ هكذا إلى هذا الحدّ لألعبها بنفسي ، ولم أهتمَّ لأنَّ حين سكتت الأصوات حولنا سكتت فجأةً ، وهذا ما يعني أنّهم ينصتون لما أقوله .

بالعكس ، فكرت ، ولمَ لا يكونوا فضوليين . أنا فتاةٌ جديدةٌ من بلادٍ لم يسمعوا بها من قبل ، بلادٍ لا يعرف أحدٌ اسم عاصمتها ، ولو عرفوا سيبدو ذلك من قبيل التفاخر ، وسيظنّ الجميع أنك مهووسٌ بالدراسة والاستعراضيّة ، شخصٌ قضى طفولته بين الكتب والجدران والأرقام ، وربما سينفجر رأسه في أيِّ

دقيقةٍ ويبدأ بالصراخ على الآخرين في مختبر العلوم .

هم فضوليون لأنني من منطقة غير معروفةٍ في أونجا - بونجا أوروبا الشرقية ، حيث تبيع المسنّات أغراضهنّ في محطات القطار الأرضية . أنا من نسل شخص ليس ملوناً بما فيه الكفاية ليكون الشرير في فيلم جيمس بوندٍ . هو في أحسن الأحوال مساعد الشرير ، الذي يقتله الشرير في أول الفيلم ، بالطريقة الأكثر ساديَّة .

لذلك هم فضوليون . لكن بعد أسبوع أو اثنين لن يكونوا كذلك . سأصبح مثل الجميع تقريباً . لاً أعتقد أنني سأكون مثل الفتى الذي يضع الخوذة ويضرب رأسه ، سأكون الفتاة التي تتحدث ببطءٍ قليلاً لكنّها تملك جانباً سيئاً وجانباً مشرقاً ، مثل الجميع ، وربما يكتشفون ذلك حين يقضون وقتاً أطول معي ، ويعرفون كم هي ممتعةٌ صُحبتي .

أحضرت بعض الفتيات صابوناً وشامبو وبلسماً في أكوابٍ بلاستيكية ، بينما استخدمت بعض الفتيات الصابون الموجودٍ في علبةٍ صغيرةٍ معلقةٍ على الحائط . تضغط العلبة براحة يدك ويخرج الصابون كثيفاً وذا رائحة زكية . تذكرت مرةً في أونجا - بونجا حين فرغت العلب دائماً ، وقال أحدهم إنّ طفلاً صغيراً حاول شربها كي تجعله أطول .

جملة «دهون الأرض» ظهرت في وجهي حين نظرت إلى الصابون في راحة يدي . وفكرت بكلّ الوجوه الجميلة المبلولة

تحت مياه الاستحمام الدافئة حولي ، والشعر المبلول والسيقان الطويلة ، والجميع يفرك الصابون على جسده ، أتخليهن - وهنّ يفركن أجسادهنّ كلّ يوم ، وأن هذا الطقس اليومي هامّ ، كأنّه حمايةٌ من الشر الموجودً في الخارج . وعندما نفرك به جسدنا بالكامل ينتهي الطقس ، ويمكن أن ندخل إلى تحت المياه الساخنة ونشطف أجسادنا ونخرج للعالم من جديد .

عندما تنشّفت بالمنشفة تخيّلت الذئب المستوحد وهو ينظر إلى صور كاترينا ويملي عليها الكلمات والصور والذكريات التي كتبتها له ، ينظر إلى وجهها وجسدها وكلماتي تملؤها كما تملأ المياه في مزهرية . أشعر بالقلق من أن لا تكون الصور التي أرسلتها له شخصيةً بما فيه الكفاية . انتبهت إلى أنّها ليست المرة الأولى التي أشعر فيها بالقلق حيال ما يفكر به . منذ البداية فرضت شروطي وكنت المسيطرة ، منحته ما أردت أن أمنحه ، أردت توجيهه نحو وجهةٍ محددة ، لم أملك أدنى شكٍّ في أنّ بمقدوري توجيهه إلى حيث أريد ، بشرط أن يكون هو على استعدادٍ لذلك .

دفعني هذا للتفكير في نفسي ، من أنا الحقيقية؟ لقد تلاعبت بأشخاصٍ على الإنترنت من قبل ، لكن ليس لمدةٍ طويلة ، كيف كنتً على واثقة من أنني قادرةٌ على تحقيق ما أردته؟

صورة الفتيات وهنَّ يفركن أجسادهنَّ خرجت مرةً أخرى وأزعجتني . أتساءل متى استطاع الذئب المستوحد أن ينتزع المبادرة من يدي . أقف هنا وأفكر إن كان سيكون سيسرّ بالصور التي أرسلتها له ، وإن كنت قادرةً على المقاومة إن طلب شيئاً آخر .

كأنني أريد أن أثبت لنفسي أنني قادرةٌ على قطع أيِّ علاقة مع هذا الرجل إن أردت ، أفصل نفسي عنه ، ثم يختفي كأنَّه لم يكن موجوداً أصلاً ، لكن يبدو أنني لا أثق بنفسي .

وربما لسببٍ وجيه .

الكلمات أرعبتني . أعرف أنَّها وجدت لترعبني ، لكنها أخافتني بكلِّ الأحوال .

عندما توقفنا قرب المغاسل لتنشيف شعرنا ، سألتُ مادي إن كانت ترغب بالعودة معي إلى البيت بعد المدرسة . ابتسمت وقالت إنّ ذلك سيسعدها . ثم فكّرت قليلاً وقالت إنَّ دراجتها معها ، وربما تستطيع أن تتبع سيارتنا حين يقلّني أهلي . تجمَّد شيءٌ بداخلي حين قالت أهلي . وتساءلت إن كانت تعرف ظروفي . ربما قالت كلمة «أهلي» لترى إن كنت سأنكسر أو أرتعش ، أو ربّما قالتها تلطّفًا ولتشعرني بأنّني طبيعية .

ثم قالت شيئاً ما وتردَّدت ، بعدها أضافت أن بإمكاننا العودة معاً على دراجتها ، لكن المشكلة أنَّها لا تملك خوذةً إضافيةً ،

وبإمكاني استخدام خوذتها ، لكنها لا تعرف إن كانت ستلائم رأسي لأنَّ رأسها صغيرٌ جداً . أتساءل إن كان ذلك طريقةً مهذبةً لتقول أن رأسي الأونجا - بونجا كبيرٌ جداً ، ومتورِّمٌ ومليءٌ بالمياه ، ولا يمكن أن تسعه خوذتها .

أجبتها أنَّها فكرةٌ جيدةٌ وأنني لا أحتاج إلى خوذة ، ثم فكرت عميقاً وأنا أتّصل بالقلعة ، بينما كان رنين الهاتف يتردد بين الجدران واللوحات ، وصورة الجد العزيز القديمة الذي يحمل مظلَّة شامبيرلين وقد قصّ شاربيه ليرفع من معنوياته بعد أن رهن أوروبا على طاولةٍ حمقاء وخسرها لصالح هتلر ، تذكرت أنَّني لا أعرف كيف هو صوت رنين الهاتف .

فكرت بصوت أبي حين أخبره أن صديقةً ستقلُّني إلى البيت على دراجتها وتريد أن تأتي لزيارتي حيث أعيش ، وكيف سيحاول أن يحبس حماسته حين يقول لا بأس ، وأنني لا أحتاج إلى الخوذة ، ثم فكّرت فيه وتخيّلته يغلق السماعة ويخبر كاترينا بالأخبار . حين أفكر بكمِّ السعادة التي سيشعر بها وهو يخبر كاترينا ، وكيف سيقومون بتنظيف المنزل ولملمة الأغراض عن الأرض ومسح طاولة المطبخ ، أشعر أنَّ هناك من يضربني بقبضةٍ ليِّنةٍ من الحزن في معدتي وأريد فقط أن أبكي .

جسدي كان متعباً طوال اليوم من الركض والركل . أشعر بسكونٍ في جسدي ، كأنَّ الباب تُرِك مفتوحاً داخل روحي ،

ولست أقوى على النهوض لإغلاقه ، ومن هذا الباب يدخل الكثير من المعرفة وكل تلك الأمور والفلسفة والعلوم التي تتكلم عنها المعلمة . أنا متعبةٌ ولا أقوى على السؤال أو المساءلة ، تصبُّ الأشياء فحسب داخل الباب المفتوح . بصراحةٍ كان هذا مريحاً .

مضى اليوم بسرعةٍ ونزلت الشمس خلف الجبال من بعيد . توجهنا نحو موقف السيارات ثمّ قادتنا نحو البيت . كانت تلتفت نحوي عند كلِّ منعطفٍ وأنا أصرخ في أذنها . الجو باردٌ جداً والسيارات تتجاوزنا ، الصوت يصمُّ الآذان والرياح باردةٌ وخدَّاي كذلك .

عندما توقفنا أمام البيت لم تثرثر كما العادة ، نظرت حولها بعينَين كبيرتَين ، شعرت أنَّها تسكن في مكانٍ أصغر وأبسط ، وتساءلت إن تكلَّمت الفتيات عن كاترينا وقلعتها ، وإن كانوا سيسألون مادي الكثير من الأسئلة في الغد ، ربما يقتلهم الفضول فيتَّصلون بها مساء اليوم .

استمتعنا كثيراً بوقتنا . أخذنا الكلب في جولةٍ وتكلَّمنا كثيراً ، أخبرتني مادي أنَّ والديها في صدد الطلاق ولا تفهم السبب .

أخبراها أنَّه لم يحدث شيءٌ خطير ، من قبيل الخيانة وما شابهها . أخبراها أنه لم يعُد واحدهما يحبّ الآخر كما كانا في السابق . لكنَّ مادي لا تستطيع أن تفهم لماذا كان عليهما

الطلاق على الفور. أخوها الصغير توقف عن الأكل والجميع مهتمٌّ به. أخبرتني مادي كلَّ هذا ونحن نمشي. كنت أستمع إلى كلِّ كلمةٍ تقولها وأنا أنظر حولي وأتخيَّل عيون عينيّ الذئب الصفراء في الليل. كم هو جميلٌ ومرهفٌ ورشيقٌ وقاتلٌ في الوقت ذاته، فكرت كم هو قبيحٌ الرجل الذي يختار اسم حيوان كهذا. وبدأت أتساءل عمّا إذا كانت هناك حيواناتٌ قبيحةٌ حقاً، ثم تذكرت أنَّ هناك الخنازير والكلاب وفئران وجرذان المجاري.

تجولت في الغابة كأنني أملكها فعلاً، بالمقارنة مع مادي، أنَّني أنا أملكها. حين ترحل كاترينا ونصبح أنا وأبي وحدنا سأملكها بشكلٍ رسمي. للحظةٍ لم يعد الأمر جذاباً كما كان. للحظةٍ بدا القصر كبيرًا جدّا علينا نحن الاثنين، أتساءل عمّا إذا كان والدي سيلحق بي طوال اليوم، يريد أن نفعل كلَّ شيءٍ معاً، نذهب إلى المدينة وإلى المطاعم. سأكون مجبرةً على القبول والجلوس هناك والأكل والابتسام والاستماع إلى قصصه، سنصبح كأننا متزوجان. الفكرة جعلتني أرغب بالتقيُّؤ، أشعر بشيء صلب في معدتي.

ثم بعد عدة بضعة أعوام سأقابل أحدهم وأبي يمكث في هذا القصر. وسيكون علينا زيارته وشرب الشاي معه، والاستماع

لقصصه ، وسنختلق أعذاراً للعودة إلى البيت . سيبدو أبي كنقطةٍ مثيرةٍ للشفقة وسط هذه المداخل الضخمة عندما أدير رأسي باتجاهه وأنا أجلس في سيارتنا الرياضية وألوّح له مودّعة .

طبعاً زوجي سيكون ثريًا ، ربما أسكن في بيت في الجزء الآخر من العالم ، في ماليزيا أو المكسيك . هذه هي المسافة التي أريدها لأبتعد عن ذلك المساء المزعج حين نشرب الشاي في هذا القصر الحقير .

سننجب طفلاً أو اثنين ، لكنّني سأبقى هناكٍ في منزلنا المبنيٍّ على الطراز الاستعماريّ مع حمام سباحةٍ متألّقٍ ، وحولي مربّياتٍ مكسيكياتٍ مليئات بالدهون . ولكنّني سأشعر بالضيق لأنّني أعرف أنّه هناك في القلعة وحده .

لكن من قال إنه سيكون وحده؟ أنا مجنونة! رجلٌ كهذا ، روحٌ حرةٌ مثله؟ سيسرح بالتأكيد . سيقابل امرأةً جديدةً في وقتٍ قصير . سيذهب إلى النوادي الليلية ويقابل الكثير من الفتيات . حين ينفصل عنهنّ سيرسل لواحدةٍ من صديقاته في بلادنا القديمة ، سيقول هل ترغبين بالانتقال إلى إنجلترا والسكن في قلعةٍ معي ومع ملايينيٍ لبقية حياتك؟ سأكون في الخارج معظم الوقت في اجتماعاتٍ صباحيةٍ مملّةٍ مع رجال أعمالٍ وفوائد وأعمالٍ خيريةٍ . سيدعونني إلى الغذاء (لينافقوني) في مطاعم فاخرةٍ ، ويخبرونني عن نواياهم الخيِّرة ويملؤون جيوبي ببطاقاتهم وموادهم الدعائية . هل تمانعين في رعاية القلعة بينما أنا في

الخارج؟ أحتاج لمن يفتح الباب للرجال الذين يأتون لتنظيف القصر يومياً ، ولمن يحضر الطعام والحلويات .

هل تستطيعين تولّي ذلك؟

طبعاً ، سيجد واحدةً . لقد أقنعت نفسي بأنّه سيجد واحدة ، إلا أنَّ صورته هناك مع امراةٍ جديدةٍ ظلّت فارغةً وغير ثابتة .

قلت لمادي إنَّ على أهلها التركيز عليها أيضاً ، وإن لم يفهموا ذلك من تلقاء أنفسهم فإنَّ عليها أن تخبرهم بذلك مباشرة . قلت إنَّ الناس كسالى ويوهمون أنفسهم بتوقعات أيجابية ، يخالون أنَّها كبُرت وأنَّ أخاها الصغير هشٌّ ، وأنّه وحده من يحتاج للاهتمام .

هزت مادي رأسها وغاصت يداها في جيوبها أكثر . بدا في وجهها وعينيها وهج أبيض مثل اليراعات في الفجر . قالت إنَّها اتصلت بأحد المراكز ، خطّ مساعدة أخبرها عنه أحد المدرسين . يومها قالوا نفس ما قلته ، كلمةً كلمةً تقريباً . كلامها جعلني أشعرني بالفخر ، لكنَّني حاولت ألّا أظهر ذلك ، واستمرّيت بالنظر نحو الصخور في الجدول والمياة الزرقاء المتجمّدة .

بلاتو يشرب من مياه الجدول ونحن نسخر منه ، نأخذ حفناتٍ من الرمل ونكوِّرها على شكل كرات ونرمي بها في الماء ، فيقوم هو بمطاردتها ويقفز قفزاتٍ كبيرةٍ بحذر ، وينظر مستسلماً ثم يستدير وينظر نحونا بفمه المفتوح ولسانه الرماديِّ

الذي يرتجف . مادي تقول إنها تشعر بالأسف عليه ، وأنَّنا حطَّمنا ثقته بنا ، لكنَّني قلت إنَّني أعتقد أنَّه يعرف أننا نمزح ، وأنَّ الجميع يفترضون أنَّ الحيوانات ليس لديها حسُّ فكاهة ، ولكنَّني أعتقد أنَّهم مخطئون . ربما يفكر أنَّنا نحن الأغبياء الذين نقوم بتكوير كرات الرمل ونرميها في الماء ، وكأننا لا نفهم أنَّ الرمل يذوب في الماء بمجرد أن يلامس السطح ، لكنه لا يريد أن يجرح مشاعرنا ، لذلك يتظاهر بأنَّه يحاول أن يلتقط كرات الرمل ليعيدها لنا بسرعة .

ضحكت مادي على ما قلته ، كان ذلك كأنَّها تمنحني هدية .

أنت مضحكةٌ ، قالت . أحسست أنَّها تستردّ هديتها .

بعد العشاء كان الظلام قد حلَّ ، أبي يقف في الخارج يتكلم مع أهل مادي ، أسمعه يتكلَّم بصوتٍ فرح ، ويعرض أن يضع الدراجة في ، لم يجد الكلمة المناسبة ، كان يؤشر بيديه في الهواء . كنت حائرةً بين الشعور بالخجل من أبي الذي يعرض الكثير ، والشعور بالأسى على مادي التي تنتظر في المطبخ وتستمع لأبي على الهاتف وتدير رأسها وتبتسم ، تخيّلت بوالديها يجلسان في بيتٍ صغيرٍ ومتواضع ، مكتئبان ويتجادلان ويخرجان عيون بعضهما عن طورهما لأتفه الأسباب . ربما ذهبوا إلى حفلةٍ لتبادل الأزواج ، الإعلان منشورٌ على الإنترنت في نفس الموقع الذي قابلت فيه الذئب المستوحد ، ربما تصورت أمها ووضعت صورتها على الموقع تطلب من يرافقها خلال عطلة

الأسبوع حين يكون زوجها بعيداً . الآن ليس لديهما وقتٌ لمادي ، ليس الآن .

أخيراً قرّرا أن تقود مادي دراجتها ويقود أبي سيارته أمامها ليدلّها على الطريق حتى تصل بيتها . قال أبي إنّ والدة مادي في البيت وحدها مع أخيها الصغير ، لهذا لم تستطع أن تأتي لتأخذها . تبادلت أنا ومادي بعض النظرات قليلاً ، ثم قالت شيئاً عادياً وبدا صوتها كصوت عصفورٍ صغيرٍ يُغرِّد في حرشٍ حرج كبير .

حضنتني عندما غادرت وأغلقت الباب ، وسمعت صوت الدراجة ، وجعلني الصوت أشعر بالحزن عليها وعلى الدراجة والواجبات التي تنتظرها والنهوض باكراً والذهاب إلى المدرسة لتكون مشهورةً ، والتغريد طوال اليوم .

كما أنّها لا تملك خياراً لديها ، هذا ما عليها فعله . فكّرت بالأطفال حول العالم وكلّ الواجبات المنزلية والدرّاجات والأمّهات الحزينات في المطبخ والأباء في الخارج ، يعودون متأخرين إلى البيت وهم سكارى ، والأطفال الذين يستيقظون من على صوت ارتطام كأسٍ بالأرض أو ضربه قويّة بحافة الحوض ، وأحدهم يقوم بإسكاته ، بعدها يعودون إلى النوم مرةً أخرى ، فلا شيء يدعوهم للاستيقاظ ، لقد اكتفى الجسد الصغير ليوم واحد . فكّرت بكلّ الأطفال الذين لا خيار لديهم ، والأهل الذّين لا خيار لديهم أيضاً ، فهم يملكون بيوتاً ووظائف

وعليهم الاعتناء بها ، وهم بالكاد لا يستطيعون الاعتناء بأنفسهم حتى ، لكنهم يضطرون لإكمال اليوم ويتصرفون كأنَّهم قادرون . عليَّ التفكير بشيء آخر أو سأفقد عقلي .

كاترينا خارجةٌ هذا المساء ، سارة تعزف في فرقة المدرسة اليوم ، كان علينا أن نذهب نحن أيضاً لكنَّ أبي قال إنَّ بإمكاننا ألّا نذهب .

ستذهب سارة عند والدها بعد الحفلة وستبقى هناك لأسبوع . أتذكر أنني قابلته مرةً لكنَّني لا أعرف شيئاً عنه ، هو فقط جعلني أكثر اقتناعاً بأنَّ كاترينا بضاعةٌ تالفة ، وأنَّها تقبل بأيِّ شيء ، وأنَّ أفراد عائلتها يتبادلون النظرات من وراء ظهرها ، فهم يعلمون أنَّ كلَّ طلاقٍ هو حفرةٌ في قبو العائلة المالي ، ستتسرب منه تلك القطع النقديّة والفواتير ، وفي النهاية تخرج العائلة بثروةٍ أقلَّ مع كلِّ زواج ، لذلك ربما على المدى الطويل ، سأكون أنا من سينقذ العائلة .

عندما خرج أبي شعرت بضغطٍ لفعل أشياء لا يمكن القيام بها بوجود أشخاص حولي ، لكن لا يمكنني التفكير في أيِّ شيء . يمكنني فتح الأدراج والخزائن والبحث عن الأسرار في غرفهم ، ولكنَّني لا أجد فائدةً من الأمر ، كأنني أعرف مسبقاً ماذا سأجد .

رنَّ الهاتف ، رغبت أن أتركه يرنُّ في البداية ، ثم فكرت بمادي

وذهبت إلى الهاتف في المطبخ وأجبت .

إنها كاترينا ، صوتها بدا غريباً كأنّها تنتحب ، قالت إنها تقف في ردهة القاعة والأطفال يجمعون آلاتهم وأنّها تركت معطفها في الداخل والجو باردٌ جداً ، قالت إنها هربت من تجمُّع الأهل لأنّها لا تطيقهم ، لذا عليَّ أن أعِدها أن أرافقها على الهاتف حتى تخرج سارة بعد دقيقتين فقط ، ولا يجب قول شيءٍ مضحكٍ لأنَّ عليها أن تبدو جديّة ، كأنّها في خضمّ مكالمةٍ مهمةٍ لا بدَّ من إجرائها . سألتني إن جرت الأمور بشكل جيد مع مادي ، وأجبتها بأننا أمضينا وقتاً ممتعاً ، ثم ساد الهدوء على الهاتف ، ولسببٍ ما أخبرتها أنَّ والدَي مادي على وشك الطلاق وقالت إنها تعرف ، وأنّها فتاةٌ مسكينة . قالت إنهما تبنَّيا مادي بعد أن حاولا كثيراً إنجاب طفل ، وعندما أصبحت مادي في الثامنة أو التاسعة أخبرهم أحدٌ عن امرأةٍ صينيةٍ في لندن تعالج بالإبر والأعشاب التقليدية . وفجأةً أصبح لمادي أخٌ صغير . انتشر الخبر في المدينة ، وكان العديد من الأزواج الذين يريدون طفلاً . وأصبحت قائمة الانتظار لدى المرأة تمتدُّ لسنتين ، ثم ماتت ، كانت لديها مساعدةٌ حاولت أن تحافظ على إرث العيادة ، لكنها لم تكن بنفس براعتها . صوت كاترينا يخشخش ، وقالت إنَّ عليها الذهاب لمنطقةٍ لا يوجد بها ريح . لا أريد الكلام عن مادي أو التفكير بها ، للحظةٍ كانت مادي وأخوها أمامي ، لكنهما كانا رضيعَين ، مادي أتت من مكانٍ

بعيدٍ في الهند ، وأخوها كان هناك دائماً ، وكلاهما يتمدَّدان على الشراشف ويركلان وينظران حولهما ، ويديران أعينهما في المكان ويمصَّان أصابعهما ، ولا أحد لديه خيار ، يُحملان من مكانٍ لآخر مثل الكتب أو النظارات أو المناديل التي يمكن أن توضع في أيِّ مكانٍ وتُنسى ، دون أن يكون بإمكانهما القيام بشيء .

سألت كاترينا عن الحفلة وأجابت أنَّها جميلة ، وأنَّ هناك ما هو جميلٌ عند العزف مع مجموعةٍ يساند بعضهم البعض . لا يهمُّ إن نسيت شيئاً وأنت تجلس هناك مع آلتك ، أو أخفقت ووضعت إصبعك على المكان الخطأ ، فمن يحيطون بك يضعون أصابعهم على المكان الصحيح ، معاً يعزفون بصوتٍ قويٍّ يُخفي أخطاءك ويمسحها كأنَّها لم تحدث .

قالت كاترينا إنَّ العزف في أوركسترا هو تجربة تسامح ، أقرب إلى الخلاص ، من كلِّ تلك الجهود الصغيرة القلقة التي تجعلهم يبدون غير مرئيين يبنون شيئاً قوياً ، أقرب للاشتراكية ، قالت كاترينا وهي تضحك .

تجعلك تفكر بقوة الجماهير وكيف تحرك الأشياء ، وكيف تشعر بأنّك بلا وزن حين تكون في الوسط ، وأنك تستطيع أن تفقد روحك وتذوب في هذه الكتلة الضخمة ، وبعد فترةٍ تشعر بالاكتمال وخيبة الأمل في الوقت ذاته ، لأنك تريد أن تعيش

الشعور ذاته مرةً أخرى ، إنها تجربةٌ تجعلك تفهم قليلاً عن النازية في ألمانيا ومشجِّعي كرة القدم الهائجين .

قالت إنها تشعر بالحزن لكل تلك القوة التي تُهدر في المكان الخطأ ، أعني فكري ماذا كان العالم ليكون لو أنَّ كلَّ مشجعي كرة القدم الهائجين والجنود مُنحوا آلةً لتعلُّم العزف وتدرَّبوا على أغنياتٍ للغفران .

استمعت لكاترينا ونظرت حولي في المطبخ وشعرت بالخوف فجأة ، قلتُ إنَّ الحروب كانت ستشتعل بالآلات بدلاً من الأسلحة ، ضحكت وتمادت في المزحة وهي تتكلم عن أشخاصٍ يتحاربون بالكلارينت وعصيِّ الطبول والأبواق .

أغلقنا الهاتف ، وقفت قرب الحوض وفكرت بمادي ، وإن كان المسؤولون في المدرسة قد اختاروها لتكون ملاكي الحارس لأنَّهم فكروا بقصَّة طلاق والديها ، وأنَّ بإمكاني مساعدتها . ربما فكروا أنني مررت بنفس التجربة . غضبت قليلاً ثم أدركت أنَّهم محقّون ، وأنني فعلاً ساعدتها قليلاً ولم أعد غاضبة .

ثم فكرت بكاترينا وبسبب اتصالها وشعرت بأنَّ أمرًا ما يقلقها ، أو أنَّها خائفةٌ قليلاً . شعرت بأنَّها تريد أن تعرف ما أفعله هنا وحدي . أعني لو أنَّها أرادت التكلُّم مع أحدٍ لتتجنَّب الأهالي لا أعتقد أنَّها كانت ستختارني قبل أبي .

لا بدَّ من أنَّها اتصلت به على هاتفه النقال وعلمت أنني وحدي في القلعة ، وكلَّما فكرت في الأمر أصبحت متأكدةً أنَّ هذا ما أقلقها .

ربما كانت قلقةً من شعوري بالوحدة .

نعم ، نعم ، بالتأكيد .

صببت بعض الماء في السخّان وأشعلته ، صوته كشلالات تقترب . فتحت الخزانة ونظرت إلى علب الشاي وقررت أن أشرب شاياً أخضر . أخذت بعض البسكويت ثم سكبت الماء في الكأس ، طفا الكيس كأنَّه بلا وزن ولم أعد خائفة .

أرسل رسالةً طويلةً ، شكرني على الصور وقال إنني إمرأةٌ جذابةٌ وأنَّ بيتي لطيفٌ . لو أنَّه شخصٌ آخر لنظر إليَّ ولبيتي وعائلتي وتساءل عمّا يمكن أن ينقصني ، واستغرب رغبتي في وضع حدٍّ لحياتي ، فكلُّ شيءٍ يبدو جيداً على السطح .

لكنه ليس رجلاً متوسط العمر سطحيّاً في مقهًى ما ، يضع وشاحاً بعقدةٍ أنيقة . هو ليس ذلك الرجل الذي يقف هناك ويقهقه ويحرّك الثلج الذي في الكأس ، ويقول كلَّ الأشياء الصحيحة ، ويملك رغبةً في تغييري مثل شيءٍ جامدٍ أو درّاجةٍ ، يستخدمني ثم يتركني خلفه حين يكتفي مني . لا ، هو ليس هكذا على الإطلاق .

قال إنَّ بإمكانه رؤية شيءٍ ما يحدث من خلال الصور ، وأنَّ قناعته بي قويةٌ واحترامه ليس له حدود ، وأنَّه قرأ كلَّ رسائلي

بدقّة وحلّلها ، وليس لديه شكٌّ في أنني فعلت شيئاً لا يُغتفر ، وأنّ من الرائع أنني واحدةٌ من القلائل الذين يقفون ويتحملون المسؤولية عن أفعالهم .

تمنّى لو أنّه يوجد المزيد من أمثالي ، لكنّني أعرف قطعاً أنّ معظم الناس يدمرون حياة الآخرين ثم يعيشون فيها ، ملتمسين لأنفسهم أعذاراً ، ويرتبطون بها ويستخدمونها طالما كانت صالحةً للاستخدام . ثم يوماً ما يستغنون عنها من دون أيّ ندم . بإمكانهم الحفاظ على ثبات شفتهم العليا من دون اهتزاز وهم يقولون ، آه هذا! لقد حدث منذ زمنٍ طويلٍ ، لماذا لا تتجاوزين ذلك؟

قال إنه لا بدَّ من مكافأتي ، وأنَّ الجميل في الأمر أنّنا غريبَين التقيا عبر الإنترنت ويساعد واحدهما الآخر . طبعاً بإمكاننا أن نقفز أمام قطارٍ ونُنهي الأمر ، لكنّنا بذلك نساعد أنفسنا ونحن نتواصل مع غريبٍ ، وهذا جميلٌ . وأضاف أنّه لن يخذلني ، وكلُ ما يريد معرفته الآن هو أين يجدني ، والوقت المناسب لتنفيذ ما طلبت .

ثم قال إنه لا يتوقف عن النظر إلى صوري وأنّه اشترى زيَّ الدراجة النارية ، وأخبرني كيف أغلق الستائر ليلاً وتدرب على المشي في هذا الزيِّ الغريب .

وأضاف أنّه بعد مدةٍ لم يعد يشعر كالأخرق . المشكلة الوحيدة أنَّ عليه التأقلم مع القماش وأن يمشي ببطء . قال إنه

تدرب على حركاتٍ سريعةٍ عندما صعد الدرج وهبط ، في البداية كاد أن يقعَ ، واختبأت قطّته خلف الكنبة ورفضت الخروج لأنّها لم تعرفه .

قال إنه يتدرب على ارتداء الزيِّ كلَّ مساء ، وهذا جيدٌ لأنَّ الجلد يصبح أطرى ، الجلد لونه أسود وعلى الذراعين خطوطٌ بيضاء والرقم 2 على الصدر ، لكنه أزال كلَّ ما هو أبيض بسكين .

ثم إنه تدرَّب على كلمة السرِّ وأنَّ الفضول انتابه وبحث عنها على الإنترنت ، ومما وجده يبدو أنَّ كولكا هو اسم مكانٍ في القطب الشمالي ، وأنَّه أيضاً اسم قريةٍ على حافة ساحل لاتفيا ، وأنَّه سيكون ممتناً إذا أخبرته قليلاً عن ذلك .

شعرت بتغير نبرة الرسائل ولا أعرف لماذا ، عندما ذكر كلمة السرِّ بدا بارداً وساخراً ، كما لو أنَّه يعني شيئاً بما قاله ، وأنني زللت وأظهرت له شيئاً لم أكن أنوي إظهاره ، وأنَّه كشفه وسيقوم الآن باستخدامه .

كأنَّني أسمع تهديداً في كلماته . ظلَّ يردد أنَّ كلَّ ما ينتظره هو الوقت والمكان ، وأنَّه أكثر من مستعد .

أبي وصل إلى المنزل ، أسمعه يتجه نحو المطبخ ويهتف مرحباً ، نهضت عن السرير وصرخت مرحباً ، وقلت إنني على الإنترنت وأغلقت الباب .

وقفت قبالة النافذة لفترةٍ من الوقت أنظر إلى الغابة . الغريب أنني أراها أقرب إلى المنزل من المعتاد . رفعت يدي لفتح النافذة لكنَّني غيرت رأيي ، لدي شعورٌ بأنَّ شيئاً ما يمكن أن يتسلَّل إلى الغرفة ، روحاً مظلمةً عالقةً هناك . أحاول التفكير بأنَّ الفكرة سخيفة ، وأنّ بإمكان مثل هذه الروح ، إن كانت موجودة ، أن تدخل المنزل من أيِّ صدعٍ أو نافذةٍ مفتوحة ، وربما تدخل من المداخن . لكنَّني فكرت في أنَّ الروح ربما تنتظرني أنا فقط ، وتريد الدخول من نافذتي أو بابي وليس من أيِّ مكانٍ آخر .

حاولت الابتسام ، هذا سخيفٌ جداً ، إنها أفكار طفلٍ صغير ، أفكاري تقودني .

خلعت ملابسي وارتديت منامتي وجلست على السرير . نظرت إلى الحاسوب وانتابني شعورٌ أنَّ الذئب المستوحد غاضبٌ مني وأنَّه أظهر لي أنيابه فجأةً . وأصابني شعورٌ مباغتٌ بالفزع لأنني لم أعد أستطيع أن أتنبأ بسبب غضبه .

كان هناك في السابق وقتٌ حيث لم أكن أهتم ، لكنه أصبح مفصليًا جداً للتغييرات التي أريد إحداثها هنا ، كأنَّه استشعر أنَّه يملك الدفّة الآن ، وهذا يخيفني . أريد أن أكون أنا من يراقبه ويستخلص الاستنتاجات وليس العكس . مرَّ وقتٌ في السابق كنت أشعر فيه أنني غير قادرةٍ على ذلك ، لكنَّني الآن لست متأكدةً ، وأنا واثقةٌ من أنَّه شعر بذلك .

أنتِ المتحكمة ، همست ، أنتِ ولا أحد غيرك .

شكرته على رسالته ، قلت إنني انشغلت في الأيام الماضية لأنَّ صديقين لنا تطلَّقا واتهمني الجميع أنني السبب ، لديهما ابنةٌ مراهقةٌ ، هي طالبةٌ ، والآن توقفت عن الأكل ولا تريد مغادرة السرير .

المرأة التي من الممكن أن ندعوها إيثيل غاضبةٌ مني وتدَّعي أنني كنت أتقرّب من زوجها الذي يمكن أن ندعوه كولين ، جلستُ مع زوجي نستمع إلى رسالتها الغاضبة على جهاز الرد الآلي ، ونحن نهزُّ رأسينا بغضب كأننا نستمع لشخص مجنون . لقد بدت كذلك فعلاً لبعض الوقت ، خاصةً حين تشرب . مرةً نامت ونهضت وشخرت كالخنزير وبدأت تلعن باسمي ، وقال زوجي إنها تشبه طاردة الأرواح .

الاستماع لسبابها على الجهاز أصبح عادةً ، مثل الأوبرا التي نتابعها يومياً ، واحدةٌ من أعزِّ أصدقائنا تنهار أمامنا .

جلست هناك مع زوجي أتنفس بصعوبة وأنا أستمع لاتهامات إيثيل ، وأقول كم هو مثيرٌ للشفقة أن يبدأ الناس بالبحث عمن يوجِّهون اللوم له . لكن في أعماقي كان لديّ شعورٌ بالضيق بأنَّ ما تقوله إيثيل صحيحٌ ، وأنَّ كولن كان يلتفت نحوي كثيراً في الفترة الأخيرة ، يتصل بي من هاتفه المحمول عندما يكون في المدينة أو في العمل ، ونتناول الغداء معاً أحياناً .

لكننا كنّا حريصين على عدم فعل شيءٍ قد ينقلب ضدنا . كان بإمكاني القول دائماً بأنَّ كولن صديقٌ قديمٌ لي ولزوجي ،

وهو يمرُّ بمرحلةٍ صعبةٍ ويحتاج لمن يتكلم معه . لقد شجعته دائماً على البقاء مع إيثيل والتحدث معها .

أحياناً حين كنا نتناول الغذاء كنت أشعر بأن هناك أجهزة تنصت أسفل الطاولة ، وأنَّ إيثيل وزوجي يستمعان لحديثنا ويسجّلانه ويعيدان قراءته بحواسٍ استخباراتيّة لإيجاد مبرّر للشعور بالغيرة نحوه ، لكنَّهما لا يجدان شيئاً . كولين يتكلم عن مشاكله بالحياة والعمل وتوقعاته وآماله ، وأنا أستمع وأتكلم عن إحدى مشاكلي ، لكن لا يتضمن ذلك الحديث عن زواجي ، وهذه حقيقة ، إذاً من أين جاء كلُّ هذا؟ الشعور بأنَّني أهرب من شيءٍ ما؟

شيءٌ ما كان في ذلك الشعور بالإلحاح في كلِّ مرةٍ كان يدعوني فيها للتحدث أو تناول الغداء ، كأنّهَ يوجد تفاهماً متبادلاً بيننا حول الأمور التي يجب ألّا نتحدث عنها ، التي كنّا لنتحدّث عنها لو استطعنا . لو كان هناك عالم موازٍ يمكن أن نعيش فيه وحدنا ، عندئذ كان من الممكن أن نفعلَ شيئاً أو أكثر ، مما قد يدير رأس إيثيل .

كان يرسل تلك الإشارات لي ، كانت هناك في إلحاحه ، وأنا أمتصُّها مثل إسفنجة ، لا أستطيع مقاومة الإلحاح . الغريب أنني غير منجذبةٍ إليه على الإطلاق ، بل على العكس أنا لا أجده جذاباً بالمرّة .

هو غير موجود في قائمة الرجال الذين قد أنجذب نحوهم ،

لكنَّني لا أدعه يعرف ذلك ، بالعكس ، أريد السماح له بالتوهم بأنَّنا سنكون زوجين كاملين معاً ، لو أنَّنا فقط في ذلك الوجود الموازي ، لكنّه الحظ السيء ، نحن نصنع خياراتنا في النهاية ، شخصٌ آخر يأتي أولاً ، ويبقى لنا أن نتعامل مع ما اخترناه ، وكلُّ ذلك الهراء . كنت أغذّي هذا الوهم فيه لأنَّني أعرف أنَّه لا يستطيع مقاومته ، كان بحاجةٍ ماسّةٍ لهذا الوهم في هذا الوقت ، لأنَّ الواقع كان أصعب من قدرته على الاحتمال . لقد منحته الوهم وهو منحني إلحاحه .

جلست معه على الغداء وقدمت النصائح والعظات لتصحيح أموره مع إيثيل ، في الوقت ذاته كنت أعرف أنَّ جلوسي معه يبعده أكثر عنها . هذه هي حياتي ، كأنني بحاجةٍ لجرح الآخرين ، وأفعل ذلك من دون أن أشعر ، صديقاي سيتطلّقان ، ابنتهما توقفت عن الأكل ، ويقولون إنَّ الأمر جديّ . سيأخذونها إلى المستشفى لإطعامها بالقوة ، إيثيل اتصلت من المستشفى ، كانت تهمس على الهاتف ، صوتها يزداد غضباً كلَّ مرة ، لا بدَّ وأنَّ فمها يخرج اللعاب في كلِّ مكان ، كأنَّها مسرحيةٌ إذاعيةٌ ليس لها علاقةٌ بي .

وضعت الحاسوب على الأرض وذهبت للحمام واستحممت ، غسلت شعري ونظفت أسناني . وقفت أمام المرآة وسرّحت شعري ببطءٍ ، نظرت إلى وجهي وحاولت أن أحدِّق في عينيَّ وأجعل شيئاً ما يحدث داخلهما .

شيءٌ في عيني يتحول إلى عدسةٍ مكبّرةٍ وأنا أحملها في وجه الشمس داخل عقلي ، ثم أنظر إلى نفسي بينما يبدأ الدخان في الخروج من شعري ، ويتجعّد وجهي مثل البلاستيك ، وبعد ذلك يذوب وتشتعل النيران في شعري كالشعلة .

عدت إلى السرير وفتحت الحاسوب مرةً أخرى . حاولت السيطرة على تنفسي وفكرت بأنني أنا المسيطرة ، ليس بإمكانه أن يجبرني على منح أيِّ شيءٍ رغماً عني ، إن رغبت بالاحتفاظ بما أريده بداخلي ، فأنا أستطيع ، وأستطيع أن أثبت ذلك .

قلت إنَّه على حقٍّ فيما يتعلق بكلمة السر ، إنَّه اسم قرية على ساحل لاتيفا . في الواقع ، إنها ليست قرية ، توجد منارةٌ وشاطئٌ وأشجارٌ ميتةٌ وأكواخ صيادين قديمةٌ تعود للقرن الثامن عشر .

ذهبنا إليها أنا وزوجي السابق ، في الصباح الذي أجريت فيه اختبار الحمل ، يوم السبت في أوائل شهر تشرين الأول والطقس كان جميلاً . خرجت من الحمام مع الاختبار ونظرت إليه لأرى ردّة فعله ، كما لو أنني لم أكن أعرف كيف أتصرف بنفسي ، أعرف فقط ما يحدث في الأفلام ، رأيت ذلك مئات المرات ، حين يسأل الرجل هل أنت متأكدة؟ إذا زاد ذهوله وسعادته نعرف أنَّ الأمور على ما يرام ، إذا بدا العكس يعني أنَّه ليس ناضجاً وغير مسؤول . في أفلام أخرى يصبح مجنوناً من السعادة ، يرقص في الشقة أو في الحفلة ،

عندها نعرف أيضاً إن كانت الأمور ستكون على ما يرام أم لا ، فعندما يكونان بهذه السعادة لا بدَّ وأن تأتي تلك اللحظة الوحشية حين يستيقظ الطفل وهو يبكي ، والأب والام يتجوّلان في مناماتهما وينظران لبعضهما البعض بنظرات متجهّمة .

كان سعيداً ، ابتسامةٌ كبيرةٌ ارتسمت على وجهه ، ضمَّني لوقتٍ طويلٍ في الممر ، شعرت لأول مرةٍ أنني أخسر نفسي وأذوب بين ذراعيه لأنني أصبحت جزءاً أكبر من نفسي . نظرت إلى السقف حيث المصباح ، مصباحٌ صغيرٌ وقذرٌ ، ومرةً حين كنت سكرانةً قلت إنَّ قماشه يشبه جلد الإنسان .

قال إنَّ علينا أن نذهب في نزهة ، نتوقف عند محطة الوقود ونشتري بعض الطعام ونذهب نحو البحر . لم يكن يقفز فرحاً مثل الرجل في الفيلم ، بل بدا هادئاً وحاسماً في الوقت نفسه ، مثل قاربٍ مرَّ قربي وألقى بحبلٍ نحوي ، أستطيع أن أتعلَّق فيه وأجلس بهدوءٍ بينما تجري المياه وتتدفّق حولي وأنا أعرف في أعماقي أنَّ لا شيء يمكن أن يحصل لي بعد الآن ، وأنّه لن يكون عليَّ العمل بجدٍّ لأستمر بالوقوف على قدمي . لم يكن عليَّ فعل أيِّ شيءٍ ، فقط التمدُّد هناك ، والسماح للسفينة الكبيرة بسحبي إلى الشاطئ .

ارتدينا ملابسنا وذهبنا إلى السيارة . اشتريت سترةً إضافيةً ووضعتها في حضني ، عندما عدنا تحسَّستها بين أصابعي ، لم تكن من صفاتي أن أفكر في المستقبل وآخذ الاحتياطات

اللازمة للبرد ، جعلني هذا أبتسم . سألني كيف أشعر ، قلت إنَّني بخير ، بخير أو سعيدة ، لا أستطيع أن أتذكر ، لا بدَّ أنَّها كانت بخير . ربما عندما تكون طفلاً تحاول أن تقول كلَّ الأشياء فقط لتجرِّب كيف تخرج من فمك وعقلك .

أصبح الجو غائماً ، توقفنا في محطة وقودٍ واشترينا شيئاً نشربه وشطائر لحم ملفوفة في غطاءٍ بلاستيكيٍّ . قال من الجيد أنَّ الجو غائمٌ وإلا سيكون الشاطئ مزدحماً . بدأت الطريق تصغر ، ومررنا قرب منزلٍ مهجورٍ له كوّات كانت تستخدم كنوافذ ، ولوحاتٍ رُشَّت باللون الأحمر والفضيِّ ، ثم مررنا قرب بيتٍ بلاستيكيٍّ مهجور ، بدا مثل حمام سباحة مملوءٍ بزجاجٍ مكسورٍ في وسط اللامكان .

نمتُ ثم استيقظت على صوت فرامل مكبح اليد وهو يسحبها . نظرت من النافذة وكنا تماماً بمحاذاة البحر . العشب هادئٌ والبحر أبيض تحيط رغوة بأطرافه . خرجنا ، الريح باردةٌ وتملأ المكان . جلب السلة من صندوق السيارة ، ثم وجدنا لنا مكاناً بين الكثبان الرملية ، ملت عليه وجلست بين ساقيه ، لفَّني بالبطّانية ، وضمَّني بقوةٍ ، لكنَّني لم أكن أشعر بالبرد على الإطلاق .

كنت نعسةً وغارقةً في أفكاري ، ملفوفةً في بطانيَّةٍ وهو يضمني كأنَّه بطانيةٌ ثانية ، والرمال والبحر والسماء تضغطني وتضغطه والبطانية ، ويوجد شيءٌ أكبر احتضن كلَّ شيء ،

وانتهى كلُّ شيءٍ إلى احتضانٍ نهائيٍّ ، وكان هذا جميلاً ، من الجيد أنَّ كلَّ هذا الاحتضان سيكون له نهاية .

وفكرت في شيءٍ سمعته على الراديو بينما كان أبي يوصلني إلى حفلة . كنت في العاشرة أو الثانية عشرة عمري ، كنت متأنِّقةً وقلقةً لا أجرؤ على التحرك كي لا يفسد ثوبي . اللقاء على الراديو جرى مع بعض العلماء ، قال أحدهم أنَّ الطفل عندما ينمو داخل جسد الأم فهو يمرُّ بجميع مراحل التطور كما لو أنَّها تكرِّره مرةً أخرى ، أي أنَّ الطفل يتذكر من خلال جسد الأم كلَّ المراحل التي مرت هي بها حتى وصلت إلى هنا ، كان الصوت في الإذاعة تنويريٌّ وأقرب إلى كلام ديني .

وفجأةً فهمت ما قاله العالم ، كأنَّ داخلَ جسدي فيلم يُظهر للجنين كلَّ مراحل التطور ، منذ كنا سمكةً خرجت من المحيط حتّى أصبحنا سحاليَ وضفادع ، ثم وقفنا على رجلين وأصبحنا قردةً ، إلى أن وصلنا إلى مرحلة البشر الأذكياء وأصبحنا قادرين على مطاردة القرود في الغابة وبناء المدن ومحطّات الطاقة . التفكير في شيءٍ كهذا ، وأنَّه يحدث داخل جسدي ، كان مهيباً ومقززاً على حدٍّ سواء .

نظرت إلى المحيط وفكّرت بالسمكة الصغيرة داخلي ، وتساءلت إن كانت تسمع صوت المحيط ، وإن كانت تشعر أنَّها في موطنها وهل هي سعيدةٌ هناك .

بدأ بالحديث ، أو ربما كان يكمل حديثه . كان يتحدث عن

البرنامج التلفزيوني ، وأنَّه يشعر بالسخف وهو يجلس هناك في انتظار المضيف ليأتي ويتحدث إلى صاحبه ، وتلك الاجتماعات مع قائد الفرقة قبل كلِّ عرض ، لاعب الطبول يستخدم المنشِّطات ويعتقد أنَّ أحداً لا يلاحظ ذلك ، جميعهم يعتقدون أن قائد الفرقة يزداد جشعاً كلَّ يوم ، وكلما ذُكِر المال أو النسب المئوية للعروض يتبادلون النظرات .

كان متعباً من كلِّ ذلك لأنَّه كان مالاً سهلاً ولا يشكّل أيُّ تحدٍّ على الإطلاق ، ثم أضاف : على الأغلب من الخطأ قول ذلك لأنَّه أصبح المسؤول والمعيل الآن ، لكن كلُّ ما أراد القيام به هو الطلب منهم أن يغربوا عن وجهه وأن يجلس في البيت ويكتب ألبومه الخاص الذي طالما حلم به . الألبوم الذي يُخلص به لنفسه ولكلِّ ما تأثر به ، الألبوم الذي يُظهر كلَّ المفاهيم والتشكيلات الموسيقية التي يؤمن بها .

تراجع صوته إلى الخلف ثم أصبح مجرد صوتٍ خلفي ، مثل موجاتٍ بعيدة ، كلُّ واحدةٍ تريد الكثير لكنها تحصل على القليل . نظرت إلى البحر وفكرت بالسمكة في داخلي وبملايين وملايين الأسماك طوال الملايين والملايين من السنين . لقد صُمّمت لفعل هذا ، والآن ها أنا أخشع وأكرّس نفسي تماماً لهذه السمكة الصغيرة ، مثل الملايين والملايين ممن فعلوا ذلك قبلي .

بالجلوس على شاطئ كولكا بين رجليه فقدت شيئاً لم أفقده من قبل ، خصوصيتي ، لقد أصبحت جزءاً من شيءٍ كبيرٍ جداً

لم أعد أستطيع حصره ، وفوجئت بأنّني ما زلت أشعر بالمسؤولية عني وعن السمكة الصغيرة في داخلي . كان سيكون أكثر منطقيةً لو أنّني انزلقت في شيءٍ مظلم وبلا معنى ، لكنَّ هذا لم يحدث ، وفي هذا التناقض الكبير شعرت بسلام أكبر بداخلي ، وبأنّني في موطني وفي مكاني أكثر من أيِّ وقتٍ مضى .

أتمنى لو أنّني تمسكت أكثر بذلك الشعور .

مشينا على الشاطئ ، ونحن نأكل الشطائر ، ومسحنا أصابعنا في الرمل . شعرت بسعادةٍ كبيرةٍ ورميت نصف شطيرتي في البحر . نظر في وجهي وسألني بصوتٍ غريبٍ لماذا فعلت ذلك وأنّه مضيعةٌ للطعام ، وأنّه دفع مالاً كثيراً مقابله ، وأنّه كان بإمكاني أن أسأله إذا كان يريد بقية الشطيرة؟

خرجت الشمس لفترةٍ ثم اختفت وراء الغيوم ، لم يكن هناك سوى الرمل والبحر . طريق العودة طويلةٌ ، وصلنا إلى السيارة وذهبنا إلى البيت .

أصابعي ترددت فوق لوحة المفاتيح ، تركتها ترتاح .

أتذكر ما أحسست به عندما بدأت الكتابة . كنت قد قررت أنني سأكتب شيئاً يجعله يعرف من هو المتحكم ، وأسمح لنفسي أن تعرف من أنا أيضاً . ليس عليَّ التخلّي عن أيِّ شيءٍ إن لم أكن أرد ذلك . ها أنا اختلق شيئاً على الفور ، فعلت تماماً ما خططت له وتمدَّدت على السرير وأنا أعرف بداخلي أنَّ هذا لم

يساعد ، لا زلت أزال أفقد السيطرة ، أنا أتورط في شيءٍ لا أستطيع السيطرة عليها .

أعتقد أنَّ الأمر الأكثر أهمّيّة هو ألّا أخبره بالحقيقة ، لأنَّ الحقيقة ثمينةٌ جداً ، لذا اخترعت الكثير من الأكاذيب ثم شعرت أنَّها ثمينةٌ تماماً كما الحقيقة ، وربما أكثر .

في نهاية الرسالة كتبت اسم القلعة ، وطلبت أن ينتظر في الغابة مساء السبت بعد يومين من الآن .

استيقظت في اليوم التالي وذهبت إلى المدرسة . عادةً أفتح الحاسوب في الصباح قبل الفطور لكنَّني لم أفتحه هذه المرة ، لا أريد أن أرى . تناولت الفطور وقلت إنَّ البيت يبدو فارغاً دون سارة ، وعنيت ما قلته . نظر أبي بقلق نحو كاترينا ووقف كليهما عند الحوض ، يبدو أنَّهما يقشّران شيئاً .

كانت تضع شيئاً على الحوض ، ثم خرج صوتٌ عالٍ ، استدارت نحوي وقالت أعلم ، وكأنَّها على وشك البكاء . قالت إنَّها اعتقدت أنَّ الأمر سيمرُّ ، كل من هم حولها قالوا لها حين تطلّقت لا تقلقي ، سوف تعتادين على الأمر .

- ولكنَّني لم أعتد عليه .

كاترينا يائسةٌ مثل طفل .

مرَّت ثلاث سنوات وما زلت أشعر كأنَّ أحدهم قطع ذراعي كلما غادرت البيت .

أحاطها أبي بذراعه ، قالت إنَّ عليها أن تدَّعي أنَّ الأمر لا يؤلمها ، من أجل سارة على الأقل ، سارة لم تطلب أمّاً لتعتني بها .

أمرٌ غريبٌ عندما تتظاهرين أنَّ الأمر لا يؤلمك ، بعد مدّة ستصدقين الأمر- لكن يحدث شيءٌ أحياناً كما حدث عندما قُلت هذا ، أنا آسفة...

قالت إنه لم يكن خطئي . عيناي في عينيها ، وقفت أمامي للحظة ، مدَّت يدها إلى خدي بلطفٍ ولمستني بأصابعها ، ثم غادرت المطبخ .

أوصلني أبي إلى المدرسة ، قال لا بأس كاترينا تصبح تعيسةً أحياناً ، نظرت من النافذة وقلت لا بأس ، وكان ذلك سخيفاً لأنَّني أعدتُ ما قاله ، كأنني أريد أن أسخر منه ، لربما كنت أسخر منه فعلاً في أعماقي ، من يعرف ماذا يحصل هناك .

الحصّة الأولى كانت حصّة الرياضيات . المعلم عصبيٌّ يضع نظارات سميكة . انحنى قربي وقال ربما محتوى الرياضيات الذي يُدرّسه لنا طفوليٌّ بالنسبة لي ، وأنَّ الرياضيات ليس في سلَّم أولويات المدرسة وحتى بإنجلترا للأسف ، وأنني جئت من بلد هذا وذلك ، . ولم أعرف عمّن كان يتحدث ، ولكنَّني أعتقد أنَّها أسماء أشخاص مشهورين في الرياضيات في أونجا - بونجا فازوا ببطولات شطرنج وأرسلوا أشخاصاً إلى القمر ، ولا يهم إن كانوا قد قُتلوا لأنَّ حياة البشر ليست ذات قيمة هناك . حاولت

أن أمضي الوقت أثناء الاستراحة مع مادي وصديقتيها ، كنت على ما يرام ، لا أقول الكثير ولم يتوقع مني أحدٌ أي كلام ، ألمح شيئاً في عيونهم عندما ينظرون في وجهي لا أستطيع أن أحدِّد ما هو ، ولست على يقينٍ من أنَّني أريد أن تحديده أصلاً ، لكن طالما أنا هناك أشعر بالاطمئنان .

أبذل قصارى جهدي من أجل عدم التفكير في ذلك ، كأنَّ هناك من يربِّت على كتفي وليس عليَّ أن أنظر ، إنَّها تربيتةٌ لتذكيري بما قمت به ، وأنَّني فعلت ذلك فعلاً .

الذئب المستوحد يملك عنواننا وينظر إلى صور كاترينا في مدخل غرفة نومها بفستانها الأسود المزيَّن بأزهارٍ كبيرة ، ربما أرادت أن تبدو مثل الإسبان ، امرأة ترفع طرف ثوبها وتقذفه بعيداً في رقصة الفلامنكو وهي مرفوعة الرأس .

وربما كانت في أعماقها ترغب في أن تكون امرأةً بشفةٍ مقسومةٍ وأحمر شفاهٍ فاقع وعيونٍ نصف مغلقة .

ينظر إلى صورها وابتسامتها الباهتة ، من الممكن أن تعجبه ابتسامتها قليلا حين يرى صورةً واحدةً فقط ، لكن عندما يرى ثلاثةً أو أربعةً ويدرك أنَّها تستخدم نفس الابتسامة ذاتها أينما ذهبت ، في المدخل ثم أمام الحائط مع اللوحة وفي أيِّ مكان في الغرفة ، عندها سيشعر بالاشمئزاز ، كما عندما تكتشف أنَّ ما اعتقدته عملاً يدوياً يوجد منه الآلاف في شحنةٍ قادمةٍ من مصنعٍ في شنغهاي .

ينظر في وجهها ويرتّب زيَّ الدراجة النارية الأسود ، ويفكر أنَّ الأمر سيحدث فعلاً .

كيف يمكنك أن تعرفي ، أقول لنفسي ، كيف يمكن أن تكوني متيقّنة من أنَّه ليس شخصاً آخر؟ مراهقاً بوجه خنزيرٍ كبيرٍ في كندا افتعل كلَّ هذا .

- لماذا يكون شخصاً آخر؟ أقول .

- لأنك كذلك . أنا؟

- طبعاً أنت ، أنت ليس لديك ابنه ، ولم يكن لديك حبيبٌ زوج يعزف الغيتار في برنامجٍ حواريٍّ على التلفاز ، لقد اخترعت شخصاً بالكامل .

- لا يهمُّ من أنا ، المهمُّ ما أريد تحقيقه .

- وما هو ذلك؟

- أنت تعرفين ما هو .

- هيا ، فقط أخبريني ، لماذا لا تخبرينني؟

- لأنني لا أريد ، لأنك تريدين توريطي بشيءٍ ما .

- حقاً؟

- حقاً .

- بماذا أريد توريطك؟

- لن أخبرك .

تُهت بين الأصوات . نظرت من نافذة الصف وتساءلت إن كانت هذه الأصوات علاماتٍ للجنون ، لا يمكن أن يكون جنوناً

حقيقيّاً لأن الصوتين يأتيان من داخلي ، فقط النبرة التي تختلف بعض الشيء ، صوتٌ فضوليٌّ ومتطلبٌ ، والآخر مراهقٌ ويحاول تفادي والداً مملاً .

بعد الغداء لدينا حصة كيمياء ، ضيَّعتُ معظم الحصّة لأنَّ المعلمة طلبت مني الذهاب إلى غرفة الحاسوب لأحضر حاسوباً . سألتني إن كنت أعرف مكانه ، وعندما تردَّدت عرضت مادي أن تريني المكان .

نزلنا أسفل الدرج وحاولت التصرف أنَّه وكأنّ أمرٌ الأمر طبيعيٌّ بالنسبة لي ، أن آخذ حاسوباً من المدرسة إلى بيتي . هناك في أونجا

– بونجا سرت إشاعةٌ عن زميلٍ يعطيك حاسوباً ، وسرت شائعاتٌ لا حصر لها حول هذا الزميل . كما انتشرت شائعةٌ عن المعلمين الذين يقدمون نصائح يزكّون حول الطلبة المتفوقين إلى المكتب الرئيسي في الاتحاد الأوروبي ، بعضهم تمَّ اختيارهم وإرسالهم إلى بروكسل حيث سجِّلوا في مدرسةٍ خاصة ، وبعد ثلاث سنوات أصبحوا دبلوماسيِّين بمناصب عليا في الاتحاد الأوروبي ، مع مروحياتٍ وأشياء أخرى . لكنَّ الشائعات قالت أيضاً أنَّهم غسلوا أدمغتهم ، كما لو أنَّهم في طقسٍ ديني .

مادي قالت إنَّ هناك الكثير من الحواسيب لأنَّ معظم الطلاب يفضِّلون حلَّ الواجبات باستخدام حواسيبهم الخاصة ، عندها توقفت فوراً في الممر ، قلت إنها على حق ، يبدو الأمر

مشتّتاً أن أحاول متابعة حاسوبين . سألتني إن كنت أريد أن ألقي نظرة إلى على الحواسيب على الأقل . فسألتها إن كان لديها حاسوبٌ من المدرسة ، لكنها هزَّت رأسها بالنفي ، وعندها هززت رأسي أنا أيضاً .

قلت يمكن أن نخبر المعلمة أنَّني رأيت الحواسيب وأنَّني لا أريد أيًا منها .

ثم سألت مادي إن كان بإمكاني الذهاب إلى بيتها بعد المدرسة ، وقالت طبعاً .

قالت طبعاً ، لكنَّ صوتها لم يكن طبيعياً . أخفضت رأسها وقالت إنها وعدت أمها أن تكون مع أخيها الصغير لأنَّ لديها موعداً في المستشفى لزيارة طبيب نفسيٍّ ، أبوها سيذهب أيضاً إلى اجتماعٍ مهم . قلت لا مشكلة ، ثم قالت إنَّ عليها الذهاب لشراء بعضِ الحاجيات للمنزل بعد المدرسة ، وقلت لا مشكلة ، أحبُّ شراء الحاجيات ، ضحكت مادي قليلاً وقالت حسناً ، كانت تلبس سترةً سوداء مع قميصٍ أخضر بقبَّةٍ عالية .

تفادينا بعضنا بقية اليوم . ذهبت إلى الحمام واتصلت بأبي وأخبرته أنَّني ذاهبةٌ إلى بيت مادي ، في البداية قال إنَّه يوم الجمعة ، وأجبت إذاً؟ قال إنَّها ليست فكرةً جيدةً لأنَّنا ذاهبون إلى حفلة . لكنك لم تخبرني عن الحفلة ، أنت تخرِّب خططي . قال لماذا لا تذهبين إلى مادي لبضع ساعات ، وبعدها يقلُّني من بيتها . بدأت أقول شيئاً ، ثم أقفلت الخطَّ في منتصف الجملة

وأطفأت الهاتف . هذا ما أفعله عندما أريد توفير بعض الوقت ، أستطيع القول إنّ البطارية فرغت .

الحصّة الأخيرة قراءة شعر . أشعلت المعلمة شمعةً وقرأ اثنان قصائدهما . أعتقد أنّهما صديقان لأنَّ قصائدهما تبدو متشابهةً وقرأا بنفس بالطريقة غير التقليدية ذاتها . أحياناً يغلقان عينيهما ، وأحياناً يحدِّقان فينا ويزمجران ويقهقهان ، ويبدو أنّهما يريدان تهديدنا ، ثم دُعينا لتحليل القصائد . ساد صمتٌ طويلٌ ثم ضحك الجميع ، ساد شعورٌ قويٌّ من الألفة ، أحدهم قال إنّنا لم نفهم شيئاً هذه المرة أيضاً .

بعدها هدأ الجميع وقرأت المعلمة قصائد قصيرةً تبدو متواضعة . أحببت طريقة قراءتها للقصائد ، من الواضح أنّها تحبُّ الشعر لكنَّها تبقي الأمر لنفسها ، ولا تحاول أن تقحم القصائد في فمنا .

بعد المدرسة ذهبت إلى خزانة مادي التي كانت تبحث فيها عن شيء ، سألتها عما تبحث فقالت عن قائمة مشترياتٍ أعطتها إيَّاها أمها هذا الصباح .

جثت مادي على ركبتيها وفتَّشت كلَّ الخزانة وازداد غضبها مع الوقت . خزانتها كانت مرتبةً قبل دقيقة ، الآن تبدو وكأنَّ قنبلةً انفجرت فيها . توقفت فتاتان خلفها وقالتا شيئاً وضحكتا ، استدارت مادي وردَّت بشيءٍ أقرب إلى السُّباب ، ولكن بصوتٍ منخفض .

ابتعدت الفتاتان وبقيت أنا . بدأت مادي تفرغ الخزانة وتضع كلَّ شيءٍ مهما كان صغيراً على الأرض . أردت أن أسألها إن كانت تريد مساعدتي ، لكنَّني فكرت بالفتاتين وما قالتاه وقرّرت أنَّ الأمر سيبدو مملاً . أردت أن أقترح أن تتصل بأمها من أجل كتابة القائمة من جديد ، لكنَّ هذا يبدو أكثر مللاً ، وحتى الملائكة ستتنهَّد لو سمعتني أقول ذلك . بدأت مادي تعيد ترتيب الأشياء في الخزانة وأغلقتها ، خرجنا ، وبدأت تمطر . نظرت في وجهي وكشَّرت ، وبادلتها التكشيرة . وقفت قرب درّاجتها ويداي في جيبيّ ، بينما كانت تحاول أن تغلق أشرطة خوذتها ، لكنَّ الأشرطة متشابكة . وقفت هناك أنظر إلى الطلاب والمارّة الذين يقولون شيئاً أحياناً ، ليس فقط لمادي فقط ولكن لنا نحن الاثنتين ، لم أفهم ما يقولونه . أردت الاعتذار لهم ، أردت القول إنني لن أجعل من هذا عادةً ، هذه المرة فقط ، لن أكلِّف مادي العناء بعد المدرسة مرةً أخرى .

المطرُ جميلٌ وبارد . مادي شغَّلت دراجتها وارتفع صوتها كأنَّه منشار . جلست خلفها ، وانطلقنا .

اتجهت عكس الطريق الذي أعيش فيه ، بعد مدّةٍ قصيرةٍ أصبحت يداي حمراوان ومبلّلتان . أتساءل إن كنت أستطيع الطلب من مادي أن تخبئني في غرفتها . أتساءل إن كانت ستسأل لماذا . أستطيع تلفيق شيءٍ ما ، ليس عليَّ أن أحدِّد الأمر ولا قول الكثير .

فعلت ذلك مع صديقةٍ مرةً ، نمت أسفل سريرها ، أو على الأقل كان من المفترض أن أفعل . جهّزنا كلَّ الترتيبات ، البطّانية والوسادة والأكل في حال جعت أو عطشت في الليل .

أرخت غطاء سريرها للأسفل كي لا يراني أحد . لكنَّ أبي ظهر هناك فجأةً ، أتذكر صوته في الممرِّ وكم كان مستمتعاً ، وأهل صديقتي أيضاً . لم نفهم كيف اكتشفاني واتصلا بأبي ، كأنَّها لعبةٌ بالنسبة لهم أن يجعلونا نعتقد أن بإمكاننا النجاة بأفعالنا .

استدارت مادي لليمين حيث اصطفّت بيوتٌ في كلا الطرفين . توقفت قبالة بيتٍ على مدخله سيارة كبيرة متوقفة ، وفي حديقته أرجوحةٍ . يحيطه سياجٌ من جهة الطريق ، والكثير من الأوراق على الأرض ، تجعل بعض نقاطٍ من التوت الأسود تبدو وحيدةً هناك .

– ها قد وصلنا ، قالت مادي .

– منزلٌ جميلٌ ، قلت .

نظرت إلى البيت باستياءٍ وقالت شيئاً . فتحت علبة البريد وأخرجت كومةً من المجلات والمظاريف .

نظرت إلى الرسائل وتوجّهت نحو الباب وفتحته . صرخت بشيءٍ وأسقطت حقيبتها على الأرض .

دخلتُ بعدها وخلعتُ معطفي . جاءت أم مادي وحيّتنا . تبدو مسنَّةً وتضع مكياجاً ثقيلاً ، ابتسمت وقالت كم هذا جميل! وجهها صارمٌ وثابت ، أذناها وأصابعها مزينةٌ بالذهب .

سألت مادي عن جونا فردّت أمّها بأنّه نائم . خرج صوتٌ ثم ظهر والد مادي ، كبيرٌ في السنِّ وأنفاسه ثقيلة ، وشعره رماديٌّ وأجعد . قال مرحباً حبّي ، وقبّل مادي على وجنتيها . أخبرت مادي أمها أنّها لم تستطع إيجاد قائمة المشتريات ، فقالت أمها إنها قامت بشراء الحاجيّات ، فصاحت مادي : لماذا لم تخبريني؟ فتشت في خزانتي خمس مرات على الأقل! ابتسمت أم مادي وقالت إنها وجدت بعض الوقت لتقوم بشراء الحاجيات ، وجونا احتاج لبعض الأغراض أيضاً فذهبا معاً ، والآن أنت حرّةٌ لفعل ما تريدينه ، ورمقتني مع ابتسامة . والد مادي يربط حذاءه ، طلب أن يخفضوا أصواتهم ليسمعوا صوت جونا في حال استيقظ وأراد شيئاً . رائحة بيت مادي تشبه البلاستيك ووالداها مسنّان ولا يشبهانها . طبعاً السبب واضح . أفكر كم كان محيّرًا لمادي عندما كانت صغيرة أن تنظر لوالديها ثم لنفسها في المرآة من دون أن تميز صفةً واحدةً تجمعها بهم ، لون البشرة أو الشعر أو العينين . لا بدَّ أنّها مرّت بأوقات كرهت فيها نفسها لأنّها لا تنتمي لشيءٍ ، ولا يبدو الأمر طبيعياً ، مهما قالا إنّهما يحبانها وأنّهم عائلة .

ربما فكّرت في أنّها سقطت من عالم خارجي ، أو ربما نظرت إلى نفسها في المرآة أولاً ، ثم لوالديها ، ثم كرهتهما لأنّهما لا يذكرانها بنفسها على الإطلاق .

وفي وسط كلِّ هذا الكره قررا أن يتطلّقا ، أتساءل من ستبدأ بكرهه الآن .

غادر والداها بعد أن ودّعانا في الصالة . نظرت إليهما وهما يتوجهان نحو السيارة وبدا وجهاهما مثقلَين . عندما رأتني أم مادي من النافذة حاولت أن تتصنَّع ابتسامةً وشعرت بالإحراج ، كأنني تجسَّست عليها ، لذا رفعت يدي ولوَّحت لها .

سألتني مادي إن كنت جائعةً ، أجبت بلا . ذهبت نحو النافذة وغرست إصبعها داخل نبتةٍ وقالت إنَّ أمها بدأت تنسى . طلبت أن أساعدها وسقينا النباتات . هناك نباتاتٌ في غرفة الجلوس والمطبخ ، ويوجد مرسمٌ خلف البيت مع فيه طاولةٍ مهندسين ومسطرة وأقلام ، وفيه نباتاتٌ أيضاً . الغبار في كلِّ مكان ، يطفو كأنّه غيومٌ في زوايا كلِّ غرفةٍ ندخلها . صعدنا الدرج وسقينا النباتات ، بدأت مادي تتنقل بحذرٍ أكبر . توقفت أمام غرفةٍ ، الباب مفتوحٌ نصف فتحة ، الظلام دامسٌ في الداخل ، مدَّت مادي جسدها ونظرت كأنَّها تقدم احترامها لشيءٍ مقدس ، أو معبدٍ ملكي . ذهبنا إلى غرفةٍ أخرى وكانت غرفة والديها . في الزاوية صناديق تبدو وكأنَّ هناك من كان يبحث فيها ثم استسلم وأرجع كلَّ شيءٍ إلى مكانه بسرعة . فكّرت بمادي وخزانتها والفوضى في البيت وشعرت بضيق .

وضعت مادي إبريق الماء على الطاولة .

- هل من المزيد؟ سألتها .

- لا ، أجابت .

ذهبنا إلى غرفتها . لا يوجد نباتاتٌ هنا ، السرير غير مرتّبٍ ، وعلى السرير صينيةٌ عليها صحن حبوبٍ وكأس شاي .

اعتذرت ، ورفعت الصينية عن السرير وأخذتها إلى المطبخ . جلست على السرير ونظرت حولي . يوجد صورٌ كثيرةٌ على الحائط صورٌ كثيرةٌ ، ليست صوراً أصليّة لكنها مطبوعة ، في أحدها تضع خوذةً خضراءً وتنحني وتبدو كعامل إنشاءاتٍ بنظرةٍ جديَّة .

صورٌ كثيرةٌ لشابٍّ لا يلبس شيئاً سوى بندانةٍ عصبة على رأسه وشورتٍ وبنطال قصير كاكي ، عضلاته مفتولةٌ وبشرته ملونةٌ من الشمس ، يضحك كثيراً ويبدو كأنّه في غابة .

في إحدى الصور يتسلق شجرة نخيلٍ كالقرد ويحمل سكيناً في فمه .

أعتذر على لهذا .

جلست مادي على كرسيٍّ يبدو من الستينيات .

حملت جهاز التحكم وفتحت التلفاز ، سحبت رجليها أسفل جسدها وبدت فجأة هنديةً حقيقيةً فجأة .

غيرت القناة عدة مراتٍ عديدة ، ثم وجدت برنامجاً عن شابَّين يعيشان في نفقٍ أسفل الطريق السريع ، يبدوان مُترفين

لكنّهما قد فقدا وظائفهما ، ولذا هما مستاءان من زملائهما القدامى الذين يمرُّون عبر النفق . كانا يحاولان الوصول إلى النشوة ، يأخذان البذور من العشب في الحديقة المجاورة ، يطحنانه في حقائبهما ويستنشقانه . بالأساس كانا يحاولان الوصول إلى النشوة ، يأخذان البذور من العشب في الحديقة المجاورة ، يطحنانه في حقائبهما ويستنشقانه . تقول مادي إنه البرنامج الكوميدي الأكثر شهرةً في البلاد حالياً .

في الفاصل الإعلاني أمسكت مادي جهاز التحكم لتغيير القناة ، ثم غيرت رأيها وأعادته لمكانه مرةً أخرى . سألتها إن كان الطلاق نهائياً ، قالت أنَّهما يريا استشارياً .

فجأةً رأيت طفلاً يلبس منامته خارج غرفة مادي ، يبدو باهتاً ونحيلاً ، ربما في السادسة أو السابعة من عمره ، يمشي في الممر كأنَّه لم يستيقظ بعد . أشرت باتجاهه ونهضت مادي ، لا بدَّ أنَّه جونا ، التفت إلى مادي وبدا متفاجئاً ، كأنَّه لا يميزها . وجهه يبدو نعساً ومُسنّاً .

وضعت مادي يدها على كتفه وانحنت وتكلَّمت معه ، كان يحتجُّ ، بدت مستعجلةً وتقريباً دفعته عبر القاعة . أخذت جهاز التحكم وأخفضت الصوت ، بعد قليل سمعت صوت دفقة السيفون ورأيتهما يدخلان مرةً أخرى إلى القاعة ، وهذه المرة نظر جونا نحوي ثم نحو مادي ، لوّحت له لكنه لم يرني ، بعدها ذهبا .

تابعت البرنامج التلفزيوني ، هما الآن في حلم . يجلس المترفان في مطعم ويطلبان طبق محارٍ ، أحدهما يدَّعي أنَّه يضرب أنفه ويري الناسَ المنديل وبداخله محارٌ ، يأتي النادل ولا يحرك عضلةً في وجهه ، ويأخذ المحار من المنديل ويأكله .

سمعت صوتاً ، أخفضت الصوت . جونا يصرخ باسمي من الغرفة المجاورة ، ومادي تُسكته .

ذهبت إلى هناك . جونا ممدَّدٌ على السرير ويحاول أن يفلت من يد مادي ، وهي تطلب منه أن يخرس ، اخرس ، اخرس .

ماذا يجري هنا؟ سألت .

سألني جونا إن كنت أرغب باللعب ، أكاد لا أسمع ما قاله لأنَّ مادي تطلب منه أن يخرس وتقول لا ، لا تريد أن تلعب .

- لا أستطيع أن أسمعك ، أقول .

- المزارع الكسول ، هل تريدين أن تلعبي المزارع . . .

لا ، لا تريد أن تلعب المزارع الكسول .

ما هو المزارع الكسول؟ سألت .

أخبرني جونا من الصعب سماع ما يقوله ، يرتد إلى الأمام وإلى الخلف ويجلس على قدميه كما تفعل مادي ، وجهه يبدو نحيلاً وتوجد هالاتٌ سوداء حول عينيه .

- طبعاً أستطيع أن ألعب ، قلت .

صرخ جونا بفرحٍ ومادي قالت حسناً ، فقط هذه المرة .

أحضر جونا صندوقاً من الرفِّ فوق السرير . قالت مادي إنه لا يجب أن يعتقد أنَّه سيحصل على ما يريده عن طريق تجاهل ما يقوله الآخرين ، لقد كان هكذا طوال الوقت ، وعليه أن يحذر لأنَّه اعتاد على هذا السلوك ولن يحظى بحياةٍ سعيدةٍ إذا لم يتخلص

من هذه العادة السيئة .

فتح جونا الصندوق وأخرج اللوحة ، ونظر إلى اللعبة ليتأكد من أنَّ كلَّ شيءٍ في مكانه . لم يسمع ما قالته مادي ، وبإمكاني أن أشعر أنَّ هذا يستفزها ، وأنَّ صوتها يصبح أنعم حين تصبح كلماتها أسوأ .

أخبرني عن اللعبة ، قلت لجونا ، لكن عليك أن تتذكر أنّني أجنبية ، لا أفهم الأمور بسرعة ، أنا بطيئةٌ بعض الشيء .

نظر نحوي .

- أجنبية؟

- نعم .

- لكنك صديقة شقيقتي؟

- نعم ، لكنَّني أتيتُ من بلدٍ آخر .

- أيِّ بلد؟

- تدعى لاتفيا .

هزَّ رأسه . شعرت أنّني لا أستطيع ذكر اسمٍ آخر ، هذا

جعلني حزينةً وسعيدةً في الوقت ذاته .

بعدها أخبرني عن اللعبة ، شرح ببطءٍ وصبر ، أنهى كلَّ جملةٍ تقريباً بـ هل هذا مفهوم؟

القواعد سهلةٌ ، كلُّ لاعبٍ لديه مزرعةٌ ، والمزارع الأكثر كسلاً يكسب . عليك أن تتهرَّب من كلِّ الأعمال وتنام متأخراً وتدع الحقل ينمو على غاربه وتطلق الحيوانات . الشرير في اللعبة يدعى لجبرت الكسول ، عندما تقلب البطاقة يزورك ، ويبدأ بتنظيم الأمور وحرث الحقول ورعاية الحيوانات ، فرصتك الوحيدة هي أن تضع شيئاً في فطور لجبرت الكسول يجعله ينام ، أو تصطحبه لزيارة أحد جيرانك . لجبرت الكسول طويلٌ وشاحبٌ وهزيلٌ ويعتمر غطاء رأسٍ أسود .

ابتسمت وقلت إنَّني لم أسمعَ أبداً بهذه اللعبة . قالت مادي إنَّ اللعبة اخترعها مجموعة من الشّباب الذين سئموا من الألعاب المصممّة لفوز من يعتبرونه مواطناً نموذجياً وعليه إنقاذ العالم وكلِّ من فيه . المزارع الكسول كانت طريقتهم للاعتراض على كلِّ هذا ، اللعبة كانت حلم كلِّ طفلٍ في عيد الميلاد الماضي ، قالت إنهم لعبوها حتى أصيبت بالجنون .

نظر إليها جونا وابتسم وفمه نصف مفتوح . أعطانا نقوداً ورقيةً وقال إنَّ عليه التخلص من النقود بأسرع وقت ، هناك أماكن في الغابة حيث تستطيع نسيانها ، لكن عليك نسيان مئتين فقط في كلِّ مرة .

تنهّدت مادي وقالت إنَّ عليه أن يثبت في مكانه ، وإلاّ فلن نستطيع الجلوس في السرير واللعب . ذهب جونا إلى مكتبته وعاد بكتاب كبير ، وقال إنَّ بإمكاننا وضع الكتاب تحت اللوح حتى يبقى ثابتاً . قالت مادي إنّنا لا نستطيع رفع اللوح ، لكنّني قلت أعتقد أنّنا نستطيع ، إذا كنا حريصين . رفعت أنا ومادي اللوح ووضع جونا الكتاب تحته ببطء .

يا له من عملٍ عمل جماعيٌّ! قلت .

عملٌ جيدٌ ، قال جونا .

بدأنا اللعب . قال جونا إنَّ عليَّ البدأ لأنّني ضيفته . رميت النرد وحصلت على الرقم أربعة ، حرّكت مزارعي إلى الدّائرة الحمراء ، قرأ جونا البطاقة وقال إنّني محظوظةٌ لأنَّ مزرعتي ستحظى بشهرين من المطر وستغرق كلّ بيوتي . سألته لماذا يقول إنَّ هذا حظاً جيداً؟ عاد لهزِّ جسده ووضعت مادي يدها على كتفه لتهدّئه . قال إنّني لا أستطيع أن أخبّئ أيَّ طعام في الطابق الأرضي وكلُّ منازلي ستتلف وتتدمر ، ولن يعد لديَّ أيّ مكانٍ لأسكن فيه .

- يا لحظّي! قلت .

نظرت إلى مادي وهززت رأسي . كان دورها ، وقلت لجونا هذه هي لعبتي المفضلة ، أصبح في قمة السعادة ، قال إنَّ عليَّ أن أشتري واحدةً لك ، ثم جاءته فكرةٌ أفضل ، والداه وعداه بأن يشتريا له واحدةً جديدةً بمناسبة عيد ميلاده الذي سيكون في

كانون الأول ، لذا بإمكاني أن آخذ هذه إن أحببت . لا بأس بها ، رغم أنّه أضاع مزارعين ومعظم الفواتير الكبيرة .

- شكراً ، قلت .

- لكنها لعبةٌ جيدةٌ لتبدئي بها ، قال .

أخبرته عن سارة ، وأنّها على الأغلب لديها واحدة .

سألني جونا إن كنت متبناةً ، فأخبرته عن والدي وكاترينا . سألني عن أمي وقلت إنّني لا ذكريات لديّ عنها . سأل ماذا سيحدث مع كاترينا إن عادت أمي ، من سيختار أبي؟

- هذا يكفي ، قالت مادي .

- سيختار كاترينا ، أجبت .

نظرت إلى مادي وجونا ، نظرت إليهما جيئةً وذهاباً من دون أن أقول شيئاً ، ثم بدأت بالضحك . لا أعرف لماذا بدا الأمر مُضحكاً عندما قلته ، كأنني قاضٍ اتخذ قراراً هاماً . مادي وجونا ضحكا أيضاً . فجأةً أخرج جونا ريحاً فصرخت مادي وضربته بالوسادة ، احمرّ وجهه من الضحك ، المزارعون والنقود تبعثرت في كلِّ مكان . استطعنا إيجاد المزارعين ، لكنَّ بعض النقود اختفت . رفعت مادي البطّانيَّة ولوحت بيدها وهي تقول إنَّ الرائحة لا تزال موجودة .

نزل جونا عن السرير ووجد النقود الضائعة بين الفرشة ولوح السرير . رفعنا أنا ومادي الفرشة وغاص جونا وأخرج النقود .

قال جونا إنه عطشان ، فنهضت مادي وقالت إنها ستُحضر

شيئاً . عدَّ جونا النقود وسألته إن كان يريد مساعدةً ، هزَّ رأسه من دون أن يتوقف عن العدّ ، قلت من الجيد أنَّه يحافظ على تركيزه ، فهزَّ رأسه وظلَّ يعدُّ ويهمس بالأرقام ، وبقيت أقول كم هو جميلٌ أنَّه يركّز ، ثم فهم المزحة وابتسم وطلب أن أتوقف ، وتوقفت .

جاءت مادي بإبريق وثلاثة كؤوس بداخلها ثلج ، قالت إنها نوعٌ من المشروب يحبّه جونا إلى حدّ الجنون . شربنا وكان الطعم فيه دُخنة ونكهة ليمون ، قلت إنه لذيذٌ جداً ، وأخبرني جونا أنواع أطعمةٍ أخرى بداخله .

ابتلع جونا عدّة جرعاتٍ من كأسه . نظرت إليه من زاوية عيني وكان باستطاعتي رؤية المشروب ينزل في معدته وينتشر في جسده الصغير المحشور في تلك المنامة الكبيرة ذات الياقة الكبيرة . فكرت بما سمعته عن الأشخاص الذين يستطيعون العيش طويلاً من دون طعام ، لكن لأيام قليلةٍ فقط دون ماء . أستطيع رؤية الماء يشعُّ من ذراعيه وأصابعه ورجليه ورأسه كمصباح كهربائي .

لعباً اللعبة وتركنا جونا يفوز . خلال اللعبة ذهبت مادي إلى الحمام ، وعندما عادت كانت ترتدي سروالاً رياضياً رمادياً وبلوزة خفيفة ، نظرت نحوي وابتسمت . لم تعد الأخت الكبيرة المتردّدة ، أصبحت أقرب لأمٍّ تمزح وتضحك وتشجّع وتصبر وتدع جونا يفوز .

سمعنا صوتاً في الأسفل ، وحركة مفاتيح الصوت ، حزنت مادي وقالت :

- والدك .

نزلنا للأسفل . جاء جونا معنا أيضاً . أبي يقف أسفل الضوء وأنفاسه مقطوعة ، يدردش مع والديّ مادي ، عندما رآني لوَّح لي فيما كان يستمع لوالدة مادي . قالت مادي شيئاً وجونا خلفي ، وابتسمت ونظرت وأنا أنظر لأبي طوال الوقت ، حاولت أن أعرف مزاجه ولماذا هو هنا .

نظر نحوي وصنع وحرّك يده بإشارةً تدلُّ على استعجاله .

- هيا ، علينا أن نذهب .

- أين؟ قلت .

- الحفلة ، حاولت الاتصال بك .

ارتحت لأنَّه لا يوجد شيءٌ آخر ، كنت مرتاحةً لدرجة أنني صرت أتطلع للحفلة ، لكنَّني لست متأكدةً بعد .

ارتديت حذائي ، وكان الجميع يتكلم عن المزارع الكسول . والدا مادي يقُصَّان القصص ، جونا أيضاً يقصُّ قصصه بينما يتشبّث بالسياج كالقرد . والد مادي قال شيئاً مقتضبًا مضحكاً ، ونحن نقف هناك وننتظر بعضنا ، وأنا أفكر في والدي حين نصبح في السيارة والسماء السوداء في الخارج وكيف سيغير السرعة ويلتفت إليَّ ويقول شيئاً ، ويتغير صوته ثم يحلُّ

الصمت ، ويدان غير مرئيتين تلتفان حول عنقي محاولةً خنقي .

قال أبي إنَّ عليهما أن يزورانا قريباً ، ليس لا أن نكتفي باللقاء على عتبة البيت هكذا أو في موقف الحافلات ، ردّت أم مادي طبعاً ، وكانت تعني ذلك ، تبدو متلهفةً لا تشبه شخصاً سيتطلق .

فتحت الباب ، الهواء باردٌ في الخارج . لوّحت مودعةً للجميع ونظرت إلى جونا ولوّحت له ، لكنّه تحرّك بين الجميع وصار أمامي ، ذكّرني أن أسأل سارة إن كانت تملك لعبة المزارع الكسول ، ربما تستطيع مادي أن تحضر اللعبة إلى المدرسة غداً لألعب مع سارة حين أعود إلى البيت .

- لكنك لن تملك لعبةً حينها ، قلت .

نظر جونا بعيداً وقال لا يهم ، فقد لعبها كثيراً حتّى ملّ منها . قالت أمّه إنَّ الجو باردٌ ، وعليه ألّا يقف في البرد ، لكنّه قال إنَّ الجوّ ليس باردًا وضحك الجميع ، فهو يضع كفّيه فوق صدره كأنّه يصلّي وصوته يرتجف .

ربتُّ على رأسه وتلفّت حولي . خطوت خطوةً نحو الدرج وكأنَّ قدمي انزلقت مستسلمة ، وقعتُ مثل كيسٍ ثقيلٍ ، وفي الثانية الأخيرة رفعت يديّ .

تمددت على الأرض ووجهي فوق الحصى الباردة ، رائحة الطين كانت لطيفةً ، وهذا يعني أنّني لست ميتة . كان نظري موجّه إلى الأمام مباشرةً ، وأرى إطارات السيارة السوداء

والحديقة البيضاء والأرجوحة ، وعنقي تؤلمني ورجلي تبدو ملتوية . سمعت أصواتاً خائفةً حولي ، والكلمة الوحيدة التي استطعت سماعها كانت صوت والد مادي وهو يقول أدخلوا جونا ، هل يمكن أن تدخل جونا؟

أبي يقف بجانبي ويتكلّم بلغتنا القديمة . حاولت الوقوف ، أمسكني من أسفل ذراعي ، جلس على ركبتيه وأمسك برأسي ، قال إنَّني لا أنزف ، وأنَّ الأمر انتهى ، وسألني إن كان بإمكاني تحريك رأسي وذراعيّ ورجليّ . شعرت بالرّاحة حين عرفت أنَّني أستطيع تحريك كلّ شيء .

ساعدني أبي على الوقوف على رجلي ، وسألني إن كنت أستطيع الذهاب نحو السيارة . قال إنَّه سيمسك بذراعي طوال الطريق . أستطيع أن أتّكئ عليه وأستريح . نظرت إلى السيارة ، إنَّه أمر علينا القيام به معاً ، تبعد عشرة أمتارٍ تقريباً ، أعلم أنّني أستطيع الوصول إليها . سمعت خطواتي فوق الحصى كأنَّها أغنية . والدة مادي تقول إنَّ الظلام حالكٌ في الخارج ، لا بدَّ أن نضع مصباحاً كهربائياً أقوى ، كأنّنا كنّا بحاجة إلى حدوث أمر كهذا . سمعت أباها يقول إنَّهم لا بدَّ من أن يأخذوني إلى المستشفى ، لكنَّني لا أراهم حولي ، لذا لا بدَّ من أنَّهم قالوا ذلك من قبل ، عندما كنت على الأرض . وقفنا قرب السيارة ، فتح أبي الباب وساعدني على الدخول وأغلق الباب . الهدوء يعمُّ المكان . انطلقنا . اتصل أبي بكاترينا ، كان يكرِّر شيئاً مراتٍ

ومرات ، سمعت أرقاماً ، شمالاً وإلى الأمام هناك تقاطع . أمسكت أنفاسي ، رجلي تؤلمني أكثر الآن ، أقول لا أعرف ما الذي حصل ، حاولت أن أشرح له ، وضعت رجلي بالأسفل ، كأنَّ هناك حفرةً وقعت فيها ، كأنَّ رجلي لم تعد تريد أن تكون رجلي ، وبنصف الخطوة استسلمت فحسب . سألني والدي إن كنت بخير ، إن كنت أشعر بدوار ، وقال إنَّ عليَّ ألّا أنام ، قلت إنّ رأسي لم يُصب ، لكنَّه خالفني الرأي ، ولمس رأسي كأنَّني لست متيقّنة مما حدث . قاد أبي السيارة نحو البلدة ، تاه واتصل بكاترينا مرةً أخرى ثم صعدنا نحو التلة وقال إنَّنا وصلنا ، وقف خارج باب المستشفى وأتت كاترينا بكرسيّ بعجلات .

ذهب أبي ليركن السيارة . ساعدتني كاترينا لأصعد إلى الكرسيِّ وسألتني إن كنت بخير ، انحنت فوقي ونظرت إلى وجهي . أزاحت شعري بلطف ، وربما كانت هناك أوساخٌ على جبهتي لأنَّها فركتها بأصابعها قليلاً . ترتدي معطفاً زهرياً وحذاءً طويلاً وأنيقاً ، رأتني أنظر إليها وقالت الحمد لله أنَّنا لم نذهب إلى الحفلة .

أتى أبي ودفع الكرسيَّ ومشت كاترينا أمامنا ، توقفت عند مكتب الاستعلامات وسألت أحدهم في معطف أبيض ، ولوَّحت لنا لنتبعها .

وضع أبي يديه على كتفي . مشينا عبر الممر حيث وقف عمالٌ بملابس خضراء يتحدثون . واحدةٌ منهم كانت امرأةً تضع

شبكةً على شعرها ، تستمع وتنظر وتبدو جديَّةً جداً . رأيت قطعة من جبل حوله مياهٌ تتساقط ، ومصعدٌ داخل الجبل ، فتحت أبواب المصعد وخرج ثنائيٌّ شابٌّ ، يضع الرجل ذراعه حول كتفيها وينظران نحونا كما لو أنّنا على وشك التقاط صورة لهما . وصلنا المصعد ، ضغطت كاترينا على أحد الأزرار وسمعنا موسيقى أغنيةٍ تبدو طفولية ، ولكن هكذا هي معظم الأغاني الشهيرة .

وصلنا غرفة الانتظار ، ويبدو أنَّهم كانوا يتوقعون وصولنا . لوّحت ممرضةٌ لنتبعها إلى حيث يوجد الطبيبة ، تبدو شابَّةً رقيقة ، سألتني ما حدث ، هزَّت رأسها حين أخبرتها ، تبدو وكأنَّها داخل رأسي ، وترى كلَّ شيء ، كان عليَّ فقط أن أشير إلى ذكرياتي وهي تفهم كلَّ شيءٍ وليس عليَّ أن أتكلَّم أكثر ، كنت ممتنةً لذلك .

طلبت من أبي وكاترينا الانتظار في الخارج ، وطلبت مني أن أخلع ملابسي وأبقى في ملابسي الداخلية . جلست بكتفَين منحنيتَين وفحصت ذراعي ورجلي وعنقي ، وفكّرت بالرجل الذي يفحص الطائرات في المطار قبل أن تنطلق .

فكّرت بالذئب المستوحد ، ثم أدركت أنَّ عليَّ العودة بسرعة وإلا سيفوت الآوان قد فات .

أستطيع تحريك يدي ورجلي وكلِّ شيء . قالت إنَّ عليَّ أن

أريح قدمي ، وربما من الأفضل استخدام العكّازات لعدّة أيام ، لكن فقط عند الحاجة ، عندما أستطيع استخدام قدمي عليّ أن أستخدمها .

سألت الطبيبة عن قدمي التي لم تعد تريد أن تكون قدمي مرةً أخرى ، لم تكن مستعدّةً للخطوة التي أخذتها ، ولم تتوازن جيداً ، وهي الآن تشعر بالعار كأنّها طفلٌ صغيرٌ ينوح بصوت أعلى مما يجب ، لأنّ القدم تريدنا أن نتأسّف لحالها ، ولا تريد أن نعتقد أنّها حمقاء .

ارتديت ملابسي ولم تكن رائحتها طيّبة . كلُّ شيءٍ يتغير في اللحظة التي أتنبّه فيها . الطبيبة لا تزال لطيفةً ، لكنها كذلك فقط لأنّها تأسف لحال الطفلة من أونجا- بونجا التي هربت من بيت الدعارةحقير ، وتسكن الآن في بيت المنقذة اللطيفة في القلعة ، صاحبة الاسم اللطيف والكعك الإيطالي وسيارة الجيب والمدرسة والحدائق ، والعجوزين اللذين يحرصان على ممارسة الإنجاب .

دخل أبي وكاترينا ، أخبرتهما الطبيبة ما أخبرتني . شكرنا الطبية وودّعناها . أخذتني كاترينا إلى حيث سيسلمونني عُكّازتين ، وفي الوقت ذاته أحضر أبي السيارة من الموقف ليلاقينا في الخارج . دخلنا المصعد ونزلنا نحو الممرِّ وكاترينا تهمس بأشياء خلفي . أتساءل ماذا كانت ستفعل لو أنّها عرفت ، هي تتوقع مني أن أكون ممتنّة ، على الأغلب تعتقد أنني أجلس كلَّ ليلةٍ

أكتب رسائل لأصدقائي هناك في أونجا - بونجا ، وأتبجَّح أمامهم حول بالقلعة والكلب الذي اسمه ها ها ، وأنني أريد أن أبيِّن للعالم أنَّنا متعلّمون وأننا نقرأ عن الفلاسفة ، ولا نزال قادرين على الضحك على أنفسنا ، وأننا سمَّينا كلباً يتمرغ بالقاذورات ويأكل الخراء ويشمُّ مؤخِّرات الحيوانات الأخرى على اسم شخص هامّ وغنيٍّ ومحترم .

هذا ما تعتقد أني أفعله ، تريدني أن آخذ ما تعرضه عليَّ بامتنان ، تحمل الصحن إلى المطبخ ظانّة أنني أشعر بأنَّها عظيمة .

هذه هي الخطة ، هذا هو جوهر المسألة ، هذه البضاعة الفاسدة تريد أن تشعر أنَّها جيدةٌ ، نحن مرسلون من الله ، السيد أونجا - بونجا وابنته القذرة ، سكان القبو ، تريد أن تجول بنا في كلِّ الأماكن كأننا ميداليةٌ على صدرها ، أن تقودنا عبر القلعة والأماكن المختلفة ونحن نشخر ونتفاجأ ونكاد نقع ، فيرضى الجميع عن أنفسهم .

حسناً إليك الخبر ، السيد أونجا - بونجا وابنته الرثَّة لديهما حياتهما الخاصة ، ولم يولدا ليجعلاكم ، أيها النبلاء ، راضين عن أنفسِكم ، يريدان تشكيل مصيريهما بنفسيهما ، وسيفعلان ، ترقّبوا فقط .

استلمنا العكازتين من غرفة ذوي الاحتياجات الخاصة . نظرت من فوق كتفَيِّ الرجل المليء بالدهون نحو الصفوف

اللانهائية للعكازات والأرجل الاصطناعية والأحذية الخاصة ، بحثت عن رؤوسٍ إضافيةٍ هناك ، كان بإمكاني استبدال حياتي بحياة شخصٍ آخر وأفكاره وذكرياته .

لكنَّني لا أستطيع التفكير بظروفٍ أرضى فيها بمقايضة تاريخي مع بتاريخ شخصٍ آخر ، حتى لو حبسوني ووضعوني في صفٍّ طابور المحكومين بالإعدام ، لأنني إن رضيت سأفقد كبريائي ، والكبرياء هو آخر شيءٍ يجب فقدانه . أحياناً يقولون إنّه الأمل ، لكن لا أعرف ، أستطيع تصوُّر حياتي من دون أمل . الأمل هو النّظر إلى المستقبل ورؤية الإمكانيّات ، لكن بإمكاني نسيان المستقبل بسهولةٍ ، المستقبل رفاهيةٌ ، حين يكون عليك الكثير للتعامل معه الآن وهنا . لكنَّ الكبرياء مختلفٌ ، الكبرياء هو كيف تتعامل مع ماضيك ، إن تنازلت عن كبريائك ، ستترك ستدفع بالآخرين إلى التساؤل عن ماضيك ، يشيرون إليه ويضحكون ويسرقون أشياءك ويدّعون أنَّها ملكهم ، وربما يتربّحون المال من لقاء ذلك .

ساعدتني كاترينا لتجريب إحدى العكازات . الرجل البدين أرانا كيف نعدِّلها ، نحتاج لأداةٍ بسيطةٍ فقط .

الرجل البدين يريد استرجاع الكرسيِّ المتحرك ، قال نكتةً وضحك مع كاترينا وابتسمت ، وفاحت مني رائحة أونجا - بونجا .

ستتبعني الرائحة إلى الممرِّ حين أتحدث مع كاترينا ، رائحة

نسمات أونجا - بونجا القليلة ، والحساء العفن والنقانق الباردة ستصل إلى أنفها .

أرادت كاترينا أن أجلس في المقدمة حيث المجال متّسعٌ لرجليّ ، لم يقل أبي شيئاً ، ابتسم فحسب . هذا شيءٌ نفعله ، علامتنا المسجلة ، تلك الابتسامة الفارغة التي لا حول لها ولا قوّة . لكن احذر من كلِّ ما يوجد وراء تلك الابتسامة .

كاترينا انحنت للأمام وسألتني إن كنت أحتاج إلى شيء ، سألتها ماذا تعني ، وبدت منحرجة قليلاً وقالت بعض المثلّجات ، أو استئجار فيلم ، ثم بدأت بقصةٍ طويلةٍ عن شيء طلبه الطبيب حين مرضتْ سارة ولم ترغبْ بالأكل . طلب الطبيب أن أشتري أيَّ شيءٍ تطلبه سارة ، لا يهمُّ إن كان حلوى أو مثلّجات ، منذ ذلك الوقت صار تقليداً بينها وبين سارة يفعلانه دون تفكير .

ابتسمت وقلت إني لست بحاجة إلى ذلك ، شكراً . بزاوية عيني استطعت رؤية أبي من خلف المقود ، يبدو خائب الأمل لأنني أردُّ برسميةٍ وأرفض أن أفتح قلبي .

يوجد شيءٌ في هذا الصمت ، كأنَّ هناك من يضبط التوازن ، ومن الممكن أن تميل الدفّة في أيِّ اتجاه ، كأننا جميعاً نعلم أنَّ هذه الحادثة من الممكن أن تقرِّبنا أو تزيد المسافة بيننا .

لم يحدث شيء . أتذكر أنني فكّرت أنَّه خطئي ، ثم

تسارعت أفكاري قبل أن أنام . أدار أبي الراديو ، يده كانت مترددةً وتحوِّم فوق الأزرار وبريق الأرقام الخضراء ، فكرت بكاترينا في المقعد الخلفي ، وكيف تحاول جاهدةً كي تنسيني الأمور التي فعلتها .

تلك الأمور التي لا تغتفر ، والتي تحاول أن تخفيها . تريد دفني بالطيبة لتوازن ذلك الأمر الذي لا يُغتفر الذي اقترفته ، عندها كأنني استيقظت ، كانت تلك اللحظة التي أملت فيها أن لا يكون هنا أحدٌ ليسمع ، ليس أنني لم أكن أغفو ، ولكن كنت أنزلق نحو مكانٍ آخر ، وفجأةً جلست في المقعد الأماميِّ ونظرت إلى الخارج نحو الظلام والأشجار والأسوار وصناديق البريد ، وقلت لنفسي : لحظة ، لقد بدأت بخلط الأمور .

فكرت بما تخيّلته في غرفة العكازات حول الرؤوس المعلقة على خطاطيف ، وداخلها الأجوف يحدِّق في الأرض ، وكيف وضعتُ رأس شخصٍ آخر على كتفي ، وعندما خلَعته ووضعت رأسي مرةً أخرى اعتقدت أنَّ كلَّ شيءٍ عاد إلى طبيعته ، الأفكار والتاريخ من الرأس الآخر وتاريخه اختبأت في مكانٍ ما في جسدي .

كاترينا لم تقترف أيَّ شيءٍ أمر لا يُغتفر ، أقول لنفسي ، إنك تخلطين الأمور مع الشخص الآخر ، الشخص الذي اخترعته من أجل جذب الذئب المستوحد ، لإجباره على القيام بالأشياء التي لا تستطيعين فعلها بنفسك .

كنت في فوضى عارمة للحظة ، وبدأت بالتشكيك بكلِّ ما فعلته ، كأنَّ كلَّ شيءٍ كانَ مبنياً على سوء فهم ، والآن ، بعد أن توضَّحت الأمور سيتغير كلُّ شيء .

وهي فعلاً تكاد تتغيّر ، ثم فكرت في أنَّ هذا سيكون نموذجياً ، وأنني ليّنةً وأسامحها ، هذا يحدث طوال الوقت ، أشخاصٌ مثلي يصبحون أكثر ليناً ، وأشخاصٌ مثل كاترينا يجتازون كلَّ شيء ، دائماً يفعلون .

طبعاً أعرف أنَّ كاترينا تختلف عن المرأة التي في رسائلي ، لكنَّني أعرف أيضاً أنَّها اقترفت أمرًا لا يُغتفر ، هذا واضح ، عليك فقط أن تقضي خمس دقائق معها ، دائماً تعتذر عن شيءٍ ما ، لماذا تفعل ذلك لو أنَّها لم تقترف أمرًا لا يُغتفر .

توقفنا عند صيدلية ، قالت كاترينا إنَّه دواءٌ لإيقاف الأوجاع ، عليَّ أخذ حبةٍ قبل النوم لأن النوم ضروري ، النّوم هو أفضل علاج .

- أنت طيّبةٌ جداً ، قلت حين وصل أبي إلى البيت .

لمست كاترينا ذقني بإصبعها ونظرت إلى الأمام ، وأعلم أنَّني عنيت ما قلته ، لكنَّه بدا رسمياً جداً . بدأ صوتي يكون مثل المضيفات ، أردت أن أقول شيئاً من القلب ، لكنه خرج كأنَّني أعمل في الخطوط الماليزية ، لا بدَّ وأنَّ المضيفة تقول الكثير من الكلمات الجميلة ، لكنَّ أحداً لا يُصدّقها .

عندما وصلنا البيت شعرت بوجعٍ في رجلي ، قلت إنَّني أريد

الذهاب إلى السرير وتناول حبة دواء . أبي قال إنها فكرةٌ جيدة . وقفت خارج السيارة ونظرت في الظلام والأشجار والسماء ، والغيوم السوداء التي تخرج مع أنفاسي وتختفي في الظلام . ناولني والدي العكّازين ، وذهبت كاترينا لتُعدَّ الشاي وقفزت نحو المنزل ، وأبي خلفي على الدرج ، وكان من السهل القفز برجلٍ واحدة .

جلست في السرير ، أعطاني والدي حبة دواءٍ وكأس ماء ، نظر إلى علبة الدواء وسألني كم أزن ، وأجبت أنَّني لا أستطيع التذكر ، فضحك وقال إنَّه سؤال غير حساس .

تمدَّدت على السرير وحدَّقت بالسقف . سألني أبي إن كنت أريد شيئاً ، فطلبت أن يطفئ الضوء . طلب أن أصيح إن احتجت شيئاً وانتظرت حتى أصبح في المطبخ . أخذت الحاسوب من أسفل السرير ودخلت إلى حسابي ، كان عليَّ أن أعيد طباعة كلمة السّر ثلاث مراتٍ ، أنا متعبةٌ جداً .

هناك رسالةٌ واحدةٌ : «السّبت يتحدد مصيرنا» .

استيقظت في الظلام ، رجلاي تخفقان . نهضت لأذهب إلى الحمام ، تحرّكت بسرعةٍ وكدت أفقد توازني .

وصلت الحمام من دون عكازتَّي وفكرت في أن الطبيبة ستقول إنَّني فتاةٌ طيّبة تحاول أن تمشي من دون عكازات لتعيد رجليها إلى العمل من جديد . عدت وتمدَّدت وكان الدواء قرب الطاولة مع كأس الماء . أخذت حبّة واحدةً وفكرت بالذئب

المستوحد ، وفكرت برجلي وأنني أنا الرِّجل التي فقدت توازنها . الآن أشعر بالعار لما فعلته ، وأتأوَّه وأبكي لبعض الوقت لأجلب انتباه الجميع إليّ . أخذت حبة دواءٍ وغرقت في النوم .

استيقظت مرةً أخرى ، كأنَّني لم أنم كثيراً . رجلي لا توجعني ، لكنَّ الغرفة دافئةٌ وأنا أتعرَّق ، وأفترض أنَّ رائحتي أسوأ مما كانت .

جلست ووضعت رجلي على الأرض ، لم تكن تؤلمني ، ربما ذهب كلُّ شيء ، ربما الدواء كان فعلاً قاتلاً للألم ، ليس فقط الألم ، بل رقم الألم . لا أستطيع التفكير بالكلمةِ المناسبة ، أنا متعبةٌ جداً .

وقفت على رجلي ، وبدأت فوراً تنبض . هذه المرة تناولت العُكّازات وقررت ألّا أستعجل . فتحت بابَ الممر وسمعت صوت كاترينا بالأسفل في المطبخ ، تُعيد جملةً مرةً بعد مرةٍ ، كأنّهاَ هناك تحادث شخصاً غبياً لا يستطيع أن يفهم . في البداية اعتقدت أنَّهما يتشاجران وهي خائفة ، إنه صوتها ، لو أنَّ هذا صوتها والشجار مع أبي فإنّه جديّ ، لكن لا أسمع سوى صوتها ، لذا فهمت أنَّها على الهاتف مع أحدهم ، ثم ذكرت اسم سارة ففهمت أنَّها تحادث طليقها . صوت كاترينا يرتجف ، بدأت بقول شيءٍ ما ، ثم قاطعت نفسها وقالت إنها تحترم أنَّ هذا اليوم هو له ، لكن حدثت حالةٌ طارئة ، قالت إنَّ سارة اتصلت بها في الليل وهي قلقةٌ على أختها غير الشقيقة .

كررت كاترينا الكلمة ، أختها غير الشقيقة ، وانتابني شعورٌ بأن والد سارة قال ملاحظةً سخيفة . بدأت تغضب من جديد ، وقالت اذهب إلى الجحيم ، قالتها مرةً أخرى ، ثم سمعت صوت ارتطام قويٍّ ، ثم بدأت تهمس وتلعن نفسها وتساءلت إن كانت قد كَسرت الهاتف . حاولت كسر الهاتف من قبل لكن لم يحدث شيءٌ ، يبدو أنَّه غير قابلٍ للكسر .

كان الجو هادئاً في الأسفل ، أتساءل لماذا هي وحدها ، وكم الساعة . تلك الضربة لا بدَّ أنَّها أيقظت كلَّ من في البيت ، لا بدَّ وأنَّها سُمِعت من المرأب والحديقة . أتساءل كم الساعة . عادت كاترينا للتكلم معه على الهاتف ، قالت إنها آسفة ، ورجته أن يخفِّف من سُخريته لأنَّها كانت قاسيةً في الليلة الماضية ، وأنَّ سارة اتصلت بها في الساعة الواحدة ليلاً ، ألم تسمع ذلك؟ ألم يلاحظ أنّها قلقة؟

بدأت أفهم سبب الشجار . والد سارة أعدّ خططاً لليوم ، لكن سارة تريد أن تراني وتُحضر لي شيئاً . لم ترفع كاترينا صوتها مرةً أخرى ، تكلّما كثيراً ، وأنا فعلاً أريد أن أذهب إلى الحمام ، لكن لا أستطيع حتى ينتهي الأمر في الأسفل . قالت كاترينا إنها توافق على مبدأ الثبات وألّا تدع سارة تتنقل من بيت للآخر . حاولت كاترينا إقناعه أنَّ هذه حالةٌ طارئةٌ وشأنٌ عائليٌّ ، ويبدو أنَّ زوجها السابق قال إنَّ هذا أيضاً شأنٌ عائليٌّ ، وبدأت أفكر بأخته وكيف أنّها لم تُحبها يوماً ، لكن تلك كانت المرأة

الأخرى ، المرأة التي في الرسائل ، أليس كذلك؟

- إنها تحبّ الفتاة ، ألا تفهم؟

بدأت تبكي مرةً أخرى ، وأغلقت السماعة . هي بقيت هادئةٌ لوقتٍ طويل . صبَّت بعض الماء وحلَّ الهدوء ، ثم صبَّت بعضه في الحوض ونظَّفت أنفها .

أتساءل إن كانت تنظر إلى مخاطها في كلِّ مرةٍ تنظف أنفها . صعدت ضحكةٌ مني وضغطت يدي فوق فمي ، الخطوات اختفت وأستطيع أن أذهب أخيراً .

نمت مرّةً أخرى . استيقظت من الجوع ، نهضت وحاولت التركيز في عيني . فكّرت أنَّ عليَّ النهوض وفتح الستائر لأنّ الغرفة مظلمةٌ جداً . عليَّ أن أكون حذرةً حتى لا تنقلب ساعتي البيولوجية ويصيبني «الجِت لاج» ، أو ربما عليَّ أن أقول «جِتلاجد» عندما أذهب إلى المدرسة بالعكّازين .

لكنَّني عندها رأيت أنَّ الستائر ليست مُغلقةً ، وأنَّ الظلام دامسٌ في الخارج . ثم خطوت ناهضةً ولم أعد أكترث بقدمي . أضأت المصباح ونظرت إلى الساعة ، إنّها السادسة تقريباً . فمي يؤلمني . أخذت المعطف البيتيّ من على الكرسي . رجلي تؤلمني . خطوةٌ أولى صغيرة ، في البداية اعتقدت أنني أستطيع أن أتدحرج ، لكنّها آلمتني كثيراً لدرجة أنَّ رجلي التوت ، لذا أخذت العكازين وقفزت إلى الباب وفتحته .

كانت هناك موسيقى فرحة تأتي من المطبخ ، رأيت أبي وكان متفاجئاً لرؤيتي ، يلبس مئزراً نهدياً وشعره مشعّث . سألته إن كان بإمكانه أن يساعدني في النزول ، وقف خلفي وأحاط بذراعه حول معدتي وقفزت خطوةً خطوة ، بعدها صرنا في المطبخ ، الرائحة طيّبةٌ كأنّها سحابةٌ في الهواء ، كأنَّ الهواء أصبح سائلاً وأستطيع شربه كالحساء ، أنا جائعةٌ جداً ، لكنَّ قلبي ينبض بصوتٍ أعلى . نظرت إلى الموقد وحاولت أن أُبقي صوتي هادئاً .

سألت أين كاترينا ، قال والدي إنها ذهبت مع الكلب . هناك شيءٌ في صوته ، كأنَّه كبرياء . أعتقد أنَّه متفاجئٌ وسعيدٌ لأنني سألت . نظر إلى النافذة وقال إنه يأمل ألّا تغيب كثيراً لأنَّه يعتقد أنَّها ستمطر في أيِّ وقت ، لكنه أضاف أنَّ هذا من طباعها ، أن تنتظر المطر ليهبط لأنَّها تحبُّ المشي في المطر ، هي مثلك .

ابتسمت ونظرت حولي في المطبخ . لا أتذكر أنني أحبُّ أن أمشي في المطر ، ربما حين كنت صغيرة ، لا أتذكر الكثير عن ذلك الوقت ، ربما أردت أن أبدو مجنونةً كي يُحبَّني الجميع ، لم أكن أكتفي ، من المحرج التفكير بذلك . سألت أبي إن كان بإمكانه مساعدتي على النزول ، سألني لماذا ، أجبت أنني أريد أن أتجوَّل فحسب ، لم يكن مقتنعاً ، وأعاد كلمة تتجوّلين؟

نعم ، أتجوّل .

رفع قدراً كبيراً عن الموقد . ساعدني على النزول وطلب أن أصيح حين أحتاجه ، وأخيراً ركض إلى فوق ، إذ يبدو أنَّه قرر أن يعدَّ العشاء .

لم أكن قد حزمت المعطف بما فيه الكفاية ، ربطته بقوةٍ وهذا جعلني أفكر بالحبل ، قفزت نحو الرفوف حيث توجد الأحذية ووجدت جزمة ، قفزت نحو الباب الرئيسي وفتحته . فقدت أنفاسي ، فكلُّ شيءٍ مظلمٌ وبارد ، الرياح تحرّك الأشجار ، ويبدو كأنَّه نهرٌ في عاصفة ، أردت أن أصرخ لكن لن يسمعني أحد .

الملعب فارغٌ ومظلمٌ كالمحيط ، ومع ذلك أستطيع رؤية كاترينا والكلب يقفز بجانبها ، كانت صورةً قديمة ، فقط هي والكلب . الآن وأنا أرى الصورة أتساءل إن كانت سعيدةً وهي تخرج الكلب للمشي ، أعلم أنَّها قالت ذكرت شيئاً من هذا القبيل ، لكنَّني لا أستطيع أن أتذكره تمامًا ، شيئاً عن كونها غاضبةً وتمزّق الأغصان وترمي الصخور في الجدول ، لكن حين عادت الصورة لم تكن غاضبةً ، كانت حزينةً فقط ، أو أنَّها تشعر بسعادةٍ حقيقية .

لكن حين فكرت فيها وبالكلب ، كانت فتاةً ، وهو الكلب الذي تمنَّت أن تحصل عليه منذ وقتٍ طويل ، كلَّ كريسماس وعيد ميلادٍ لسنواتٍ عديدة ، وها هو ، وها هي الفتاة وكلبها ، وسيتقاسمان الكثير من الأسرار ، الكثير منها سيختفي حين يموت الكلب . توجد أربعة أرجلٍ على الأرض ، لا أستطيع

استخدام العكازين ، عليَّ استخدام رجلي ، وهي تؤلمني كثيراً ، لكنَّني الآن على الأرض ، بدأت أقفز ، أصبحت بين العشب وغرست العُكّازات في الطين ، القفز أصعب بكثير . نظرت إلى الغابة من بعيدٍ وغرق قلبي ، أريد أن أصرخ ، لكنَّني لا أريد أن يأتي أبي ، لا أبي ولا أيٌّ من الخدم . قفزت وقفزت ، عندما أصبحت في منتصف الطريق المؤدي إلى الجدول فقدت توازني وسقطت ، جلست هناك بهدوءٍ واستمعت لأنفاسي ، أعلم أنني لم أؤذ أيَّ شيءٍ ، وفجأةً ضحكت عالياً . وقفت ونظرت نحو القلعة ، إنّها قريبةٌ بما يكفي لأصرخ ، صرخت على كاترينا وبلاتو ، هناك فراغٌ كبيرٌ ولم أستطع تمييز صوتي ، لا أذكر أنني صرخت بالإنجليزية من قبل ، ليس هكذا ، يبدو بلاستيكياً ، إنها المضيفة مرّةً أخرى ، شعرت بالأسى عليها ، لا أحد يأخذها على محمل الجدّ ، ليس حتى حين يحترق المحرّك وتتحطم الطائرة .

الهضبة هناك ، ليست بعيدة ، وأستطيع أن أرى الجدول . نظرت إلى القلعة مرةً أخرى ، وفجأةً عادت إليَّ كلُّ الكلمات التي كتبتها للذئب المستوحد ، كلُّ الأشياء التي طلبت منه أن يفعلها بها ، لكنَّني كتبت «بي» ، فكرت بكاترينا والحبل حول عنقها ، وسؤالٌ حزينٌ في عينيها والكلب الميت قربها .

صرخت بصوتٍ أعلى ، أنا على وشك أن أصل . لقد فعل العشب شيئاً لعكّازاتي ، أسقطتهما وتركتهما على الأرض .

رجلي تؤلم لكنَّني أستطيع أن أقفز فوق الألم . أنا على الهضبة والجدول في الأسفل كأنّه جرحٌ في الظلام . ناديت باسمها مرةً بعد مرةٍ ، أبدو كالكلب الآن ، صرخت وصرخت ، ومع كل صرخةٍ كان بإمكاني رؤية المزيد ، الماء يلمع في الأسفل والصخور والأشجار .

مرحباً .

أمسكتُ أنفاسي ، رأيت شيئاً على الطرف الثاني ، شيئاً رمادياً في الغابة .

إنها كاترينا ، تلبس معطفاً بأكمام طويلةٍ وتخفي يديها ، الكلب يلهث ويقف في مكانٍ حيث المياه ضحلة وهو يقفز فيها . ركضت كاترينا عبر الماء ، لوّحت لي وحاولت أن تتوازن ، لكنها كانت تنظر نحوي طوال الوقت . هي الآن قريبةً جداً ، أستطيع رؤية وجهها مدوراً ومتيقظاً ، لم أر أحداً متيقظاً هكذا ، بعدها لم أستطع أن أمسك نفسي ، أردت الجلوس فقط ، أردت التمدُّد والذوبان داخل العشب مثل المطر ، بكيت وبكيت ، هي معي الآن ، صوتها حولي كعصفور ، رفعتني وضمَّتني بذراعيها ، وكان المكان دافئاً تحتي وكانت رجليها .

لكن عزيزتي . . .

مسحت شعري بأصابعها مرةً بعد مرةٍ ، دفنتُ رأسي بعنقها وجسدي يغرق بالدموع . في الفراغات بين بكائي كنت أسمع الكلب ونباحه ، وكيف كان ينظر في اتجاهٍ آخر ، ومع أنّ عينيَّ

كانتا مغلقتان كنت أستطيع أن أتصوّر الكلب مهتمّاً في البداية ، لكنَّ اهتمامه يتلاشى ، والآن يريد من هذه الفتاة الغريبة أن تنهض وتلمَّ عكازتيها وتقفز نحو المنزل ، ضحكت قليلاً ثم بكيت مرةً أخرى .

ما المشكلة؟ همست .

بعد قليلٍ تمكّنت من الوقوف ، وجهي ساخنٌ وجسدي كذلك كأنّه الهدوء بعد العاصفة ، عيناي متورّمتان وشفتاي ملتصقتان بالمخاط .

لقد فعلت شيئاً سيّئاً ، قلت .

هذا ما استطعت قوله قبل أن أبدأ بالبكاء مرةً أخرى .

كاترينا تُمسك بي لكنها اهتزّت بعض الشيء ، كأنّها تُرتِّب كرسياً أسفل تحتي ، ثم سمعت الكلب ، نبحةً بسيطةً ، ويحدِّق في شيءٍ ما . وتوقفت عن البكاء ، لكن لا يوجد شيءٌ في الجانب الآخر .

نظرت إلى الكلب ، يجلس قرب الجدول وينظر باتجاه الماء ، لكن لا شيء في الجهة الأخرى .

- يوجد شخصٌ هنا ، قلت .

- لا ، لا يوجد ، قالت كاترينا .

- أنت لا تعرفين .

- بل أعرف ، لقد ذهب .

نظرت إليها . هناك شيءٌ مختلفٌ فيها . نظرت إلى الكلب

مرةً أخرى ، لم يعد يحدِّق في الماء ، كان يلهث لشيءٍ بين الصخور ويبدو محرجاً .

ماذا تعنين؟ قلت .

مدَّت لي كاترينا منديلاً مجعلكاً ، نزل منه بعض الرمل حين فتحته . نظَّفت فمي وأنفي .

ابتعدتُ عن كاترينا ونظرت إليها ، أومأت لي بأنَّ عليَّ ألّا أقف على العشب . بدأت بخلع معطفها وفردته على العشب ، جلست فوقه ورجلي تؤلمني ، تمدَّدت على المعطف ونظرت إلى كاترينا .

قالت إنها واجهت مشكلةً في الإنترنت قبل يومين ، وهي لم تواجه مشكلةً مماثلةً من قبل . أرادت إصلاح الأمر بسرعةٍ لأنَّ سارة تحتاج الحاسوب من أجل واجباتها ، و أبي قال إنني بحاجةٍ للإنترنت لأبقى على اتصالٍ مع أصدقائي القدامى . اتصلت بشخصٍ تعرفه ، اسمه تود ، مختصٌّ بالحواسيب . جلس في غرفة نومها ليفحص الحاسوب ، بينما جلست في المطبخ لتجهز فطيرةً ، قرأت مجلةً بينما كانت الفطيرة في الفرن .

بعدها جاء تود إلى المطبخ ، كان مضّطرباً ، طلب منها أن تأتي لترى ، ذهبا إلى غرفة النوم وطلب منها الجلوس . هناك رسالةٌ على الحاسوب ، حاسوبها كان مرتبطاً بحاسوبي ، لأنّهما كانا متصلين على الشبكة ، اعتذر تود وقال إنَّ الرسالة كانت هناك فحسب ، ولم يستطع إلا أن يقرأها . وجد فيها شيئاً

مزعجاً . أصلح تود الشبكة ، نزلا إلى المطبخ وتناولا بعض الشاي وأكلا الكعك ، وذهب تود إلى البيت .

- ذهبت إلى غرفتي وقرأت رسائلك .

- قرأتها؟

- نعم ، أنا آسفة .

- لماذا فعلت ذلك؟

نظرت كاترينا بعيداً بوجهٍ فارغ .

- لا أعرف ، أجابت .

جلسنا بصمتٍ لمدةٍ من الزمن ثم بدأت تمطر ، نهضت ومدّت يدها ، نظرت إلى يديها فوق رأسي كأنّها عنكبوتٌ أبيض . أحسست بحماسةٍ داخل جسدي : نعم أو لا ، الآن هو الوقت ، احسمي أمرك .

أخذتُ يدها ، سحبتني ، وضعت المعطف فوق كتفي وقلت شيئاً عن العكازتين ، قالت سنجدهما .

كانت مقتنعةً تماماً ، وشعرتُ بالدموع في عينيّ مرّةً أخرى . كنت ممتنةً لأنّها واثقةٌ من إيجاد تلك العكازين السخيفتين .

وضعت ذراعي حولها وقفزت ، سألتها لماذا سمحت للأمر بأن يحدث ، لماذا لم تفعل شيئا؟ لماذا خرجت مع الكلب بينما كان تعرف بالخطر؟

كنت متأكدةً من أنّك ستأتين ، قالت .

عندها توقفت . تركتها ورأيت العكازين على العشب ، قفزت باتجاههما ، رتّبتهما بيدي لأسحبهما جيداً .

لا أصدقك ، قلت .

أخبرتها كم كانت ليلةً صعبةً ، وأنني لم أنم وكدت أن أفوّت الأمر .

لكنك لم تفوّتيه ، قالت ، ولا تنسي أنني أعرف كلمة السر .

لم أعرف بماذا أجيب . المطر ينهمر على رأسي ، أزحت المطر عن شفتي ، لكنّني أردت قول المزيد .

نظرت إليها وحاولت أن أفسّر مدى أسفي ، كان هناك المزيد من الدموع في عينيَّ ، لكنّني تمكنت من حبسها ، أعرف أنَّ هذه فرصتي للتكلم ، قريباً سنكون في البيت وهناك الأضواء والأرضية وأبي والعشاء وأسئلته ومزاحه ، وستنتهي اللحظة .

قلت إنني أتمنى تفسير كيف بدأ كلُّ شيء ، كلُّ هذا الغضب ، كلُّ هذه الكراهية . قلت إنني لا أستطيع أن أكون طبيعية ، لا بُدَّ وأنني معتوهة ، بالفعل أنا شيءٌ يمكن لشخصٍ مثل الذئب المستوحد أن يشتمه .

- أنتِ لستِ معتوهة .

ابتسمت كاترينا . كانت تُعاني من المطر ، شعرها كأنَّه قماشةٌ فوق أذنيها ، ظهرت كفتاةٍ صغيرة .

قالت : نحن نعتقد أن الأمور تُحلُّ بالطيبة والكرم واللياقة ،

الجميع سيتلقّى هذه الهدايا بيدين مفتوحتين ، لكنَّ هذا خطأٌ كبير ، أن تجعل شخصاً طيباً معك ، يمكن أن يكون من أصعب الأمور على الإطلاق . أحياناً يمكن للطيبة أن تكون أكثر استفزازاً من صفعةٍ على الوجه .

- لماذا؟ سألت .

هزّت رأسها وبدت مثل أسدٍ مبلول .

- ربما لأنّها تُذكّرُنا بأشياء لا نملكها ، أشياء حُكِم علينا ألّا نحصُل عليها أبداً .

- أريد الذهاب إلى البيت .

- أنا أيضاً حبيبتي ، دعينا نذهب .

بدأت بالقفز ، هي خلفي تماماً في حال فقدت توازني . فُتح الباب الرئيسي للقلعة ، ووقف شكلٌ مظلمٌ على الدرج ، لوّح لنا ، الكلب يدور حوله . كاترينا تتنفس بعمقٍ من خلفي .

من قبل أردت لها أن تموت . Tagad es vairs nezinu

الآن لا أعرف بالليتوانية .

مكتبة
t.me/t_pdf

كولكا

بلد جديد . لغة جديدة . عائلة جديدة؟ انتقلت الفتاة في رواية بينغت أولسون مع والدها من بيتهم المتواضع في لاتفيا إلى منزل رائع في انكلترا ، لديها زوجة أب ، وأخت ، وغرفة جميلة . وتملك كل الاهتمام والحب . لا يمكن أن يكون الوضع أفضل أليس كذلك؟

لكن الفتاة تائهة في عالم الخيال هذا . تسكن داخل عقلها ، حيث الشوق الكبير إلى أمها الغائبة والشاطىء هناك في كولكا ، وغضب نحو هذا العالم الجديد الذي لا تستطيع السيطرة عليه .

مرة أخرى يظهر بينغت أولسون قدرته الفذّة على الغوص في ذهن شخصياته والدخول إلى دهاليزهم العقلية . ها هو يخلق صورة لفتاة في طريقها إلى النضج تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تتأقلم في بيئتها الجديدة . هذه الرواية من أقوى ما كتبه على الإطلاق .

«النص يتنقل بسرعة وخفّة بين الصعود والنزول ، بين الفكاهة الساخرة والحزن المتصاعد ، قرأتها بكل سعادة .» *أماندا سميث ، ديلي نيوز*

«تغوص الرواية في المشاعر النفسية ، بمصداقية عالية ، استطاعت أن تلمسني من الداخل . رواية لا تفوّت» *كاميلا نيلسون ، صحيفة نورشوبينغ*

«كولكا من بين أكثر كتب اليافعين كمالاً من حيث الأسلوبية المتبعة في البنية الروائية ، أنصح بها بشدة .» *Sinziana Ravini, GÖTEBORGS*

«قصة سهلة تتحرك فيها البطلة دون عوائق ، أو إملاءات أو شروط داخل النص»

Ida Blessed, Helsingborgs Dagblad

t.me/t_pdf

t.me/tea_sugar

دار المنى

ISBN 978-91-87333-74-3